كتاب العربية
17

روميش تشاندر دات

حضارة الهند

Medyasoul ®

تصوير
احمد ياسين

ترجمة
مجموعة اقرأ

1432 هـ - 2011م

بسم الله الرحمن الرحيم

لصور
احمد ياسين

حضارة الهند

التاريخ الحضاري والثقافي والسياسي

ⓒ وزارة الثقافة والإعلام، المجلة العربية، 1432هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

تشاندر، روميش

حضارة الهند . / روميش تشاندر، مجموعة اقرأ . - الرياض، 1432هـ

292 ص ؛ 21x14 سم

ردمك: 2-03-8086-603-978

1 - الحضارة الهندية 2 - الهند - تاريخ أ. مجموعة اقرأ (مترجم) ب. العنوان

ديوي 954 1432/3040

رقم الإيداع: 1432/3040

ردمك: 2-03-8086-603-978

حضارة الهند

المؤلف: روميش دوت

المترجم: فريق اقرأ

Title: Civilization of India

.Author: ROMESH C. DUTT, CLE

Publisher: Asian educational service

Edition: 1995

جميع حقوق الطبع محفوظة، غير مسموح بطبع أي جزء من أجزاء هذا الكتاب، أو اختزانه في أي نظام لاختزان المعلومات واسترجاعها، أو نقله على أية هيئة أو بأية وسيلة سواء كانت إلكترونية أو شرائط ممغنطة أو ميكانيكية، أو استنساخاً، أو تسجيلاً، أو غيرها إلا في حالات الاقتباس المحدودة بغرض الدراسة مع وجوب ذكر المصدر.

تأليف: روميش تشاندر دات

حضارة الهند

التاريخ الحضاري والثقافي والسياسي

ترجمة

مجموعة اقرأ

الطبعة الأولى

1432هـ - 2011 م

كتاب العربية

17

كتاب

17

رئيس التحرير

د. عثمان الصيني

www.arabicmagazine.com

لمراسلة المجلة على الإنترنت

info@arabicmagazine.com

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) - شارع المنغلوطي

تليفون: 966-1-4778990 فاكس: 966-1-4766464

ص.ب 5973 الرياض 11432

المحتويات

- نبذة عن الكاتب..... 7
- الفصل الأول: الحقبة الفيدية (2000 – 1400 ق.م) 11
- الفصل الثاني: العصر الملحمي (1400 – 800 ق.م) 39
- الفصل الثالث: عصر القوانين والفلسفة (800 – 315 ق.م) 61
- الفصل الرابع: ظهور البوذية (عام 522 ق.م) 83
- الفصل الخامس: العصر البوذي (عام 315 ق.م – 500م) 109
- الفصل السادس: العصر البيوراني (500 – 800م) 141
- الفصل السابع: عصر سيادة الراجبوت (800 – 1200م) . 167
- الفصل الثامن: عصر الحكم الأفغاني (1206 – 1526م) .. 187
- الفصل التاسع: أحوال الشعب تحت الحكم الأفغاني 205
- الفصل العاشر: عصر المغول (1526 – 1707م) 221
- الفصل الحادي عشر: أحوال الشعب تحت الحكم المغولي .. 239
- الفصل الثاني عشر: عصر سيادة الماهراتا (1718 – 1818م) .. 271

تصوير أحمد ياسين

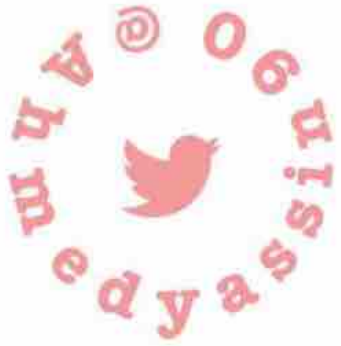

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

نبذة عن الكاتب

ولد روميش تشاندر دات في 13 أغسطس من عام 1848 في كالكوتا، وقد كان روميش دات موظفاً حكومياً ومؤرخاً اقتصادياً وكاتباً بنغالياً، وهو أيضاً مترجم رامايانا وماها بهاراتا.

ولد دات لعائلة مهمة ومعروفة لإنجازاتها الأدبية والتعليمية في البنغال من طائفة كايشثا الهندية، وبعد وفاة والده في حادث قارب تولى عمه (وهو كاتب شهير) رعايته، وكان أبرز شعراء البنغال في القرن التاسع عشر (تورودات) أيضاً أحد أقارب دات.

وفي عام 1864 التحق بجامعة كالكوتا وكان الثاني في الحصول على وسام الاستحقاق وحصل على منحة، وبعدها انتقل إلى إنجلترا، وفي كلية لندن الجامعية أكمل دراسته عن الكتاب البريطانيين، وأيضاً درس القانون في ميدل تمبل.

وفي عام 1871 التحق بالخدمة المدنية، وعمل بها حتى عام 1897 حينما تقاعد، وأتاح له التقاعد الرجوع للحياة العامة واستكمال كتاباته. وفي عام 1898 عاد إلى إنجلترا وعمل كمحاضر في التاريخ الهندي وقد

أصبح حاكماً لولاية بارودا. وفي يوم 30 من نوفمبر عام 1909 توفي روميش دات عن عمر يناهز 61 عاماً.

الفصل الأول

الحقبة الفيدية

(2000 - 1400 ق. م.)

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الحضارة البشرية القديمة

تميزت أربعة أجناس موهوبة لثقافتهم وحضارتهم في زمن بعيد منذ أربعين قرناً مضت؛ فقد قام الجنس الحامي بتأسيس إمبراطورية قديمة في مصر وتوسعوا في فتوحاتهم تحت حكم الملوك، والذين وصلتنا أنباء أعمالهم من خلال الكتابات الهيروغليفية، وغزا الجنس السامي كلدو (جنوب بلاد الرافدين) ووحدوا سومر وقاموا مثل الحاميين بترك سجلات عن حضارتهم القديمة باللوحات والكتابة المسمارية، وقام الجنس الطوراني بتأسيس مملكة في الصين وعملوا على تشجيع الفنون والأدب منذ أمد بعيد، وأخيراً فقد ازدهر الجنس الآري كشعراء موهوبين، وعملوا في الزراعة وغزو السكان الأصليين، وتمتلك هذه الأجناس الموهوبة بدايات الحضارة البشرية، وقد يكون من الملحوظ أن المناخ المعتدل والتربة الخصبة والأنهار المتدفقة شكلت المنابع الأولى للحضارة.

فقد كانت ضفاف النيل والفرات وضفاف الهوانج هو والسند البقاع المنعزلة التي شهدت لأول مرة ثقافة الصناعة والفنون المتحضرة، وثقافة العلم والتعلم، وامتلأت المناطق الشاسعة بين تلك البقاع المفضلة بحشود من الأمم التي عملت بالصيد والزراعة والتي تنقلت مع قطعانهم وخيامهم

متحاربين ضد بعضهم البعض غير تاركين أي أثر في سجلات الثقافة والتقدم البشري القديم؛ وأضاءت مشكاة الحضارة في مصر وبلاد بابل والصين والهند ونشرت ضوءها منذ ذلك الوقت في أنحاء الأرض.

الآريون في بنجاب

لقد استقر الآريون على نهر السند وروافده قبل ميلاد المسيح بحوالي ألفين أو ثلاثة آلاف عام أو أكثر، وتم استيراد المنتجات الهندية -والمعروفة بأسمائها السنسكريتية- إلى بلاد بابل ومصر في هذه العصور القديمة، واندلعت حروب مستمرة لعدة سنوات بين هؤلاء الآريين والقبائل الأصلية الهندية ذات البشرة الداكنة حتى فتح الجنس المتحضر البلاد بأكملها -والمعروفة الآن ببنجاب- من الهمج، وقام الآريون من خلال غزوهم للأراضي بتطوير الزراعة وتشجيع الفنون والصناعات، وعملوا على تحسين لغتهم السنسكريتية على أفضل شكل -وهي أقدم لغة آرية معروفة لدينا- وقاموا بتأليف الترانيم والأغاني الجميلة والتي تم حفظ بعض منها حتى وقتنا هذا، وقام فريقٌ من هؤلاء الغزاة الآريين بترك بنجاب باحثين عن مناطق في الغرب واستقروا في إيران القديمة، ويطلق عليهم

بصفـة عامـة الإيرانيون، وقد شكلوا الهيكل مـن الأدب الديني المعروف بالابستاق (أو الأفيستا)، وأطلق على من مكثوا في بنجاب بالذات الهنود الآريـون، وتعرف ترانيمهم الدينية القديمـة -والمحفوظة حتى اليوم- في مجموعها بالريج فيدا.

ترانيم الريج فيدا

يبلغ عدد الترانيم المجمعة في هذا العمل 1028 وتم تأليفها على مر قرون، وهـي المواد الوحيـدة المتبقية لدينا من تاريخ هذه الحقبـة القديمة والمسماة بالعصرالفيدي، وهي تلقي بالضوء على الظروف السياسية للقبائل الهندية الآرية وحروبهم مع السكان الأصليين، وتصف فنون وصناعات وزراعة واختراعات الهنود الآريين، وتصف أيضاً عاداتهم وأخلاقهم الاجتماعية، وتبصرنا بعقيدتهم وطقوسهم الدينيـة، وتعطينا أيضاً بياناً كاملاً وواضحاً عـن (الآلهة الساطعة) وقوى الطبيعة التي عبدهـا الهنود الآريون وقدموا لها القرابين وأراقوا الخمر كعبادة دينية، وباختصار فإن هذه الترانيم تعطينا صورة كاملة وصادقة عن حضارة الهند منذ أربعين قرناً مضت وأنها أقدم شكل للحضارة أنشأه الجنس الآري العظيم.

الحروب مع السكان الأصليين

وكما ذُكِر من قبل فإن الحروب استمرت خلال ذلك العصر بين الهنود الآريين والسكان الأصليين الذين تميزوا ببشرتهم الداكنة، وتقهقر السكان الأصليون أمام المنظومة الهندية الآرية الأكثر تحضراً، ولكنهم تناثروا في الغابات والأماكن المعزولة، ونهبوا القرى الآرية الآمنة وسرقوا الماشية. ومع التشبث الذي ميّز القبائل الهمجية فقد حاربوا لسنين أثناء تقهقرهم؛ واعترضوا الأضحيات الدينية للغزاة وحَقّروا (آلهتهم الساطعة) ونهبوا ثرواتهم، ولكن الآريين انتصروا في النهاية وتوسعت المنطقة الحضارية، وتم استصلاح الأراضي الجدباء والأدغال وتم تأسيس المدن والقرى عليها، أما القبائل الهمجية فهم إما أنهم استسلموا للغزاة أو تقهقروا للتلال والجبال التي مازال يسكنها نسلهم. ويكرر التاريخ نفسه فقد تم إخلاء ضفاف نهر السند من الأجناس غير الآرية قبل ميلاد المسيح بألف وثمانمائة عام بنفس الطريقة التي تم بها إخلاء ضفاف المسيسيبي من القبائل غير الآرية في العصور الحديثة بعد ميلاد المسيح بألف وثمانمائة عام.

الإشارات إلى الحروب مع السكان الأصليين

حفلت ترانيم الريج فيدا بإشارات إلى هذه الحروب اللانهائية مع السكان

الأصليين والذين أطلق عليهم (داسيس) أو(داساس)، وتوضح الأبيات القليلة التالية روح العداء والفخر بالانتصار التي سيطرت على الغزاة:

«لقد أنشأ الإله المُبجّل إندرا –القادر على كل شيء– الإنسان الآري، وأذل بقوته وجبروته وسلطانه قبائل داسا اللعينة.

وفرق إندرا –قاتل فيريترا ومُدمّر المدن– جيوش الداسا –أبناء الظلام–. وخلق الأرض والماء للإنسان الآري وحقق آمال المُضَحي». (الريج فيدا، الكتاب 2، ترنيمة 20، أبيات 6،7)

«عاش المحارب الأسود الماهر على ضفاف نهر الأنسوماتي مع عشرة آلاف من أفراد الجيش، وأصبح إندرا على علم بأمر القائد ذي الصوت العالي، ودمر الجيش المُغير لصالح الإنسان الآري».

وقال إندرا، «رأيت المحارب الأسود يختبئ في الأماكن الخافية من الأنسوماتي كما أن الشمس في وسط السحب. ويا مارتس! إني أريدك أن تحاربه وتقضي عليه.

ثم ظهر المحارب الأسود ساطعاً على ضفاف الأنسوماتي، وأتخذ إندرا بريهاسباتي حليفاً له ودمر الأسطول والجيش الذي لا إله له». (الريج فيدا، الكتاب 7، أبيات 13 إلى 15).

الحروب داخل القبائل الآرية

لكن الحروب لم تقتصر على الحروب مع السكان الأصليين ولكن كانت هناك أيضاً حروب بين القبائل الآرية المختلفة. وتقاسمت تلك القبائل المتحاربة سهول السند الخصبة وأنشؤوا الدول والممالك، ولم تكن الحروب المدمرة لكلا الطرفين بين الملوك والقادة الآريين بقليلة. ويظهر اسم سودَس -ابن ديفوداسا- أكثر بروزاً بين كل الملوك المذكورين في الريج فيدا، وحكم قبيلة تريتسو التي عاشت على ضفاف نهر ساراسفاتي وكانت كهنته من عشيرة فاسيشتا أو تريتسو الشهيرة، وأتت لمحاربته عشر قبائل من الغرب بقيادة بهاراتاس، وكانت كهنتهم من عشيرة فيسفاميترا الشهيرة أيضاً، وعبرت القبائل المتحالفة نهر سوتليجو وهاجموا سودَس، ولكن سودَس خرج منتصراً وهُزِمت العشر قبائل.

الإشارات إلى الحروب القبلية الآرية

وللمعلومات التي تعطيها الريج فيدا لحرب الأمم هذه أهمية عظيمة لأنها تلقي بالضوء على العلاقات ما بين القبائل الآرية وبعضها، بالإضافة إلى

تحالفاتهم ونزاعاتهم وزحفهم حول الأنهار وصلواتهم على أرض المعركة، ويرى القارئ أهمية السطور القليلة التالية من أحد الترانيم العديدة التي تمت فيها الإشارة إلى تلك الحروب بين القبائل:

«واتجهوا نحو الشرق ناظرين إليك أيتها الآلهة العظيمة! وتسلحوا بالفؤوس الضخمة وتعطشوا للغنائم، وساعدهم سودَس وقضوا على الداسا الذين حاربهم وأعداء الآريين! يا إندرا ويا فارونا!.

حيث تجمع الرجال الأقوياء رافعين راياتهم وحيث كان اللقاء لا يحمل أي خير نرجوه، وحيث نظر الجميع إلى السماء في ذعر وأنزلتم علينا كلماتكم المُثبتة يا إندرا ويا فارونا!.

وبدت أطراف الأرض ضائعة في التراب وعلت الأصوات إلى السماء يا إندرا ويا فارونا! وأحاطت الأصوات المعادية بنا من كل جنب ثم سمعتما نداءنا فجئتما لنجدتنا.

يا إندرا ويا فارونا! فلقد غزوتما بأسلحتكما الدؤوبة بيدا وأنقذتم سودَس، وسمعتما دعاء تريتسَس وسط صياح المعركة وأثمر كفاحهم الديني بالخير.

يا إندرا ويا فارونا! لقد أنهكتنا أسلحة الأعداء والمعتدين. فأنتما ملكا

خيرات الحياتين، ولقد أنعمتما علينا بنجدتكما في ذلك اليوم الحاسم.

ولقد دعاكما الطرفان للنجدة يا إندرا ويا فارونا! في المعركة من أجل النصر والثروة، ولقد حميتما سودَس والتريستَس الذين هاجمهم العشرة ملوك». (الريج فيدا، الكتاب 7 أبيات 1 إلى 6).

الزراعة والرعي

كانت الزراعة هي الحرفة الرئيسية التي عمل بها الهنود الآريون منذ أربعين قرناً مضت، كما هي بالنسبة لأحفادهم حتى الآن. ومن المعتقد أن الاسم (آريا) الذي اختار هذا الجنس أن يعطيه لنفسه مأخوذاً من الجذر (آر) والذي يعني الحرث، وكأنما أراد الآريون المتحضرون تمييز أنفسهم بذلك الاسم عن الهمج الذين عاشوا على الصيد والرعي. وفي بعض المواضع تمت الإشارة إلى ري الحقول بواسطة الآبار والقنوات واستخدمت الفرسان في الحرث. وكان القمح والشعير هما المحصولان الرئيسيان، ويبدو أن الأرز لم يكن معروفاً وقتها، واستخدمت الأطعمة الحيوانية بشكل شائع بالذات في الأضحيات، وكان عصير نبات السوما المتخمر شراباً معتدلاً ولذيذاً.

ترنيمة زراعية

وتعـد الترنيمة التالية مهمة جداً وهي وموجهـة لآلهة الزراعة، وضمن هؤلاء الآلهة نجد سيتا مذكورة، وهي آلهة الأخدود في الحقول والتي تُنبت المحاصيل، وفي وقت لاحق أصبحت آلهة الأخدود في الحقول هذه بطلة في إحدى الملحمتين العظيمتين عن الهند القديمة:

«مع رب الحقول الودودة سوف نكسب الحقول. وليكن حامي ماشيتنا وفرساننا كريماً معنا.

يا رب الحقول! أمطر علينا المطر الجميل الذي يضاهي العسل في حلاوته والذي يشبه في نقائه وغزارته حليب البقرة.

ولتكـن النباتات كريمة معنـا ولتفضلنا السمـاوات والأمطار والنجوم. وليكن رب الحقول عطوفاً ولنتبعه بسلام.

ولتكن الثيران سريعة وليعمل رجالنـا بنشاط وليحرث المحراث سريعاً. ولتربط اللجام دون سهو أو خطأ وليربط المنخاس جيداً.

يا سونا ويا سيرا! تقبلا هذه الترنيمة. رطّبا الأرض بالمطر الذي جعلتماه في السماء.

يـا سيتا يا مبشرة بالحـظ السعيد! امضي قدماً ندعو لـكِ أن تجلبي علينا

الرخاء والمحصول الوفير.

فليتقبل إندرا سيتا ولتسلك بوشان طريقها الصحيح. فلتمتلئ بالمطر ولتستمر في إنتاج المحصول سنة بعد سنة.

ولتُقلّب شفرة المحراث العشب جيداً وليفضلنا بارجانيا بالمطر وليمنحنا سونا وسيرا الثروة.» (الريج فيدا، الكتاب 4، ترنيمة 57، أبيات 1 إلى 7)

الفنون والصناعات

كان لكل قرية آرية كبيرة حرفيون في الآونة القديمة، وذكر بناء العربات التي تجرها الفرسان والعربات الحربية واستخدام المعادن عدة مرات، وتشير الإشارات الكثيرة إلى الأسلحة والمعدات في الترانيم كم كان استخدامها شائعاً، وتخبرنا عن دروع وخوذات وعن الرماح وعن السيوف وعن فأس الحروب وعن الأقواس والأسهم وجعبات الأسهم وعن عربات فرسان القتال المجملة والمزينة، ومن ناحية أخرى هناك إشارات إلى الزينات المصنوعة من الذهب والفضة وإلى الأعقاد والملابس المرصعة والأساور والخلاخل والتيجان الذهبية. وكانت النيشكا على ما يبدو عملة ذهبية ذات وزن محدد، وكانت تستخدم كنقود وكحلية في نفس الوقت، وكثر استخدام المعادن في تصنيع الأدوات المنزلية.

الحياة الاجتماعية

لم يكـن هنـاك تقسيمـات اجتماعية واضحة بـين الآريـين في الهند، وعاش الشعب كجسد واحد وكان يحمل اسم فيزاز، أوالشعب. وكان للملـوك كهنة البلاط الخاصة بهم من أجل القيـام بالأضحيات الضخمة ولكـن وسـط الطبقات الأبسـط كان كل رب هـو كاهـن العائلة الذي يقـوم بإشعال نيران الأضحيـة ويقدم القرابين ويقـوم بإراقة الخمر ويتلو الترانيـم المقدسة، وقامت النساء بإعداد شـراب السوما المقدس وشاركن أزواجهـن في الأضحية ولدينـا بعض الأسماء المحفوظـة لنساء مثقفات ومتعلمات قُمنَ بتأليف بعض الترانيم. ولم تكن العادات غير السليمة مثل زواج الأطفـال أو عـزل النساء عن المجتمع معروفـة لديهم، وكان تعدد الزوجـات -والمسموح به بين الهندوس القدامـى كما هو الحال مع كل الأجناسـ القديمة- مقصوراً غالباً على الطبقـة الملكية والأثرياء. وبشكل عـام فإننا نحصل من خلال الترانيـم على صورة للمجتمع حيث حظيت المرأة بالتقدير والاحـترام، وكانت لها سلطة معقولة في العائلة وشاركت في الطقوسـ والعبادات الدينية ومارست نفوذها الشرعية في الوسط التي عاشت فيه.

مراسم زفاف

نحصـل على لمحات عن وضع المرأة في العائلة من خلال ترنيمة طويلة، والتي تحتوي على ما قد نسميه مراسم الزواج. وسوف أقتبس آخر خمسة أبيات منها:

يقول المتـزوج: «فليرزقنا سيد المخلوقات بالأطفـال؛ وليجمعنا آريمان حتى آخر العمر. ادخلي بيت زوجك مُبشرة وجالبة للخير أيتها العروس! واجلبي البركة على رجالنا وماشيتنا.

لا تكـوني حادة الطباع ولا مدمرة لزوجك وكوني رقيقة القلب ومتألقة وأتـي بالخير على ماشيتنـا. وبإنجابك الأبناء الأبطـال والمخلصين للآلهة، اجلبي البركة على رجالنا وماشيتنا.

يـا إندرا يا صاحب الكرم، اجعل هذه المـرأة مباركة بالأبناء والخيرات، وامنحها عشرة من الأبناء واجعل زوجها الرجل الحادي عشر.

يـا أيتها العروس.. كوني صاحبة تأثير على والد ووالدة زوجك؛ وكوني كالملكة فوق إخوة وأخوات زوجك.

فلتجمع كل الآلهة والمياه قلبينـا، وليجمعنا سوياً ماتاريسفان ودهاتري وديشتري» (ريج فيدا، الكتاب 5 ، ترنيمة 85 ، أبيات 43 إلى 47)

مراسم جنازة

هنـاك بعض الترانيـم في آخر كتاب في الريج فيدا تحتـوي على ما يشبه مراسم الجنازة. تستخدم النار لمباركة الجثة ثم تدفن، ومن هذه المرحلة كان ترميـد الموتى خطوة سهلة، وكان من المعتقد أن الروح الراحلة تذهب إلى العـالم الأعلى -مملكة ياما- حيث تعيش مع الآباء أو الأجداد الراحلين في سعادة ومرح، وتوضح المقتطفات التالية مراسم الجنازة:

«يـا أيتها النار! لا تحرقـي هذا الميت ولا تلتهميه تماماً؛ لا تدمري جسده وجلده. يا أيتها النار! عندما تباركيه أرسليه إلى الآباء.

يـا أيتها النار! عندمـا تباركيه أرسليه إلى الآبـاء. وعندما يصل إلى الحياة الأخرى سوف يمر برحمة الآلهة».

(للمتوفـى) «فليذهـب نـور عينيـك إلى الشمس وروحـك إلى الهواء ولتذهـب إلى السماء أو الأرض وفقـاً لأعمالك. ادخل المياه إن كان ذلك مكانـك المُقـدّر، أو اسكـن في النباتات بـكل جسدك.»[1](ريـج فيدا، الكتاب 5، ترنيمة 16، أبيات 1 إلى 3)

(1) هذه الابيات تجسد -بطريقة خفية وغير واضحة- فكرة تناسخ الأرواح والتي هي أحد أسس العقيدة في الهند.

(للنساء اللاتي يشيعن المتوفى) «فليزين هؤلاء النساء اللاتي ما زال يعيش أزواجهن أنفسهن بالمرهم والبلسم، ودون بكاء أو أسى فلتتفضل النساء -مرتديات الحلي- الفضليات إلى بيوتهن»[1].

(لأرملة المتوفى) «انهضي، عودي إلى عالم الأحياء يا امرأة! إن من ترقدين بجانبه قد رحل عن الحياة. اقبلي بالزواج ممن يطلب يدك ويريد الزواج منك».

(أثناء أخذ القوس من يد المتوفى) «من يد المتوفى آخذ هذا القوس الذي حمله وليجلب لنا العزة والنصر. وأنت هنا فلنتغلب نحن الأبطال على أعدائنا».

(للمتوفى) «ارحل يا أيها المتوفى! ارحل لهذه الأرض الواسعة الحنونة التي هي كالأم. فلتكن لمستها ناعمة كالحرير أو كالفتاة الصغيرة ولتحميك هي من يد الهلاك».

(للأرض) «اعلي فوقه يا أيتها الأرض! ولا تضغطي بقوة عليه وأعطيه كل الخير وأعطيه الراحة وغطيه كما تغطي الأم ابنها الصغير بغطائها» (ريج فيدا، الكتاب 5 ، ترنيمة 18، أبيات 7 إلى 11)

(1) لهذا البيت تاريخ خاص به، فعندما انتشرت العادة القاسية المسماة ساتي والتي تسمح للأرملة بحرق نفسها على محرقة زوجها، وذلك في العصور الحديثة نسبياً كانت هناك محاولة لتوير هذه العادة عن طريق ترجمة هذا البيت بشكل خط. ولكن تم اكتشاف وعرض هذا الخطأ في الترجمة وأثبت أن هذه العادة القاسية لا تجد لها مبرر في نصوص الهندوس القديمة.

الاعتقاد في الحياة الأخرى والخلود

اعتقد الهنود الآريون في حياة أخرى حيث يُثاب الصالحون بعد الموت. وتوضح الأبيات القادمة مفهومهم النبيل عن الحياة السعيدة والخالدة:

«يـا بافامانا! خذني إلى عالم الخلود والحيـاة الأبدية حيث يسكن الضوء للأبد؛ خذني إلى السماء. اذهب يا إندو إلى إندرا!

اجعلنـي خالداً في العالم الذي يحكم ياما فيـه ملكاً حيث تكون أبواب السماء والمياه نقية وعذبة. اذهب يا إندو إلى إندرا!

اجعلني خالداً في عالم حيث يمكن للناس التجول كما يشاؤون في الطابق الثالث من السماء العليا المليئة بالضوء. اذهب يا إندو إلى إندرا!

اجعلنـي خالداً في العالم الذي تتحقق فيـه كل الأماني -مسكن برادما- حيث تقطن السعادة والمرح. اذهب يا إندو إلى إندرا!» (ريج فيدا، كتاب 9، ترنيمة 113، أبيات 7 إلى 10)

عبادة الطبيعة

ويظهر مما سبق ذكره أن ديانة الهنود الآريين كانت أساساً عبادة للطبيعة بشكلهـا الكامل والتام، وحصلت الظواهر الطبيعيـة المختلفة على أسماء

مختلفـة، ومن التعمق في التفكير في هذه الظواهر اهتدى العابد إلى مفهوم الإله الواحد للكون، وبهذا تطورت عبادة حكماء الهند القديمة من عبادة الطبيعة إلى عبادة رب الطبيعة.

ويرجـع الاسـم ديو أو دياوس إلى السماء المشرقة وهو أقـدم اسم لقوة إلهية بـين الأمم الآرية. وهي نفس الكلمة مثل زيوس عند الإغريق ويوبيتر عنـد اللاتين وتيو عند الساكسونيين وزيو عند الألمان، وهو اسم الرب في الديانات الحديثـة. وكان الهنود الآريون يستعينون بالسماء مع بريثيفي – الأرض– على أنهم الآباء الكونية.

وكان فارونا هو المقابل لأورانوس عند الأغريق وهو السماء التي تغطي كل شـيء، وكانـت الترانيم الموجهة له هي أقدس الترانيـم الفيدية. وغالباً مـا يستعان به مع ميـترا وهو الشمس أو السمـاء المشمسة. وما يلي بعض الأبيات التي يوجهها شخص مُذنب لفارونا المقدس:

«ليتنـي أعـرف ذنوبي فقد سألـت الآخرين؛ سألت الحكمـاء يا فارونا وقال لي الحكماء، بالتأكيد فارونا غاضب منك.

مـاذا يا فارونا! هل ذنبـي هو أنك ستقضي علـى صديقك الذي يتغنى بمدحـك؟ أعطنـي إجابة أيها السيـد القادر على كل شـيء! دعني أتقرب

إليك بعبادتي.

نجنا من أخطاء آبائنا والأخطاء التي ارتكبناها بأنفسنا. حرر فاسيشتا كما يُحرر الثور من الوتد أو كما السارق الذي يتغذى على الماشية المسروقة.

فنحن لم نذنب بإرادتنا يا فارونا! إنه الخطأ أو الخمر أو القمار أو الغضب من ضللنا، فحتى الكبار يضللون الصغار أحياناً وحتى النوم أحياناً ما يؤدي بنا إلى الخطأ.

وبتحرري من الذنوب دعني أخدم الإله الكريم كالعبد! وليمنحنا إله الآريا الحكمة وليمنحنا الإله الحكيم الثروة.» (ريج فيدا، كتاب 7، ترنيمة 86، أبيات 3 إلى 7)

وتتم الاستعانة بإندرا بتكرار أكبر وهي السماء التي تمطر باعتباره الإله الذي يسبب الرعد في السحب والذي ينزل المطر لري المحاصيل ويساعد الآريين في حروبهم ضد السكان الأصليين. وهناك العديد من الترانيم المؤثرة في الريج فيدا عن الأمطار السنوية في الهند والتي منها هذا المقطع:

«لقد مزق إندرا برعده المدمر على السحاب (فيريترا) إرباً. ويستوي التنين (آهي) فوق الأرض الآن كما يستوي جذع الشجرة الذي مزقه الفأس.

تحدى فيريترا كالمحارب المجنـون إندرا القاهر والمدمر. ولكنه مع ذلك لم يهرب من الهلاك وسقط عدو إندرا وغمر الضفاف بسبب سقوطه.

تتراكـم المياه فوق جسـده المستوي بينما تسري الأنهـار فوق الضفاف المندثـرة. وعندما كان فيريترا على قيد الحياة كان يمنع المياه، والآن يستوي آهي فوق المياه» (ريج فيدا، كتاب 1، ترنيمة 32، أبيات 5 و6 و8)

ويتم الاستعانـة بالشمس تحت اسمي سوريا وسافيتري، ولا تزال بعض الأبيات الجميلة الموجهة للآخر (سافيتري) مستخدمة حتى الآن في أدعية الصباح المقدسة التي يستخدمها أتباع براهما في الهند.

إن أديتـي هي السمـاء الشاسعة مصدر الضوء، وأبناؤهـا الاديتياس هم الشموس في مختلف أشهر السنة. وبوشان هي الشمس كما يراها المزارعون والمسافـرون، وفيشنو هي الشمس عندما تتخطى السماء بثلاث خطوات عند الشروق والأوج والغروب.

وأجنـي -النار- هو كاهـن الآلهة لأن كل القرابين للآلهـة تقدم للنار. وكان يُستعـان بسوما -الشـراب الذي يستخـدم في إراقة الخمر كطقس دينـي في الأضحيات- كإله وتوجـه كل الترانيم في أحد أجزاء الريج فيدا إليـه. براهمان -وهـو الدعاء الذي يتلى في الأضحيـات- يعتبر هو أيضاً

إلهـاً، وقد تم استخدام هـذا الاسم لاحقاً كاسم للـروح الإلهية الكونية، الإلـه الواحـد للهندوس الآريـين. ويسمـى الهـواء فايوومـاروتس هو العواصف التي تجلـب الأمطار السنوية. ورودرا هـو الرعد من السحب الرعدية وهو والد ماروتس. وإن ياما هو ملك الموتى وهو الحاكم الصالح للأماكن التي يذهب إليها الصالحون بعد موتهم. وتتم الاستعانة به في أحد الترانيم المهمة مع أخته التوأم، ويعتقد بعض العلماء أن التوأم وُلدوا للأبوين الأولين للبشرية، وأنهما يحكمان الآن فوق عالم الراحلين عن الحياة. وكان من ضمن التوائـم الأخرى الإسفنز، وهم الأطباء من بين الآلهة، وهم من يساعـدون المنكوبين. ويعتقد العلماء أن النـواة الأصلية لفكرة التوأم هي الصبـاح والمساء أو نجم الصباح ونجم المسـاء أو النجمان التوأم في المجرة الثالثة من دائرة الربوج.

وتحصـل آلهتان فقط على أهميـة فردية. فهنـاك ساراسفاتي وهو النهر السابـع في البنجـاب (ويمثل السند وروافـده الستة) ويعتبر نهـراً مقدساً تنطق باسمه الترانيم وتقدم باسمـه الأضحيات. فكانت تُعبد ساراسفاتي كنهـر وكانت تعبد أحياناً أخرى على أنها آلهة الترانيم والحديث، وكانوا يستعينون بها بشكل أكثر تكراراً، وهي موضوع الكثير من أروع الترانيم

التي يمكـن إيجادها في الشعـر الغنائي لأي أمة قديمـة. وفيما يلى ترجمة للنصف الأول من ترنيمة:

يا ابنة السماء الجميلة

اظهري ضوءك الساحر عالياً

امنحينا الثروة وامنحينا اليوم الجديد

اجلبي لنا الطعام وضوء الصباح

يا آلهة سماء الصباح يا ذات الثوب الأبيض

اجلبي لنا الضوء وامحي بقايا سبات الليل العميق

***

بكثرة الماشية وكثرة الفرسان

وكثرة عطائك السريع للبشر

ترحب بك كل الأمم بمرح شديد

من أجل نعمك المتناهية الكرم

تحدثي واسترسلي في كلامك المرح المريح

وامنحينا الثراء وامنحينا السعادة الصافية

***

لقد أشاد الآباء بضوئك المنتصر

ونحن أيضاً نشيد بك يا أيتها الآلهة المشرقة

لأنك كالسفن التي تعبر البحار

تحملك إلينا عربة السماء

فأتي إذاً إلينا أيتها الآلهة في عربتك اللامعة

تعالي واجلبي لنا الضوء المبهج من بعيد

***

رجال العلم والحكمة يقدمون أغانيهم

وترانيم الصباح توجه إليك

ويغني كانفا أناشيده الدينية

لأشعتك المضيئة الحمراء

وكانفا أعظم الرجال الحكماء

يقرأ أسماء من يطعمون ويكرمون الفقراء

***

تعالي كربة المنزل رقيقة القلب

لترعينا لأن الليل قد رحل

وامنحينا يوماً آخر سعيداً

ويوماً جميلاً للحيوانات والطيور

واجعلي كل المخلوقات يرجعون لعملهم

وكل الطيور بألحانها الجميلة تملأ الهواء

***

وارسلي الرجال الأقوياء لعملهم

وارسلي أشعتك الساطعة والنقية

على الوجوه المتعبة

آه! إن فترة بقائك صغيرة جداً

اسرعي إذاً ودعينا نقوم بعملنا

فالطيور بألحانها الجميلة تملأ الهواء

***

ها هي تأتي! ها هي تأتي! في عربتها اللامعة

وتنثر الجمال من بعيد

من عالم ما وراء الشمس

وفي عربتها يأتي الفجر

ويأتي يوشاس في جمال مبهج

ويأتي يوشاس ليريح ويبارك

***

وينحني البشر في خضوع

وتتساقط الترانيم والأغاني الجميلة

وتأتي هي بأشعة حمراء

وتأتي لتريح وتبارك

وتجلب لنا البركة في عربتها اللامعةوتجلب لنا القوة وتشتت شمل الأعداء

(ريج فيدا، كتاب 1، ترنيمة 48، أبيات 1 إلى 8)

هـؤلاء هم الآلهـة الرئيسية في الريـج فيدا. القوى التـي تطلق الظواهر الطبيعية. مـازال مفهومهم بدائياً، ومازالت الأساطير كما هي معروفة في مرحلة التكويـن، وفي هذا الخصوص فإن الترانيـم الفيدية تأخذنا لمرحلة أقـدم في تطور الدين عند البشر أقدم من تلك التـي تمثلها الآلهة الإغريقية أو الرومانيـة والتي كانت اكتسبت طابعاً وشخصية قوية وقد أصبح تاريخ تطور تلك الآلهة ومفهومها الأساسي مطموساً.

مفهوم الإله الواحد

ولكـن بينما كانت العقلية الشعبية تتخيل إلهـاً لكل ظاهرة طبيعية مميزة وبينمـا كانت التراتيـم تُغنى للآلهة الطبيعية المختلفـة في الأضحيات كان الحكماء والمفكرون يعتقدون -في مرحلة مبكرة- أن كل عمليات الطبيعة هي من صنع قوة عظمى واحدة وأن كل الآلهة التي يُستعان بها هي أسماء مختلفـة لإلـه أعظم واحد. ومـن المهم أن نتذكـر هذا الفرق بـين العقيدة الشعبيـة والعقيدة الفلسفية المقابلة في الهند لأن هذا الفرق الذي لاحظناه في العصـر الفيدي ما يزال مستمـراً حتى اليوم. فمنذ هذا الوقت وقد عبد عامـة الشعـب في الهند آلهة عديـدة، بينما اعتقد الحكمـاء والمثقفون أن هـذه الآلهة المختلفـة هي أسماء أو قوى متعددة لإلـه واحد للكون. ومن الضـروري تذكر هذه الازدواجية في العقيدة والمناهج الهندوسية من أجل فهم تاريخ ديانة الهندوس خلال الأربعة آلاف سنة.

ونستحضر فيما يلي بعض الأبيات من ترنيمتين حيث تعلن فيهما توحيد الإله:

«الأب ذو الحكمة والمعرفة التي تشمل كل شيء خلق هذه العوالم بشكلهم المائي. ثم ربط أطرافهم بشكل محكم، ثم فصل السماء والأرض ومدهم.

يـا لعظمة خالق شـيء. فهو خلق كل شيء ويُسـيّر كل شيء ويعلو فوق

كل شيء. ويحصل الصالحون على كل أمنياتهم حيث يسكن الإله الواحد وراء مجرة الهندوس المقدسين السبعة.

إن الأب الـذي خلقنا والذي يعرف كل الأجناس وكل الأشياء هو إله واحـد ويحمل أسماء آلهة عديدة. ويتمنـى الآخرون معرفته» (ريج فيدا، كتاب 5، ترنيمة 82، أبيات 1 إلى 3)

«في البدايـة وُلِد الطفل الذهبي كسيـد الجميع. وهو يُمسك ويُثبت هذه الأرض والسماء. فمن نعبد بقرابيننا؟

هـو الذي أعطـى الحياة والقوة والـذي تحترم إرادتـه كل الآلهة والذي يكون ظله الموت وضوؤه الخلود. فمن نعبد بقرابيننا؟

والـذي بعظمته هو سيـد كل ما يتحرك ويتنفس وسيـد البشر والماشية. فمن نعبد بقرابيننا؟

هو الذي بقوتـه خُلقت هذه الجبال المتجمدة والأرض والبحر وذراعاه هما السماء فمن نعبد بقرابيننا؟

هو الذي ثبّت السماء والأرض ومنطقة الضوء والسماوات العليا. هو الـذي حدد الكون والسماء» (ريج فيدا، كتاب 5، ترنيمة 121، أبيات 1 إلى 5)

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل الثاني

العصر الملحمي

(1400 - 800 ق. م.)

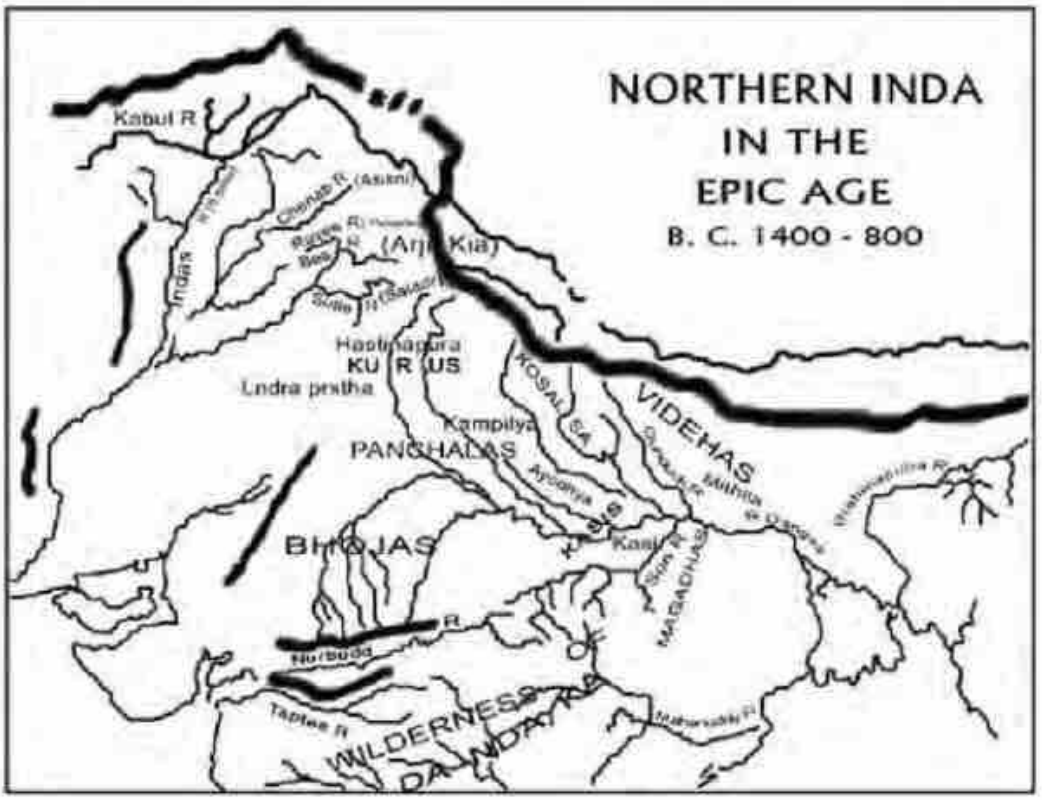

شمال الهند في العصر الملحمي من عام ..12 إلى 800 قبل الميلاد

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

استعمار وادي نهر الغانج

وجدنا أنه في الفترة الأولى من التاريخ الهندي -وهي الفترة المسماة بالعصر الفيدي- استقر الهنود الآريون والهندوس على نهر السند وروافده، وأن منطقة البنجاب كلها كانت منقسمة إلى دويلات صغيرة أو إمارات يحكمها قادة متحاربون، وتحدث كل الأجناس لغة واحدة ومارسوا نفس الطقوس الدينية وعبدوا نفس (الآلهة الساطعة) من الطبيعة، وبهذا كانت تربطهم روابط قومية مشتركة والتي جعلتهم -بالرغم من حروبهم في بعض الآونة- هيكلاً قوياً من الشعوب.

ولكن لم تستمر سعادة الهندوس في البنجاب طويلاً بحكمهم لأراضي السبعة أنهار. وكما هو الحال مع كل الأجناس صغيرة العمر والمتحاربة فقد امتدت مستعمراتهم أكثر وأكثر باتجاه الشرق حتى أصبح وادي الغانج -والذي يشكل شمال الهند بأكمله- مستعمراً. وبذلك في الفترة الثانية من تاريخ الهند -والتي سنطلق عليها العصر الملحمي- نجد أن البلد الخصبة بأكملها من نهر يومنا إلى شمال بيهار كان يحتلها المستعمرون الهنود والتي تفوقت على بلدهم الأم -البنجاب- من حيث الثروة والقوة والتعليم والفنون والحضارة.

العصر الفيدي والعصر الملحمي: أوجه الشبه والاختلافات

ونجد في العصر الملحمي إعادة للصورة التي رسمناها للعصر الفيدي، ولكنها إعادة على نطاق أوسع ووسط محيط أكثر شموخاً، فبدلاً من الدويلات الضعيفة التي كان يقيمها المحاربون الأقوياء على الأرض في السند نجد ممالك واسعة ومزدحمة يحكمها ملوك أجلاء في وادي الغانج وبدلاً من القبائل البسيطة التي كانت تعتمد على الزراعة والذين كانوا رهباناً ومحاربين ومزارعين نجد أمماً مثقفة والذين كانت بينهم مهنة الكاهن والمحارب والمزارع منقسمة حسب الطائفة الاجتماعية المحددة، وبدلاً من الأضحيات البسيطة التي كانت تقام بجوار المدفأة المنزلية مع تلاوة الترانيم البسيطة، نجد القواعد والطقوس الخاصة بالأضحيات مفصلة لتشكل مجلدات ضخمة، وبدلاً من الإشارات المختصرة للنزاعات أو الحروب القبلية نجد لدينا بياناً عن حروب بين أمم عظيمة وملوك عظام يغنيها الشعراء وتمجدها الأساطير حتى كَوّن ذلك نواة ملحمتي الهند القديمة العظيمتين.

أهم الأمم في العصر الملحمي

من بين الأمم القوية والمتحضرة التي ازدهرت في هذا العصر الملحمي

لابد أن نميز أربعة أجناس كانوا بارزين من بين الأجناس الهندوسية، كما كان سكان أسبرطة وأثينا بين الأجناس الإغريقية القديمة. كان اثنان من هؤلاء وهما شعبا كورو وبانكالا يعيشان على الجانب الأعلى من الغانج، وهما البطلان الرئيسيان في الملحمة الهندوسية المعروفة بماها بهاراتا. وكانت الأمتان الأخريان هما الكوسالا والفيديها واللتان عاشتا في أراضٍ معروفة الآن بأوده وشمال بيهار. وهم الأبطال الرئيسيون في الملحمة المعروفة بالرامايانا.

الماها بهاراتا

لم يُترك لنا أي تاريخ موثوق به عن كورو وبانكالا. ولدينا قائمة طويلة من ملوك كورو والمعروفين بملوك سلالة الحكم القمرية؛ ولكن القوائم مجرد أسماء الملوك ليست ذات قيمة تاريخية عالية، حتى ولو كانت دقيقة وصحيحة. والمعلومات عن الحروب بين كورو والبانكالا المتاحة لدينا في الماها بهارتا أسطورية وخيالية بشكل كبير وفُقد الأبطال والأحداث الحقيقيون. ولكن بالرغم من ذلك، فإن هذه المعلومات الخيالية عن الحرب تلقي بالضوء على عادات وأخلاق هذا العصر، ولابد لهذا السبب أن

يعرفها كل طلاب التاريخ الهندي.

وفقـاً للملحمة فإن باندو هو الملك الأكـبر لكورو أو بهاراتا وعند وفاة باندو تولى إخوة ديريتا–راشترا العرش. وكانت هناك غيرة كبيرة بين الأبناء الخمسة لباندو والمائة ابن لديريتا–راشترا، ونزاعهم هو موضوع الملحمة.

يوديشتـيرا الابن الأكبر لباندو كان رجلاً صادقـاً ومتديناً، وبالرغم من أنـه دُرّب مثل باقي الأمراء في ذلك العصر علـى فنون القتال بالإضافة إلى النصوص الدينية الهنديـة (الفيـدات) لم يصبح في يوم مـن الأيام مقاتلاً حقيقيـاً. وكان الأخ الثاني (بيما) معروفاً ببنيته القوية وقوة جسده، وكان يمكنه اقتلاع شجرة طويلة واستخدامها كعصا، وتميز أرجونا، الأخ الثالث، عن كل الأمراء الآخرين في الرماية واستخدام كل الأسلحة الحربية، وكان في الملحمة الهندية كالبطل الإغريقي آخيل.

ومن بـين أبناء دريتا–راشـترا الابن الأكبر، دوريودانـا، وكان رجلاً ذا كبريـاء ومحباً للثـأر وكان كمحارب جبـار منافساً لبيمـا. وكان يساعده محـارب اسمه كارنا –وكان مجهـول النسب– ولكن فيمـا يتعلق بالرماية أو المبـارزة بالسيـوف كان يتسـاوى مـع أرجونا، وفي الملحمـة الهندية كان بمكانـة هيكتور الإغريقي، وكان التنافس الناشئ بين أرجونا وكارنا

هوالفكرة الأساسيـة وراء الملحمة الهندية، كمـا كان التنافس الناشئ بين آخيل وهكتور هو الفكرة الأساسية وراء الإلياذة.

فكـر دوريودانـا -الابن الأكبر لدريتا راشترا- في خطـة لقتل أبناء عمه الذيـن كرههم، وأُرسلوا إلى مـكان بعيد، وأشعلت النيران في المنزل الذي كانوا فيه. ولكن أبناء باندوا نجوا وتجولوا لفترة متنكرين، وسمعوا أن أميرة بانـكالا كانـت على وشك اختيـار زوج لها من بين الكثـير من الخطاب والأمراء؛ فذهبوا إلى عاصمة بـلاد بانكالا لمشاهدة الاحتفالات بنصيحة من فياسا المقدس، مؤلف الملحمة الشهير.

نصـب دروبـادا -ملك بانـكالا- قرصاً دائـراً عالياً في الهـواء وحدد هدفاً وراء القرص، وأعلـن أن من يقوم بإصابة الهدف من خلال القرص المتحرك يفـوز بابنته. حاول الملوك والأمراء الذيـن تجمعوا للفوز بعروس بانكالا إصابة الهدف ولكنهم فشلوا الواحد تلوالآخر، ثم تدخل أرجونا وقـام بإصابة الهدف المستحيل، وبذلـك فقد اختارت أرجونا زوجاً لها، ويقال إنها تزوجت لاحقاً الإخوة الخمسة. ولكن هذا الجزء من القصة لا يتوافق مع عادات وتقاليد الهندوس؛ فلم تكن عادة تعدد الأزواج معروفة أو مسمـوح بها في العصـور القديمة كما هي الحـال في العصور الحديثة،

وطالب أبناء باندو -بالتحالف مع ملك بانكالا- بنصيب في مملكة أبيهم، وانقسمت المملكة بحيث احتفظ أبناء دريتا راشترا بالبلاد حول نهر الغانج وبنى أبناء باندو عاصمة لهم على نهر يومنا والتي تظهر معالمها في مدينة ديلهي الحديثة.

قام يوديشترا بعمل أضحية كبيرة في عاصمته الجديدة ولكنه سرعان ما انهزم بسبب الكوارث والدمار. ومع كل تدينه فقد كان مولعاً بالقمار كما كان كل أمراء عصره، وقد تحداه أبناء دريتا ريشترا الماكرون إلى لعبة قمار حيث غامر بمملكة الجديدة وزوجته وحريته هو وأخوانه وخسر كل ذلك. وانتقل الإخوة للعيش في الغابات وأمضوا اثني عشر عاماً في الترحال بين الغابات وأمضوا السنة الثالثة عشرة أيضاً في الاختفاء، وفقاً لشروط منفاهم.

وعندما انتهت فترة النفي أنهى الإخوة اختفاءهم وطالبوا بعودة مملكتهم، وحث كل كبار أرض كورو على هذه الخطوة، ولكن ديريودانا العنيد المتغطرس رفض بإصرار قائلاً:

ماذا ارتكبت أنا من جرائم أو مآسٍ لألقى هذا القدر المؤلم

لتخصوا أنتم أيها القادة ويا ملك كورو ديريودانا بكرهكم

قولي لي ما هو الذنب أو العمل السيئ أو الخطيئة الخافية التي لا أعرفها

والتي تصرف عني عطفكم الدافئ وحب أب كان لي

إذا كان يوديشترا المولع بالقمار قد لعب لعبة طائشة ومتسرعة

وفقد بها مملكته وحريته؛ فهل هذا ذنب ديريودانا؟

وإذا به يحرر من عاره وأسره وبحماقة يلعب ثانية

ويخسر ثانية ويذهب إلى المنفى؛ فلمَ يشكو الآن؟

وهم ضعفاء بلا قوة ولا أصدقاء وحتى نجمهم المتردد ضعيف

لم يأتوا بفخر وحماقة يطلبون منا الحرب؟

فهل علينا نحن من نعبد إندرا أن نقدم لهم فروض الولاء والطاعة

وننحني أمام أبناء باندو المشردين وأصدقائهم الضعفاء القلائل

وننحني لهم بينما يقودنا دورونا المحارب منذ الأيام الأولى

وبيشما الذي هو أعظم من الآلهة الساطعة وكارنا الرامي الصادق الشجاع

فإن خسرنا الحياة والسمعة على أرض المعركة الخادعة

فإن السماء تفتح بواباتها الذهبية للمقاتل الذي قتل في النزاع

فإن طلبنا صراحة من أعدائنا رافعين رؤوسنا سفك الدماء

فإن فراش الأسهم لن يجرحنا ونهاية الموت لن تؤلمنا

وإن كان قد تم تقسيم المملكة في الماضي بحماقة إلى اثنين

فأرض كورو باتت موحدة ولن تنقسم بعد الآن

ابعثوا برسالتي إلى أهل بلدي فكلمات ديريودانا صريحة

وسعي أبناء باندو وراء جزء من المملكة دون فائدة

ولا مدينة ولا قرية ولا سوق ولا قرية، ساعدينا أيتها الآلهة العادلة

فلن ينالوا حتى رقعة كاملة!

الرامايانا

تتعلق الملحمة الهندوسية الثانية بالكوسالاس في أود وفيديهاس في شمال بيهار. ولم يُترك لنا أي تاريخ موثوق فيه عن الكوسالاس، وتعتبر قائمة أسماء ملوك الكوسالاس –والمعروفة بملوك العائلة الشمسية الحاكمة– ذات قيمة تاريخية ضئيلة. فنرجع إذاً للملحمة الأسطورية لنحصل على صورة لعادات هذا العصر.

كان لداسا راثا ملك كوسالاس أربعة أبناء، وكان أكبرهم، راما، هو بطل الملحمة. وكان لجاناكا –ملك فيديهاس– ابنة اسمها سيتا والذي

حصل عليها عن طريق حفرة في الحقل؛ وهنا يمكن للقارئ ملاحظة كيف تحولت آلهة أخدود الحقول، التي عُبدت في الترانيم الفيدية، إلى شخصية البطلة في الملحمة.

صنع جاناكا، ملك فيديهاس، قوساً ثقيلاً وأعلن أن من يقوم بكسر هذا القوس يفوز بابنته، وحاول كل المتقدمين الذين اجتمعوا للفوز بالعروس ولكنهم فشلوا في هذا العمل البطولي، ثم جاء راما وثنى القوس القوي حتى انكسر إلى قطعتين. وبهذه الطريقة فاز بزوجته سيتا وعاد إلى بلده.

وأصبح داسا راثا، ملك كوسالا، عجوزاً وضعيفاً وأراد أن يتخلى عن العرش لراما وأن يقضي أيام شيخوخته في هدوء وتقاعد. ولكن إحدى ملكاته أصرت أن يتولى الابن، باهاراتا، الذي أنجبته هي له، العرش. استسلم الملك العجوز الضعيف لرغبة ملكته القوية الشخصية وتولى باهاراتا العرش وتم نفي راما لمدة أربعة عشر عاماً، وقد أراد زوجته، سيتا، أن تبقى في الوطن، ولكن سيتا، مثال الزوجة المخلصة، لم توافق على هذا الاقتراح وأصرت أن تترك وطنها وأقاربها وأن تتبع زوجها في منفاه المجهول.

«فالزوجة المخلصة تتبع الطريق الذي يقصده زوجها

ففي منفى راما قررت سيتا مكان منفاها

فلا يتحكم في حال السيدة المتزوجة أب ولا أبناء ولا أخ محب

فمع زوجها تسعد أو تشقى ومع ملكها يكون القدر

وإن سافر الابن الصالح لراغو للغابات المظلمة المخيفة

تنهض سيتا وتسبق زوجها لتخلي الطرقات الشائكة والبرية

العربات والفرسان والقصر المرصع لا يعنون شيئاً لحياة هذه المرأة

فظل زوجها أغلى لهذه الزوجة المحبة والمحبوبة

وقد علمتني أمي وكثيراً ما قال لي أبي

إن المرأة المتزوجة تجعل بيتها بجانب زوجها

وتتبع الزوجة المخلصة زوجها كما يتبعه ظله

ولا ترحل عن زوجها الملك إلا عند الموت!

لذا دعني أبحث عن الأدغال وأتجول في الغابات البعيدة

حيث يتجول الغزال بحرية ويتخذ النمر موطناً

وسوف تعيش سيتا أكثر سعادة في الغابة مما كانت في قصر والدها

ولن تفكر في وطنها أو أقاربها وهي تنعم بحب زوجها!

وسوف تجمع الفواكه الطازجة من الغابات النضرة ذات الرائحة الجميلة

وسوف يكون الطعام الذي يتذوقه راما هو الطعام المرغوب لسيتا

ولا تخفي السماء قصوراً أكثر سطوعاً في حقولها المشمسة

وأين يمكن لسيتا المخلصة أن تعيش من دون زوجها

لذا دعني أبحث عن الأدغال حيث يتجول رواد الأدغال

فالمكان الذي أشارك فيه حب زوجي أغلى عندي من القصر الملكي

وسوف يشارك قلبي في وحدة مقدسة وعذبة أماني راما

وسوف يخفف عملي كزوجة من حمل راما من الأسى والهم!»

وفي النهاية وافق راما واصطحب سيتا وذهب معهما إخوه، لاكشامانا، إلى الغابـات. ولم يكن الهنود الآريون قـد استعمروا دكن أو جنوب الهند وكانـت مناطق برية وغير مزروعـة؛ ويصف الشاعر السـكان الأصليين للمكان الذين عاشوا في الغابات على أنهم دببة وقردة، وعاش راما وسط هذه القبائل لمدة ثلاثة عشر عاماً.

سمع رافانا، ملك سيـلان، بجمال سيتا وفي غياب راما أجبر سيتا على تـرك كهفها وحملها معه إلى سيـلان، وتوصل راما إلى طريقها بعد بحث طويـل، وكوّن تحالفات مـع القبائل البريـة في الغابات وعـبر الطريق إلى سيلان وشن هجوماً على العاصمة، لانكا، بجيش ضخم.

وبالرغم من أن الروايات حول الحرب الطويلة التي تبعت ذلك مليئة بالأحداث المثيرة إلا أنها طويلة وطفولية بعض الشيء. فقد أرسل رافانا القائد تلو الآخر لكسر قوى الجيش الهجومي، ولكن راما كان يقضي على كل قائد وظلت صفوفه منتظمة. وفي النهاية خرج رافانا، والذي يوصف على أنه وحش ذو عشرة رؤوس، بنفسه وقُتل وعادت سيتا إلى راما، وقد ظلت طاهرة ومخلصة لزوجها راما رغم كل المحاولات والتهديدات وأثبتت طهارتها عن طريق المحاكمة بالتعذيب بالنار.

انتهت السنة الرابعة عشرة من النفي الآن وعاد راما إلى أيوديا أو أود وصعد على عرش أبيه. ولكن الشعب كان قاسي الحكم على سيتا واعتبروها مذنبة، وكان راما ضعيفاً مثل أبيه وقد استسلم لمطالب شعبه الصاخبة وأرسل زوجته الطاهرة المخلصة إلى المنفى.

وكان فالميكي، مؤلف الملحمة الشهير، كاهناً يعيش في صومعته الخاصة به في الغابات، واستقبل سيتا المنفية وولدت ابناها التوأم، لافا وكوسا، في المنفى، وترعرع الأميران وأصبحا صبيين قويين ورجوليين تحت رعاية الكاهن وتلقيا التعليم المعروف في ذلك العصر وتغنوا بأفعال راما البطولية دون أن يعرفوا أن راما هو أبوهما.

وقـرر راما الاحتفـال بالتضحية بفرس في أيوديـا، وأطلق سراح الفرس وبـدأت الأضحية في غابة نايميشا، وذهب لافا وكوسا مع الحامي الخاص بهما، فالميكي وغنوا الرامايانا أمام راما وضيوفه المجتمعين، وأخيراً تعرف راما نفسه على ابنيه البطلين ووارثي مجده وعظمته اللذين لا مثيل لهما.

ولكـن لم يكن هناك نصيـب من السعـادة لسيتا فقد خيـم الشك على حياتهـا واندثرت سيتا في الأرض، حفرة الحقـول، التي ولدتها. ولا يعد ذلك مجـرد رمز لملايين الهنـود ولكنه مثل للزوجة المخلصـة وحب المرأة وتضحيتها بذاتها. وتعتبر قصة سيتا ومعاناتها وإخلاصها لملايين الهندوس بمثابة درس أخلاقي يُلَقَن من المهد ويُذكر حتـى اللحد. ولم يعطنا الأدب العالمي مثلاً أكثر تشدداً لحب المرأة وإخلاصها.

الحياة الاجتماعية ونظام الطوائف

يرجـع نظام تقسيم الطوائف الحـالي في الهند إلى هذه الحقبـة من التاريخ، فقـد كانت الحياة عند الهندوس في الغاند في العصر الملحمـي أكثر استقراراً منها في العصر الفيدي في البنجاب، وأصبحت الطقوس والمراسم الدينية أكثر عظمة واسترسالاً، وفصل القائمون على هذه المراسم الدينية أنفسهم عن باقي

الشعب بشكل واضح، وظهرت فروق بين الآريين بعضهم البعض مشابهة لتلك الفروق الشاسعة التي ظهرت بين الآريين والسكان الأصليين في العصر الفيدي، وسريعاً ما كون رجال الدين مجتمعاً، أو طائفة خاصة بهم براهمان الهنود. ومع ذلك فقد ظلوا يتزوجون النساء من الطوائف الأخرى، ولكنه لم يكن سلوكاً جيداً أن تختار فتاة من البراهمان زوجاً لها من خارج طائفتها. وسرعان ما حذا الملوك والقادة والمحاربون حذو رجال الدين؛ فقد فصلوا هم أيضاً أنفسهم عن الهيكل المُكوَّن من التجار والمزارعين وكونوا طائفة كشاتريا في الهند، واحتفظ عامة الشعب من الهنود باسمهم فيساس أو فايسي؛ بينما كون السكان الأصليون الذين كانوا قد استسلموا للغزاة الآريين طائفة سودرا.

ولا يقدم لنا تاريخ أوروبا ولا تاريخ العالم كله أي نظام طوائف بهذا التحفظ وبهذه الاستمرارية مثل نظام الطوائف السائد في الهند، وزاد عدد الطوائف لعدة مئات في العصور الحديثة؛ فقد كوّنت كل قبيلة من السكان الأصليين أتت تحت التأثير الهندوسي طائفة خاصة بها؛ وتبلورت كل مهنة أو تجارة حتى أصبحت طائفة مستقلة.

وجهت عناية خاصة لتعليم الأولاد الآريين في العصور القديمة، وتركوا آباءهم منذ صغر سنهم وانتقلوا للعيش مع معلميهم لسنوات وتعلموا

الكتابات والترانيم الدينية والعلوم المعروفة في ذلك العصر وبعد الدراسة مع معلميهم ذهب الطلاب المهرة والمتميزون إلى باريشادز، المماثلة لجامعات أوروبا. وأخيراً عندما يستكملون دراستهم يدخلون في المرحلة الثانية من الحياة فيتزوجون ويستقرون كقائمين على البيت، وكان يعتبر من التميز أن يقضي المرء شيخوخته في تقاعد، أولاً يقوم بعمل الكفارة والطقوس الصارمة ثم التأمل المقدس والهادئ، وهذه هي الأربع مراحل المثالية في الحياة الهندوسية القويمة.

وتمتعت النساء باحترام أكبر في الهند عن البلدان القديمة الأخرى، وتُخصص الملحمات والأدب الهندي القديم مكانة أعلى لهن من الملحمات والأدب الإغريقي القديم، وتمتعت نساء الهندوس ببعض حقوق الملكية منذ العصر الفيدي، وكان لهن نصيب في المراسم الاجتماعية والدينية، وتميز بعضهن لتعليمهن. ولم تكن العزلة المطلقة للنساء في الهند معروفة في العصور القديمة.

الأربعة نصوص الدينية (الفيدات) والتعليم في العصر الملحمي

تحدثنا عن الريج فيدا في الفصل السابق ولكن شعب الهند عرف أربع فيدات، وفيما يلي كيفية تطور وظهور الأربعة نصوص الدينية (الفيدات).

فقـد كانت هناك بعض الترانيم التي تُغنى في الأضحيات بدلاً من أن تُتلى، وجمعـت هـذه الترانيم الغنائية وسميـت ساما فيدا. وكانـت هناك بعض التراكيب والقواعد الخاصة بالأضحيات منذ العصور القديمة من أجل القيام بالمراسم الدينية، وتم تجميع هذه التراكيب والقواعد تحت اسم ياجور فيدا. وظهـرت مجموعة من الترانيـم الأخيرة والتي تكونت غالبـاً من تعويذات ورقيات للوقاية من التأثيرات الشريرة، وجمعت تحت اسم آثار فافيدا.

وكان لكل فيدا أيضاً ملاحق وتوضيحات عقائدية، والتي تراكمت من عمـل أجيال من رجال الدين، ويسمى هـذا الهيكل الضخم من الأعمال براهمانـات. وبينما كانت هذه الأعمـال مخصصة لاستخدام العابدين في المـدن والبيوت، كانت هناك مقـالات معروفة باسـم ارانياكاس جُمعت لاستخـدام الذين ذهبوا للعيشـ في الغابات من أجل التعبد والتأمل. ونجد في هـذه الأعمـال المذكورة أخـيراً النصوص البارزة المسمـاة يوبانيشاد، والتـي تحتوي على تأملات فلسفيـة وأخلاقية فيما يتعلـق بالروح الإلهية الكونية، أو الروح الكائنة في كل مكان.

وكانـت هنـاك أقسام من التعليـم وطيدة الصلـة بهذا الكـم الهائل من النصوصـ الدينية، والتـي اعتبر الهندوس المتدينـون أن واجبهم أن يقوموا

بالإلمـام بها. وفي أحـد أجـزاء اليوبانيشاد نجد هـذه الأقسام مـن التعليم مذكـورة بالشكل الآتي: الأربع فيدات، تسجيـل الأحداث والكونيات، النحـو، عبادات الأجـداد، الرياضيـات، علم التنبـؤ، تقسيمات الوقت، المنطـق، الأخلاقيـات، دراسـة أصل الكلمـات، النطق وعلـم العَروض، الشيطانيات، علم التسلح، الفلك، وعلم الأفاعي والأرواح. وتذكرنا هذه القائمة بنمط التفكـير والعقلية البشرية خلال العصور الوسطى في أوروبا. وفي النحو تتبع الهندوس نشأة الكلمات من عدد محدود من الجذور اللغوية وفي الرياضيـات اكتشفـوا نظام التدوين العشري الـذي أدخله العرب إلى أوروبـا في العصور الوسطى والذي هو الآن ملكيـة عامة لكل الأمم، وفي الفلـك قسموا ممر القمر إلى المجموعات النجمية السبع والعشرين المعروفة والتي اقتبسها الصينيون تحت اسم سيو والعرب تحت اسم منازل.

مذهب تناسخ الأرواح والروح الإلهية الكونية

ولكن من بـين كل إنتاجات هذا العصر تتميـز الأوبانيشدات ببراعتها. فهي تمثل الاعتقاد السائد لدى المتعلمين والحكماء مثلما تمثل البراهمانات طقوس وعادات الشعب. وتوضـح الأوبانيشدات مذهب الروح الإلهية

الكونيـة مثلما توضـح البراهمانـات الاعتقـاد الشعبي في آلهـة الطبيعة المتعددة. وتجسـد الأوبانيشدات الفلسفة والمعرفـة الروحانية للعصر كما توضـح البراهمانات الطقوس الشعبيـة. وتصنف الأوبانيشدات في الهند علـى أنها الأعمـال التي تنقـل المعرفة الحقيقيـة بينما تحـدد البراهمانات الطقوس، وساد هذا الفرق في الهند في كل العصور.

ويعـد مذهب تناسخ الأرواح ومذهب الـروح الإلهية الكونية المذهبين الرئيسيين في الأوبانيشدات، ورأينا هذين المبدأين بصورة غير واضحة في ترانيم ريج فيدا وفي الأوبانيشدات نجدهما بصورة أكثر تطوراً واكتمالاً.

وكل الأشيـاء تتغير وكل الأشياء تغير جلدهـا وتكتسي بصبغة جديدة. ولذلـك فإن الروح داخل الكائنات الحية تُغـيّر شكلها الخارجي وتتحول إلى أشـكال أخـرى حتـى تجتمـع وتكـون في الـروح الإلهيـة الكونيـة والمسمـاة بالاسم الفيدي براهما. وخير ما يشـرح هذا المبدأ الأساسي من الأوبانيشدات هي لغة الأوبانيشدات كما يلي:

«كمـا يأخـذ الصائغ قطعة مـن الذهب ويحولها إلى شـكل جديد أكثر جمـالاً، كذلك تتحول الروح بعد أن تـترك هذا الجسد وتتخلص من كل الجهل تجعل من نفسها شكلاً جديداً أكثر جمالاً..

وينتهي الأمر بذلك بالنسبة لمن يرغب، ولكن بالنسبة للذي لا يرغب والذي ليس لديه رغبات والمتمتع برغباته ويرغب في الروح فقط فلن تذهب روحه إلى أي مكان آخر؛ ولكونه من براهما، فهو يذهب إلى براهما» (بريهادارانياكا، 4، 4)

«وكل هذا هو براهما. فليتأمل المرء في العالم المرئي وفي بدايته ونهايته وتنفسه في براهما..

العليم الذي جسده هي روح والذي شكله هو ضوء والذي أفكاره هي الحقيقة والذي هو طبيعته مثل الهواء الصافي-موجود في كل مكان ولا نراه- والذي تأتي منه كل الأعمال والرغبات والروائح العطرة والأطعم الطيبة. هو الذي يحتوي كل شيء ولا يتكلم أبداً ولا يفاجئه شيء.

إنه هو روحي داخل القلب، أصغر من حبة أرز وأصغر من حبة شعير وأصغر من حبة خردل وأصغر من حبة كناري، وهو أيضاً روحي داخل القلب أكبر من الأرض وأكبر من السماء وأكبر من الكون وأكبر من كل العوالم..

هو الذي تأتي منه كل الأعمال وكل الرغبات والروائح العطرة والأطعمة الطيبة، وهو الذي يحتوي كل شيء، وهو الذي لا يتكلم أبداً ولا يفاجئه

شـيء. وهو، روحي داخل القلـب، براهما. وعندما أرحل من هنا سوف أصل إليه.» (شاندوجيا،14،3)

وإن هذه هي الهندوسية الفلسفية كما كانت من ثلاثة آلاف سنة مضت وكما هـي الآن. والمنهج هو أن كل الكون وكل الأحياء يأتون من براهما ويعيشون فيه ويكونون جزءاً منه. وتبدأ كل روح فردية من الروح الإلهية الكونيـة وتمر بعـدة أشكال خارجية أو تجسيدات وفقـاً لأعمالها في هذا العالم وفي النهاية تندمج مـع الروح الكونية. وفكرة الوحدة الحقيقية التي تتضمن كل الظواهر المتغيرة تتضح وتُشرح في المنهجين الهندوسيين وهما تناسخ الأرواح والروح الإلهية الكونية.

الفصل الثالث

عصر القوانين والفلسفة

(800 - 315 ق. م.)

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

استعمار الهند بأكملها

في الفترة الأولى من التاريخ الهندي وجدنا أن الهنود الآريين أو الهندوس قد استقروا حول السند وروافده. وفي الفترة الثانية احتلوا وادي الغانج بأكمله امتداداً إلى شمال بيهار، وأسسوا ممالك عظيمة ومزدهرة في شمال الهند بأكمله. وهنا نأتي للفترة الثالثة والتي انتشر خلالها الهندوس في الهند كلها، وقبلت كل الأجناس والأمم في المنطقة -ما عدا القبائل التي كانت تعيش على التلال البرية- بالديانة الهندوسية والتعليم والقوانين الهندوسية والأخلاق والحضارة الهندوسية، وتحولت الهند بأكملها إلى النظام الهندوسي قبل القرن الرابع قبل الميلاد، أي قبل غزو الأسكندر الأكبر للهند.

عشر ممالك هندية عظيمة

وسنتمكن من تكوين فكرة حول انتشار التأثير والنفوذ الهندوسي خلال الحقبة الثالثة هذه إن مررنا سريعاً بملخص عن بعض الممالك الهندية العظيمة التي ازدهرت في هذا العصر. ويتصدر هذه القائمة ماجادا أو جنوب بيهار، والتي كانت ما تزال غير متحضرة في هذه الفترة، لكنها

أصبحت القوة الأولى في الهند خلال العصر الثالث. وفي الشرق تم جعل البنغال وأوريسا تحت السيطرة الهندوسية وكونوا الممالك الشقيقة آنجا (غرب البنغال) وفانجا (شرق البنغال) وكالينجا (أوريسا). ومن الناحية الأخرى تم إنشاء أفانتي (مالوا) في وسط الهند وساوراشترا (جوجرات) في الغرب كممالك هندوسية، وكانت ربوة دكن هي موقع الأمة القوية آندراز، والذين عرفوا القوتهم وحضارتهم ومدارسهم وقوانينهم. وبعيداً فقد انقسمت جنوب الهند بين ثلاث ممالك أشقاء وهم مملكة أسرة كولا الحاكمة على ساحل كوروماندل ومملكة أسرة تشيرا الحاكمة على ساحل مالابار ومملكة أسرة باندیا في أقصى الجنوب بالقرب من خليج كومورين، وتفوقت هذه الممالك العشرة العظيمة على الممالك التي سبقتها في وادي الغانج كما تفوقت ممالك الغانج في العصر الثاني على الدويلات الأقدم في البنجاب.

ويُبسط دراستنا للعصور الثلاثة الأولى من تاريخ الهند أن نتذكر كيف أن الحضارة والتعليم والقوة السياسية زحفت شرقاً وجنوباً في المراحل المتتالية خلال هذه القرون الطويلة. فخلال العصر الفيدي (من عام 2000 إلى 1400 قبل الميلاد) انتشرت الحضارة الآرية على البنجاب، كما أن

أدب وتاريخ هذه الحقبة هو أدب وتاريخ البنجاب. وفي العصر الملحمي (1400 إلى 800 قبل الميلاد) نشأت مستعمرات جديدة في شمال الهند وتطورت حضارتها بشكل أكبر وحظيت بأهمية سياسية أكبر، كما أن أدب وتاريخ هذا العصر هو بشكل أساسي أدب وتاريخ شمال الهند. وفي العصر الثالث أو العصر الفلسفي (من عام 800 إلى 315 قبل الميلاد) تختفي دويلات الهند الشمالية تقريباً عن أنظارنا وصعدت الممالك في شرق وجنوب الهند لمكانة سياسية أعلى وأقوى وترتسم مشاهد الحركات الثقافية والدينية الأهم في شرق وجنوب الهند. وبذلك تدل الأعمال المتروكة لنا من كل حقبة متوالية على زحف الحضارة والقوة السياسية في الهند القديمة من الغرب للشرق والجنوب.

ماجادا

ليس من الضروري أن نقوم بسرد تاريخ كل مملكة من العشرة ممالك التي ازدهرت في العصر الفلسفي بشكل منفصل ولم تقم شعوب هذه الممالك بالاحتفاظ بأي بيان متصل وموثوق فيه بأعمالهم القديمة. ولكن من بينهم كانت ماجادا أو جنوب بيهار هي القوة الأعظم في الهند وقد تُرك لنا

بعض الأثر المدون عنهم. ومن المهم ملاحظة الحقائق الواضحة عن تاريخ هذه المملكة.

ولدينا قائمة بثمانية وعشرين ملكاً من المفترض أنهم حكموا في ماجادا منذ وقت حرب ماها باهاراتا إلى القرن السابع قبل الميلاد؛ ولكننا لا نعرف شيئاً عن هؤلاء الملوك سوى الأسماء. وفي القرن السابع قبل الميلاد أسس سيسوناجا أسرة مالكة جديدة والتي سميت على اسمه، وحكم الملك الخامس في هذه الأسرة بيمبيسارا المتدين ذو الأخلاق النبيلة في ماجادا عندما بدأ جاوتاما البوذي في الدعوة للديانة البوذية عام 522 قبل الميلاد، وخلف أجاتاساترو بيمبيسارا، وكان حاكماً قوياً عنيفاً، وتوسع في حدود مملكة ماجادا عن طريق غزو الدويلات والأراضي المجاورة، وتبعه أربعة ملوك آخرون وانتهت أسرة سيسوناجا الحاكمة في حوالي عام 370 قبل الميلاد.

حكم ناندا وأبناؤه الثمانية لحوالي خمسين أوستين سنة ثم جاء بعدها شاندراجوبتا الذي عاصر وكان صديقاً للإسكندر الأكبر واحتل شمال الهند بأكمله، وبذلك تم رفع ماجادا لمنزلة الإمبراطورية، وقد يكون هذا هو أهم حدث في التاريخ السياسي للهند القديمة؛ حيث تم القضاء على

تقسيـم شمال الهند إلى دويـلات وممالك عديدة، ولأول مرة تجمع شمال الهند بأكمله تحت قوة إمبيريالية واحدة. ويدل هذا الحدث الذي تحقق في حوالي 315 قبل الميلاد على نهاية العصر الثالث.

مدونات القوانين

مـن الملاحظ أن النتائـج السياسة لهذه الفترة الثالثـة من التاريخ الهندي كانـت هائلة ومهمة. فقد كان هو العصـر الذي تحولت فيه الهند كلها إلى الهندوسية، والذي كان في نهايته تجمع شمال الهند كلها تحت نظام حكم قوي واحـد. ولم تكن الإنجازات الأدبية والعلميـة في هذا العصر، والذي سميناه بعصر القوانين والفلسفة، أقل أهمية.

وتم تلخيص الملاحق والمراجع الضخمة، التي كانت ضمن الأعمال الدينية المسماة البراهمانات، والتي كانت تستخدم في التأدية الصحيحة للعبادات، إلى كتـب إرشادية موجزة، والتي سميت سراوتـا سوتراس، وعلى التوازي فقد تم تجميع قواعد الطقوس والاحتفالات المنزلية تحت اسم جريهيا سوترا، وتم تجميع كل نصوص القوانين المدنية والجنائية تحت اسم دارما سوترا.

وتعنـي كلمة سوترا حرفياً الخيط وتدل على معنى أن القواعد والقوانين

تم تجميعهـا ونسجها مـع بعضها البعض من أجل تذكرهـا بشكل أسهل، وتم تجميـع كل القوانين الخاصة بالأضحيـات والطقوس المنزلية والقوانين المدنية والجنائية الخاصـة بالأرض في السوترا أو في شكل حقائقي بحيث يتمكـن كل ولد آري سواء أكان براهمان أم كشاتـري أم فايسي من تعلم النصوصـ القانونيـة بأكملها في أول حياته ويتذكرهـا طيلة حياته. وكان علـى كل هندوسـي متديـن معرفـة كل واجباتـه كعابد وكرجـل العائلة وكمواطـن؛ وكانت الطريقة التي كان يتعلـم بها هي حفظ النظام الثلاثي عـن ظهر قلب في الصغر، وعندما كان يسكن الطالب مع معلمه من أجل تلقـي التعليم المقدس. ولم تقم أية أمـة أخرى على الأرض باختراع طريقة أكثر تأثيراً من أجل توجيـه سلوك وشخصية الرجال ومن أجل فرض دينه وواجباته والتزاماته الدينية والمنزلية والقانونية على كل فرد في المجتمع.

ظهـر نظام القوانين الثلاثي في كل دويلة علـى مستوى الهند، وربطت مدارسـ السوتـرا المختلفة أنفسهـا بالفيدات المختلفـة. ويذكر نص قديم مشهور خمسـ مدارس سوترا للريج فيدا وسبـع وعشرين مدرسة سوترا للياجور فيـدا السوداء وخمس عشرة مدرسة للياجـور فيدا البيضاء واثنتا عشرة مدرسة للساما فيدا وتسـع مدارس للأثارا فيدا. وكان لكل مدرسة

سوترا نظاماً كاملاً من القانون الثلاثي، وتعلم تابعو أية مدرسة معينة في أي مكان في الهند عاشوا فيه ونقلوا تلك القوانين الخاصة بالمدرسة للطلاب. وبذلك انتشر حجم ضخم من نصوص السوترا حول الهند بأكملها؛ وتنافست المدارس في دكن وجنوب الهند مع تلك التي في الشمال، وقد جمعت هذه النظم من القانون الآري كل شعوب وأمم الهند، ونصت كلها على الطقوس والواجبات ذاتها وبثت نفس الروح واعترفت كلها بالفيدات والأضحيات الفيدية. وبالرغم من صعوبة تصديق ذلك، إلا أنه من الحقيقي أن الهندوسية القديمة انتشرت في كل الهند بسبب تأثيرها الأخلاقي والثقافي أكثر من كونها انتشرت بقوة السلاح؛ وجمعت الأمم ببعضهم البعض كجسد واحد عظيم، ليست الأسلحة السياسية والعسكرية بل الديانة الواحدة أكثر من أي شيء، وممارسة الطقوس المشتركة ونظم القانون الآري التي شكلت وحددت سلوك الآري.

القوانين الدينية والمنزلية

ومن بين القوانين الثلاثية المذكورة أعلاه لا تحتاج قوانين الأضحيات لأي شرح مطول، وكانت التضحيات متعددة الأنواع ولكن أحد الأنظمة

الشهيرة يقسمها إلى واحد وعشرين شكلاً مختلفاً، وتنقسم الطقوس المنزلية والاحتفالات الموسمية تحت هذا النظام إلى تسعة عشر قسماً وبذلك تجمع كل الطقوس الآرية وفقاً لهذا النظام تحت اسم الطقوس المقدسة الأربعون.

وإننا لنحصل على لقطات مفصلة من الحياة الهندوسية القديمة من خلال وصف هذه الطقوس المنزلية والاحتفالات الموسمية التسعة عشر، وتوصف مراسم الزواج في الأنظمة المختلفة بأشكال عديدة، ولكن الطقوس الأساسية تبقى كما هي، فالعروس تدور حول نار موقدة ثلاث مرات وتقدم أضحية للنار وتتقدم سبع خطوات مع العريس. ثم ينتظرون ويرتقبون النجم القطبي، رمز الثبات والإخلاص، وصحب ميلاد الطفل وإطعامه أول طعام صلب وحلاقة مقدمة رأسه المراسم المناسبة.

لكن أهم الطقوس بالنسبة للولد كانت احتفال القبول حين ينتقل من أبيه إلى الغور، أو معلمه من أجل تلقي التعليم. وكان الولد يرتدي ثوباً واسعاً وطوقاً وصولجاناً. وكان يحيا حياة بسيطة ويبتعد عن كل الرفاهيات، وكان يسكن مع معلمه كابنه وخادمه، وكان يسأله الطعام كل يوم. وبذلك يقضي سنوات التلمذة. وفي النهاية عندما يتلقى الولد الآري

تعليم الآباء يعود إلى بيته لأصدقائه المنتظرين ويتزوج ويستقر كرب البيت ويقوم بإشعال نار الأضحية المنزلية والتي كانت من الطقوس المهمة. ومن بين واجبات رب البيت، ذُكر منها خمس بالتحديد وهي: الأضحيات للآلهة، والآباء الراحلون، وحسن ضيافة الرجال، والشرف في الأخلاق، والإخلاص لله.

ومن بين الأعياد المحتفل بها وأبرزها المراسم الشهرية المقامة في ذكرى الأجداد، حيث يتم إطعام البراهمان المتعلمين وإهداؤهم العطور والأكاليل والملابس، وكذلك يتم تقديم التضحيات للآباء الراحلين، وكانت تقام المراسم في يومي القمر المكتمل والقمر نصف المكتمل، ويتم الاحتفال بطقس مميز في يوم القمر المكتمل من الموسم الممطر، وموضوع هذا الطقس استرضاء الثعابين، والتي كانت دائماً مصدراً للخطر في الهند، وقد جلب قمر الحصاد الخريفي احتفالاً أكثر هيبة والتي كان يتبعها، وفقاً لأحد الأنظمة/المذاهب، بتضحية مقدمة لسيتا، آلهة الأخدود. ويأتي بعد ذلك احتفالات أخرى بالحصاد تتكون من توزيع الكعكات المصنوعة من الذرة الجديدة وأيضاً احتفال آخر شهر في العام والذي كان يختتم العام. ومن الملحوظ أن العديد من الطقوس المنزلية والاحتفالات الموسمية

مـازال يحتفل بهـا الهندوس بشـكل أو بآخر حتى يومنا هـذا؛ وبالرغم مـن التغييرات السياسية والاجتماعية فـإن روح الهندوسية القديمة وحتى الطقوس والشعائـر الهندوسية هـي تقريباً مثلما كانـت عليه منذ خمسة وعشرين قرناً مضت.

القوانين المدنية والجنائية

إن الأجـزاء التشريعية التـي حددت القوانين المدنيـة والجنائية لها أهمية وفائـدة عظيمـة، فقد كانت الهند ومـا تزال دولة زراعيـة كبيرة وتتعامل القوانـين المدنية مع الأراضـي والمحاصيل وشروط الحـرث ومسؤوليات الرعـاة عن الأضرار التي تُلحقها الماشية بالأرض، ووُضعت قوانين الملكية والوراثـة بتفاصيل دقيقة، وحُددت أسعار الفائـدة القانونية بدقة شديدة، فقـد كانـت الفائدة علـى النقود المقترَضـة بضمان جيد هـي 15 بالمائة، وكانـت القوانين الجنائية مبنية على الفـوارق الطائفية؛ فالعقوبات كانت للبراهمان خفيفـة بينما كانت صارمة للسودرا بشكل قاسٍ، وكان الموت أو العقاب الجسماني هو عقـاب السرقة، ولكن كان للملك حق الرحمة، وقـد كان حق الدفاع عن النفس محدداً بشكل جيد، وكانت قوانين الأدلة

منصوصاً عليها بوضوح، وكان يُعتد بالوثائق والشهادة الكلامية، وكانت تعاقب شهادة الزور بعقوبات صارمة.

وفي أحد التشريعات يُنص على الضرائب المستحقة للملك كما يلي:

«يدفع الزارعون للملك ضريبة قيمتها عُشر أو ثمن أو سدس المحصول.

ويقول البعض بأن الضريبة على الماشية والذهب هي خمس المخزون.

وفي حالة التجارة يجب على البائع دفع واحد على عشرين.

وللخضروات من الجذور والفواكه والزهور والأعشاب الطبية وعسل النحل واللحوم والحشائش والأحطاب يدفع واحد لكل ستة عشر» (دارما سوترا الخاصة بجاوتاما، 5، 24 إلى 27)

الفيدانجات الستة

يعتبر القانون الثلاثي المذكور أعلاه فيدانجا واحدة، أي أحد فروع التعلُّم الفيدي، وتتكون الفيدانجات الأخرى من الصوتيات والأوزان والنحو وقوائم الكلمات والفلك. ومن السهل توقع لمَ سميت هذه الفروع بالفيدانجات؛ فقد كانت دراسة هذه المواضيع ضرورية من أجل النطق الصحيح للترانيم ومن أجل الفهم الجيد للفيدات ومن أجل القيام

بالطقوس الفيدية بشكل صحيح تحت المجموعات النجمية الصحيحة.

كان يُدرّس النحو بحرص خاص ويعد بانيني الذي ازدهر في هذا العصر هو أعظم نحوي عرفه العالم، وكان التوقيت الذي عاش بالضبط فيه محل خلاف، ولكننا نعرف أنه كان هناك ناقد شهير لنحو بانيني، عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، وأن بانيني نفسه كان يعيش قبلها ببعض القرون.

أدت ملاحظة النجوم من أجل معرفة وقت الأضحيات لظهور علم الفلك، وأُرفِقَت بكل فيدا رسالة تحدد التقويم المقدس، وأدى بناء الهياكل ذات الأشكال والمساحات المختلفة إلى دراسة الهندسة في الهند قبل أن يُعرف هذا العلم في اليونان بفترة طويلة، ومن أجل بناء الهياكل الصحيحة كان يجب إيجاد مربعات بحجم مربعين أو أكثر آخرين أو بحجم الفرق بين مربعين معينين، وكان يجب تحويل المستطيلات إلى مربعات وتحويل المربعات إلى مستطيلات، وكان يجب تشكيل مثلثات بحجم مربعات أو مستطيلات أخرى، وكان يجب إيجاد دوائر بحجم بعض المربعات تقريباً. وكانت توجد القواعد لهذه المشاكل والعديد من المشاكل الأخرى في تشريعات القانون الثلاثي المذكور أعلاه.

ملاحظات عامة على الحضارة الهندوسية

إن العرض الموجز الذي عرضناه عن القوانين الهندوسية وتعليم العصر يُمكّننا من تحديد ملامحها المميزة والخاصة. ويثير انتباهنا براعة وإبداع العقل الهندوسي فوق أي شيء آخر. كانت قوانينهم وفلكهم ورياضياتهم وهندستهم ونحوهم كلها من صنعهم الخاص، وأصبحت العديد من الاكتشافات التي تمت في الهند القديمة مثل النظام العشري في الرياضيات ميراثاً عاماً في العالم المتحضر اليوم. ومن الملحوظ أيضاً أن ثقافة كل فروع التعليم ارتبطت بالدين وبالطقوس الدينية في الهند القديمة، وألهم الدين الملاحظات وشجع التساؤلات وأدى لاكتشاف القواعد وحث على تجميع القوانين ومدّ انتصارات العلم في الهند، وكان هذا الارتباط وطيداً حتى إن الحكماء القدامى في الهند اعتقدوا أنهم كانوا يدعمون وينشرون عقيدتهم وطقوسهم القديمة عندما كانوا يضيفون لمخزون المعرفة، ويصعب على العلماء الحديثين تحديد متى تنتهي التأملات الدينية وتبدأ العلوم والفلسفة. ويجب أن نوضح الاهتمام غير العادي الذي وجهه الحكماء في الهند القديمة لطبع التعليم والقوانين الموروثة على كل ولد آري، وتم اكتشاف شكل جديد وحكيم من التأليف من أجل تكثيف كل القواعد والطقوس

الدينية والسلوك المنزلي والقانون المدني في نطاق مختصر، وحرصوا أن يحفظ كل ولد آري هذه القوانين عن ظهر قلب خلال فترة دراسته التي تمتد لاثني عشر أو أربعة وعشرين أو حتى ستة وثلاثين عاماً قبل أن يتزوج ويستقر كربّ بيت وعضو في المجتمع. وفي النهاية نلاحظ أنه بينما أُحيط القانون الثلاثي والأفرع الستة للتعليم الفيدي بالأهمية القصوى فقد سادت ثقافة العصر انطباعاً أخلاقيّاً قويّاً واعتبر السلوك الأخلاقي أهم وأعلى مكانة من كل الطقوس المقدسة الأربعين وكل الفيدات والفيدينجات.

الطقوس المقدسة الأربعون لا جدوى منها

للإنسان الذي يتملكه الهوى

فإن الهوى لا يقربه من براهما

ولا يقربه لسماء براهما

وتبارك الطقوس المقدسة وإن كانت قليلة

الرجل الذي تتملكه الفضيلة

وتقرب روحه من براهما

وتقرب روحه من سماء براهما

(دارما سوترا الخاصة بجاوتاما، 8، 24 و25)

فالفيدات لا تفيد إن كانت دون فضيلة

والفيدانجات لا تجلب المغفرة

والعلوم المقدسة ترحل عن المذنب

كما ترحل الطيور الكبيرة عن عشها

***

الفيدات والفيدانجات الستة

لا تبارك الرجل الذي تكون حياته مليئة بالذنوب

كما يكون جمال الزوجة

للأعمى الذي فقد بصره

والنصوص والأضحيات المقدسة

لا تنقذ الرجل المتعالي المخادع

فالطقوس والتعليم تبارك الفضلاء

كما يبارك السحاب سماء الخريف الممطرة

(دارما سوترا الخاصة بفاسيشتا، 6، 3 إلى 5)

مـن غير العـادل أن نحكم على الحياة والحضـارة القديمة بمعايير حديثة،

ولكن المقارنة أحياناً ما تطرح نفسها ولكنها لا تكون مجدية على الإطلاق. وبالنسبة للقارئ الحديث فإن التفاصيل الدقيقة لقواعد السلوك المنصوص عليها في التشريعات الهندوسية القديمة تكون معقدة أو تقريباً غير مفهومة. فقد كانت الطقوس والأفعال في الحياة اليومية والعادات والشعائر محددة في القانون والقواعد، واعتبر البشر كائنات قانونية وتشريعية، ولم تكن هناك مساحة كافية من حرية التحرك والتغيير والتي هي صفة أساسية في الحضارة الحديثة، وكانت عدم المساواة في القوانين بين الشعوب الآرية وغير الآرية، بين البراهمان والسودرا، صفة غير صحية أخرى في القوانين الهندوسية القديمة. وتعترف المجتمعات الحديثة، على الأقل نظرياً، بقوانين متساوية لكل الطبقات، وبالرغم من ذلك فإنه عملياً حتى أكثر الغزاة تحضراً إلى الآن لا يطبقون عدالة متساوية بين أنفسهم وبين الأمم المحتلة في أي جزء من العالم. وأخيراً، كان لتميز الغزاة الحديثين مقابلاً في تميز التشريعات الهندوسية القديمة.

كانت الطقوس والاحتفالات الدينية وكل القوانين والقواعد والفيدات والفيدانجات كلها للآريين؛ وتم إهمال جموع غير الآريين الذين كونوا معظم الهندوس في شرق وجنوب الهند. ونحصل على بعض اللمحات

مـن الحياة والدين والتعليـم في المستعمرات الآرية الصغـيرة حول الهند، ولكـن الأمم العظيمة التي قبلت حضارة الجنسـ الآري كانت ما تزال في الظـل وكانت معزولة عن التعليم المقدسـ والطقوس المقدسة. ولكن هذه الخصوصيـة لم يُقـدّر لها أن تستمر طويلاً بعـد أن حصل جموع الأمم غير الآريـة في شـرق وجنوب الهند على قـوة وأهمية سياسيـة وكانت رسالة البوذيـة هي كسر الحواجز وتوحيد الآريـين وغير الآريين إلى هذا المجتمع الهائل المسمى بالهندوس اليـوم، وأذن الوقت لجالب المساواة وظهر هذا الجالب للمساواة.

ستة أنظمة فلسفية

لا تستنفـد السـت فيدينجات المذكـورة أعلاه بأي طريقـة كل التطور الثقـافي في هـذا العصـر؛ فإن أعظـم نتائج هـذه الفترة هي الستـة أنظمة الفلسفيـة، ونشأت العديـد من المدارسـ المنفصلة في الفلسفـة في الهند القديمـة، ولكن الكُتّاب الهندوس التقليديين يذكـرون ستة أنظمة. ولكنه سيكـون خارج نطاق العمل الحالي أن نشـرح الست أنظمة، ولكن يمكننا فقط الإشارة إلى طبيعتهم ومضمونهم في حدود تخصصنا.

كانت فلسفة سانخيا هي أقدم نظام في فلسفة العقل المعروفة للعالم؛ فقد ازدهرت في الهند في القرن السابع قبل الميلاد أو قبل ذلك، ويُعتقد أن فيثاغورس قد اقتبس بعض مبادئها وأدخلها إلى اليونان. ووفقاً لهذا النظام فإن الطبيعة والروح أبديان ومستقلان في وجودهما، ومن الطبيعة تنبع العناصر الفظة والرقيقة والحواس وأعضاء الحركة، بالإضافة إلى الإحساس والإدراك والذكاء. وتكتسب الروح المعرفة عن طريق الاتحاد مع الطبيعة وعندما تكتسب هذه المعرفة تُعتق وتتحرر إلى الأبد.

ولا تقول فلسفة سانخيا شيئاً عن وجود كائن مطلق، وسعى نظام يوجا في الفلسفة إلى إزالة هذه الحاجة. وتتحدث عن التأمل في الله وعن العادات والممارسات المتعددة. ويدعي أتباع هذا النظام اكتساب قوى غامضة وخارقة عن طريق هذه الممارسات، وترتبط معظم الاعتقادات الخرافية والسحر الأسود في الهند الحديثة بهذا النظام الفلسفي.

ونايا هو المنطق ويتعامل مع الإثبات والأشياء المطلوب إثباتها. ويشبه القياس المنطقي الهندوسي القياس المنطقي عند أرسطو ولكن فيه مصطلحين زائدين. وفيما يلي مثال:

1 – التل مشتعل.

2 – لأنه ينبعث منه الدخان.

3 – أي شيء ينبعث منه دخان يكون مشتعلاً مثل المطبخ.

4 – والتل ينبعث منه الدخان.

5 – ولذلك فهو مشتعل.

ويعتبر نظام فايشيشيكا مدرسة من مدارس الفلسفة الذرية (فلسفة التجزئة). فالذرات خالدة ولا يمكن تدميرها وتختفي المواد بمجرد تحلل الذرات.

ولا يعد نظام ميمانسا نظاماً فلسفياً بالمعنى المعروف ولكنه تفاعل مألوف ضد مذاهب الفلاسفة المقلقة. وإنه نظام يصر على أهمية الطقوس الفيدية التي أهملتها الفلسفة الحديثة.

ويعتبر نظام فيدانتا أيضاً تفاعلاً مألوفاً ويرجع بنا مرة أخرى إلى مذهب أوبانيشادات، مذهب الروح الكونية. والطبيعة ليست منفصلة عن الروح. فالطبيعة هي مظهر متعدد الأشكال للروح الإلهية وتأخذ حياتها من الروح وسوف تتحد مع هذه الروح

«البحر مياه ولا يختلف عن المياه؛ ولكن الأمواج والرغوة والرذاذ والقطرات والزبد والأشكال الأخرى من المياه تختلف عن بعضها.» –

(براهما سوترا، 2، 1، 5).

«ومثل الشمس.. التي تتضاعف شكلياً بسبب الانعكاس ولكنها في الواقع واحدة، وكالفضاء الذي يبدو وكأنه منقسم إلى أوعية ولكنه في الحقيقة ليس كذلك، فالضوء الأكبر لا يشوبه اختلافات أو فروق» (براهما سوترا، 2،2.)

«وبعد أن نعم بالثواب وتحمل آلام الأفعال الخيرة والسيئة ينتقل صاحب المعرفة الإلهية عند زوال الجسد ليتحد ثانية مع براهما» (براهما سوترا، 4، 1،14).

وهذا هو المبدأ الجوهري في الهندوسية، والذي تعكسه بشكل غير واضح الريج فيدا، ويظهر بشكل قوي في أوبانيشاد، ويثبت بالمنطق والحجة في فلسفة فيدانتا، ويعتقد فيه ملايين الهندوس المتدينين الملتزمين حتى يومنا هذا.

الفصل الرابع

ظهور البوذية

(عام 522 ق. م.)

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

أسباب ظهور البوذية

لقد تجمعت كل الأمم غير الآرية في الهند تحت مظلة الدين والحضارة الآرية في هذا العصر وكونوا اتحاداً من الدول والممالك بداية من (ماجادا) وحتى أقصى جنوب الهند. ولكن رغم ذلك فقد خلق الآريون -بفخرهم كجنس أعلى- هوة لا يمكن تخطيها بين الآريين أنفسهم وملايين من غير الآريين الذين اعتنقوا الهندوسية، والذين حاطوهم من كل جانب، والذين أسسوا دولاً وممالك، والذين رأوا أحقيتهم في المميزات التي تمتع بها الآريون بعد أن اعتنقوا الديانة والحضارة الآرية، وحمت المجتمعات الآرية الصغيرة مميزاتهم القديمة عن طريق تشريعات القانون الآري، والتي أصبحت أكثر وأكثر بغضاً للشعب بشكل عام والذين كانوا آريين في كل الجوانب ما عدا أسلافهم، وتطلب الشذوذ حلاً وتطلبت الهوة ملاً. وآن الآوان لثورة دينية تقضي على الفروقات وتوّحد صفوف كل الهندوس في مجتمع واحد بدلاً من اثنين، وأتت البوذية بهذا الحل، وبالرغم من أن هذه الحركة الجديدة لم تقضِ تماماً على الطائفية إلا أنها جمعت الهندوس من كل الطوائف تحت طائلة القوانين الهندوسية والطقوس الهندوسية تحت طوق الهندوسية كما هي معروفة الآن. وكانت هذه هي النتيجة

الاجتماعيـة والسياسيـة العظيمة التـي أحدثتها البوذيـة في الهند وبقيت النتيجة برغم اختفاء البوذية كديانة من الهند.

ساعـدت التأمـلات الفلسفيـة الكائنة في هذا العصـر وعجّلت بالثورة الدينيـة، ففـي عصر سُمح فيـه للفلاسفة بنشـر آراء ومناهـج منشقة بكل المقاييـس، وأصبح من الأسهل للمصلح توسيـع وتنقية الدين القديم. وفي عصر تعـودت فيه عقـول المفكرين علـى وزن ومقارنـة الآراء المتعارضة للمدارس المتعارضة حظيت تعليمات مصلح جديد بأهمية واهتمام شديد.

وأخيراً قدمت شخصية المصلح الطاهرة وتعاطفه الكبير وحبه للعالم أجمع وأقوالـه التي تأمـر بالتصدق والتسامح والحب ودعمـه الشديد للتهذيب والرقي الأخلاقي كبديل للاحتفـالات الصاخبة والطقوس المتفاخرة سبباً ثالثـاً وليس أقـل أهمية لنجاح الإصـلاح الديني. وتحـول آلاف الرجال المفكريـن من الاحتفالات غير الحيوية وغـير ذات المعنى إلى الرجل الذي دعـا لثقافـة أخلاقية بأقوال وقصـص غير مسبوقة الجمـال والتف ملايين الفقـراء والضعفاء وغير الآريـين والجهلاء حول المصلـح الجديد، والذي كانـت مذاهبه واسعـة وذات فائدة جماعية وقد كفلـت الراحة والحماية للجميع.

حياة جاوتاما البوذا

كان المصلح هو جاوتاما البوذا، ولد في (كابيلافاستو) على حدود نيبال في حوالي عام 577 قبل الميلاد وكان الابن الوحيد لزعيم أو ملك عشيرة ساكيا، وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره تزوج ياسودارا ابنة زعيم عشيرة كولي، وبعد عشر سنوات من زواجه أنجبت له زوجته ولداً، وسمياه راهولا، ولكن تطلعات المصلح كانت دائماً ما تشغل بال جاوتاما، ولم يمنحه الاستقرار المنزلي ولا مملكة والده ما أراد، وبعد ولادة طفله بفترة قصيرة ترك زوجته وطفله الرضيع ذات ليلة في السر وترك أراضي والده متجولاً في الأرض باحثاً عن الحقيقة من أجل إنقاذ البشرية.

وذهب جاوتاما إلى راجاجريها عاصمة مملكة ماجادا وألحق نفسه ببعض البراهمان المتعلمين وتعلم كل ما كان يدرسه الفلاسفة الهندوس من علم، ولم يُرضِ التعليم أمانيه الداخلية وتحول إلى ناسك وحكم على نفسه بأقصى العقوبات، ولكن العقوبات لم تكن مثمرة أيضاً ولم تجلب له أية راحة، وعندما تخلى عنها تركه أتباعه وتركوه وحيداً دون صديق.

وتجول جاوتاما على ضفاف نهر نيرانجارا وحيداً وتلقى وجبة الصباح من أيدي ابنة رجل في القرية وجلس تحت شجرة بودي في تأمل. تعددت

الأساطير التي روتها الأعمال البوذية عن تأملات جاوتاما في هذا اليوم الملىء بالأحداث، وعن إغواء الروح الشريرة له وعن تقلبات الطبيعة التي دلت على حدث عظيم فيه الخير للبشرية. وخلال هذا التأمل الوحيد والهادئ وجد جاوتاما الحقيقة والتي لم يعلمها له التعليم ولا العقاب، والحقيقة التي اكتشفها وعلمها للبشرية هي أن نجاة الإنسان لا تأتي من التضحيات والاحتفالات ولا العقوبات، بل من خلال التهذيب الأخلاقي والحياة المقدسة والتصدق والتسامح والتحاب.

وكان هذا في عام 522 قبل الميلاد ولمدة خمسة وأربعين عاماً، أي حتى وفاته حيث أعلن الحقيقة ودعم مبادئ الإصلاح أينما ذهب، وأرسل أتباعه أيضاً في كل اتجاه وقال لهم، «اذهبوا أنتم الآن، وتجولوا في كل مكان من أجل النفع للجميع والرخاء للجميع وتعاطفاً مع العالم كله، ومن أجل المصلحة والنفع والرخاء للآلهة والرجال. ولا يذهب اثنان منكما في الطريق نفسه».

بدأ جاوتاما بنشر تعاليمه في بينارس (مدينة الهندوس المقدسة منذ العصور القديمة)، وكان له عدد من التابعين. وبعدها عاد إلى راجاجريها عاصمة (ماجادا) ورحب به الملك بيمباسارا ويقال إن ملكة ماجادا

اعتنقت مبادئه في النهاية. وقام بزيارة محل مولده، وعندما أسس نظاماً دينياً أصبحت زوجته راهبة وأصبح ابنه راهباً، وسافر إلى كوسامبي وأماكن عديدة أخرى في شمال الهند، ويعد استقبال جاوتاما وحفاوة وحسن استماع الناس له أينما ذهب ونشر تعاليمه دليلاً على التسامح الديني الذي ساد في الهند القديمة.

خلف بيمبيسارا على العرش في ماجادا (أجاتاساترو) القوي، وبنى الملك الجديد بلدة (باتاليبوترا) أو(بانتا) لإبعاد عشائر فاجيانو، وهو جنس من الغزاة (الطورانيون) الذين كانوا اخترقوا شمال الهند واحتلوا البلاد حتى شمال الغانج. قال أجاتاساترو: «سوف أقتلع جذور هؤلاء الفاجيانيون برغم قوتهم وجبروتهم». واستشار جاوتاما المبجل فيما يخص موضوع النزاع. ولم يكن جاوتاما يحترم الملوك ورد بأنه «طالما أن الفاجيانيين ظلوا متحدين ومخلصين لعاداتهم القديمة فنحن لا نتمنى لهم الهلاك ولكن نتمنى لهم الرخاء».

وبعدها ذهب جاوتاما جنوباً إلى نالاندا والتي أصبحت موقعاً لدير وجامعة بوذية في وقت لاحق. ثم عبر الغانج مرة أخرى وذهب إلى فايسالي عاصمة (ليتشافيس) القوية في الشمال. وهنا لقي ضيافة امبابالي

وهـي امرأة كانت مخطئة ثم قدمت قصـراً وممتلكات للنظام البوذي. وبعد التجول أبعد ذهب إلى كوسيناجارا حيث توفي في عام 477 قبل الميلاد.

وهناك أسطورة جميلة تحكي عن وفاة هذا الرجل المقدس والتي تتماشى مـع حياته المقدسة. ويقال إنه عند اقـتراب وفاته طرحت الأشجار زهوراً في غـير موسمها وقدمت الطبيعة احترامهـا للسيد الراحل. ولكن لصدقه في تعاليمـه نفى جاوتاما هذا الاحترام الإلهي وأعلن أنه مبارك فقط بحياة إخوانه وأخواته المقدسة على الأرض.

وبهذا تجولوا في أراضٍ عديدة

بوذا وصديقه المخلص

وعلموا الحقيقة لأمم كثيرة

حتى اقتربت حياته على النهاية

ويقول الناس إنه على طول الطريق

أزهر شجر الفاكهة في غير الميعاد

وانتشرت رائحة عذبة منها

والزهور وحبات الصندل

سقطت عليه من أعلى

ومقطوعات الموسيقى السماوية

سُمع صوتها العذب من السماء!

***

ولكن السيد الصالح همس

لصديقه المحبوب المبارك

«ليس هكذا يا صديقي أناندا

يبارك بوذا بأفضل شكل..

لا بالزهور ولا بحبات الصندل

ولا بمقطوعات الموسيقى السماوية

فإذا قدمت الروح حق العبادة

تكون هذه الأشياء بلا فائدة ولا قيمة

ولكن الأخ والأخت

الرجل التقي والمرأة الصالحة

الطاهرين في حياتهم المخلصين في واجباتهم

هم من أدوا العبادة حقاً!»

(ماهابارينيبانا سوتا)

النصوص الدينية البوذية

جُمع كم ضخم من النصوص البوذية المقدسة من كل البلدان البوذية، وتنقسم هذه النصوص إلى مدرستين منفصلتين، فالبوذية الجنوبية هي بوذية سيلان وبورما وسيام، بينما البوذية الشمالية هي بوذية التبت والصين واليابان. ومن المهم تذكر أن البوذية دخلت سيلان في حوالي عام 240 قبل الميلاد وفي بورما حوالي 450 بعد الميلاد وفي سيام حوالي 638 بعد الميلاد، وفي الشمال قبلت الصين بالبوذية في القرن الرابع واليابان في القرن السادس والتبت في القرن السابع بعد ميلاد المسيح.

ومن بين كل البلدان التي ما زالت بوذية حتى يومنا هذا كانت سيلان أول من تقبل هذا الدين، وبعد أكثر من مائتي عام بفترة قليلة من وفاة بوذا انتقلت تعاليمه لسيلان عن طريق الرواية من شخص لآخر وفي عام 88 قبل الميلاد تم نقل هذه التعاليم -والمعروفة في جملتها بالسلات الثلاث- إلى الصورة الكتابية بالشكل الذي نعرفه اليوم. ولذلك فمن المعتقد أن هذه السلات الثلاث تمثل بصدق تعاليم البوذا في المجمل بالرغم من أنه لا بد وأن يكون عمل بعض الإضافات خلال الأربعة قرون من وفاة البوذا وحتى تاريخ كتابة النصوص الدينية البوذية في سيلان. ومن بين

السلات الثلاث -أو مجموعات الأعمال- فإن الأولى تحاول سرد الأعمال والأقوال الحقيقية للبوذا، والثانية هي تجميع للقواعد الرهبانية، والثالثة تتكون من الفلسفة والتأملات البوذية. ومن المرجح أن الإضافات التي تم عملها خلال الأربعة قرون التي تلت وفاة البوذا كانت بشكل أساسي في السلات الثانية والثالثة. اتسعت قواعد الحياة الرهبانية والتي وضعها (جاوتاما) بنفسه في حياته في حجمها من عصر لعصر بعد وفاته، وفصل العلماء البوذيون الذين تبعوا (جاوتاما) التأملات الفلسفية عن الروح والحياة الأخرى بشكل واسع والتي اعتبرها (جاوتاما) نفسه بشكل أو بآخر غير مجدية ولكن كانت محببة إليهم. وبأخذ كل ما سبق في الاعتبار، فيمكننا تقبل السلات الثلاث السيلانية -فهي أول أثر مكتوب عن العقيدة والمذاهب البوذية- على أنها بيان صادق عن تعاليم بوذا.

المذاهب البوذية

كانت المذاهب والمعتقدات ذات أهمية ثانوية في نظام البوذا، ومن المرجح أنه بتصميمه على التهذيب الأخلاقي والحياة الطاهرة كهدف وموضوع إصلاحه فترك المذاهب والمعتقدات القديمة دون ذكر، ويُذكر

(براهما) و(إندرا) والآلهة الهندوسية القديمة الأخرى بشكل متكرر في النصوص البوذية الدينية على أنها مخلوقات خيرة تسعى أنفسها وراء التهذيب الأخلاقية والحياة الطاهرة. ويبدو أن المناقشات الطويلة والمرهقة عن عدم وجود الروح هي نتيجة قرون من التأملات اللاحقة. ويبدو أن (جاوتاما) قبل ضمنياً بعقيدة ومعتقدات آبائه ورأى نفسه كمصلح فقط ليبني نظاماً مفصلاً من القواعد الأخلاقية لكل البشر، بدلاً من تلك الاحتفالات غير ذات المعنى التي انحدر إليها دين آبائه.

الأربع حقائق والثمان طرق

وبذلك نجد أن المذاهب الرئيسية للبوذية هي المذاهب الهندوسية القديمة مطبقة على نظام جديد -أو كما تم وصفها- كالنبيذ القديم الذي نضعه في زجاجات جديدة، فمذهب الأربع حقائق البوذي هو أن الحياة معاناة، وأن الرغبة تؤدي إلى إعادة ميلاد أرواح، وأن توقف الرغبة يؤدي إلى النجاة من إعادة الميلاد والمعاناة. ويوضح مذهب الثمان طرق أن هذه النجاة الضمنية يمكن الحصول عليها عن طريق المعتقدات والآمال الصحيحة والحديث والسلوك القويم والاجتهاد والحياة الخالية من الذنوب واليقظة

والتأمـل. وهي الفكرة الهندوسية القديمـة عن النجاة النهائية من العقاب، والتي تتحقـق عن طريق المعرفة الكاملة والصلاح والتي وجدناها من قبل في الأوبانيشادات.

مذهب الكارما

وبهـذا التهذيب الذاتـي يمكن الحصول على التقـوى الكاملة، إن لم يكـن في هذه الحياة، فبعد عدد مـن إعادة الميلاد. فالآلهة والبشر كلهم مخلوقات حية تسعى لهذه القدسية والصلاح، والذي هو أعلى من كل شيء ويمرون بعدد متتابع من إعادة الميلاد من أجل الحصول على ذلك. ومذهـب الكارما يقول بأن كل كارما، أو (فعل) في هذه الحياة يكون له مـردود متوافق في حياة أخـرى؛ وعلاقة كل حيـاة بالتي تليها هي علاقـة لهب المصباح بلهـب مصباح آخر اشتعل مـن المصباح الأول. وإذا عانـى رجل بـريء في هذا العالم فإنـه يقول «إنهـا نتيجة أعمالي في حيـاة سابقة فلمَ أشكـو الآن؟» وهذا أيضاً هـو المذهب القديم في الأوبانيشادات والتي طرحها بـوذا الآن أمام الملايين من الآريين وغير الآريـين. والفرق الطفيف الذي يمكن أن نـراه بين المذهب الهندوسي

القديم عـن تناسـخ الأرواح ومذهب الكارما البـوذي (الذي يعترف بإعـادة الميلاد ولكنه ينفي وجود الأرواح) هو التأملات الغامضة التي نرجـح صلتها بالأجيال التالية من العلماء البوذيين على أن تكون لبوذا نفسه.

مذهب النيرفانا

وعندما تنكسر القيود التي تربطنا بالحياة وبإعادة الميلاد أخيراً عن طريق التهذيب الذاتـي المستمر يحصل الفرد على التقـوى الكاملة والتي يطلق عليها البوذيون اسم نيرفانا. وأفضل ما يصف هذه الحالة هي لغة النصوص الدينية البوذية:

«لا معاناة له من قد أنهى رحلته وهجر الحزن والذي حرر نفسه من كل الجوانب وألقى جميع القيود بعيداً.

يرحلـون وأفكارهم مرتبة وهم غير سعـداء في مسكنهم؛ وكالبجعات اللاتـي تركن بحيرتهـم يتركون هم منزلهـم ومسكنهـم» (داماباداً، 90 و91.)

ويستعيـد الجمال والعذوبة التي تمتلئ بها هذه النصوص الأوبانيشادات

في وصفها للتحرير الآخر. ولكن البوذا في نقله لهذه التعاليم للعامة أعلن بوضوح أن الهدف النهائي لكل الكائنات الحية يمكن الوصول إليه من خلال التهذيب الأخلاقي وحياة التقوى وليس بأية طريقة أخرى، وأن هذه السعادة النهائية يمكن للبشر الحصول عليها هنا على الأرض كما يمكن للآلهة والملائكة في السماوات العليا. ويرفع (جاوتاما) مكانة نيرفانا أو السعادة الكاملة والتي يمكن الحصول عليها من خلال الصلاح فوق أي بشر وأية آلهة وهي الغاية النهائية التي يسعى الآلهة والبشر للحصول عليها من خلال عدد متكرر من إعادة ميلاد.

وعن الباقي فقد أطاح (جاوتاما) بالأضحيات والطقوس الفيدية الطويلة باحتقار والتي تحولت إلى أشكال كبيرة ومملة واقترنت بذبح الحيوانات، وأطاح بشكل متساو بالعقوبات القاسية والشاقة التي كانت تعتبر من مظاهر التدين والتي كانت تقام بدافع الغرور أو الخديعة، والتي كانت أيضاً غير مثمرة أو مؤذية. وكان النظام الطائفي قد تغلغل في المجتمع الهندي بعمق وتحمله (جاوتاما) بين عامة الناس ولكن في الفئة المقدسة من الرهبان والراهبات التي كونها لم يكن هناك فوارق طائفية وكان الجميع سواء في سعيهم لحياة التقوى.

مذهب التحرر الأخير

كان ومـا يـزال هناك كم هائل مـن التساؤلات والجـدل حول مذهب النجـاة الآخرة. والكثير من هذه التأملات هي مـن صنع العلماء البوذيين اللاحقـين لبـوذا، لأن بوذا نفسه لا يبـدو أنه ضيع الكثـير من الوقت في مناقشـة المجهول. وتشرح لنا محادثة مثـيرة للاهتمام يقال إنها حدثت في مناسبـة ما بين ملك (كوسالا) وملكة (ماجادا) كيف أن البوذا كان يحب ترك الحقائق غير المعروفة جانباً باحثاً عن الإصلاح الأخلاقي الأكبر الذي كان قد بدأه:

قـال الملك متسائلاً، «يـا أيتها السيدة الموقرة، هـل يوجد هناك الكائن الكامل بعد الموت؟»

فـردت الملكة «لم يقل بوذا المقدس يا أيها الملك العظيم بأن هناك الكائن الكامل بعد الموت؟»

فسـأل الملـك: «إذاً ألا يوجد هنـاك الكائن الكامل بعد المـوت يا أيتها السيدة الموقرة؟»

فردت الملكة: «وهذا أيضاً يا أيها الملك العظيم لم يذكره بوذا المقدس فهو لم يذكر أنه لا يوجد الكائن الكامل بعد الموت».

المبادئ الأخلاقية

عظمة وهيبة البوذية إذاً لا تكمن في مذاهبها وبنود عقيدتها بل في مبادئها الأخلاقية والتي ترفع مكانة هذا الدين فوق مكانة كل الأديان الأخرى في العالم القديم، فتاريخ الأمم القديمة على الأرض لا يقدم لنا أي شيء أكثر رقياً في تعاليمه وخالصاً في روحه وسخياً في دروسه عن التصدق والتسامح والحب كدين (جاوتاما).

الوصايا الخمس والوصايا العشر

هناك عشر وصايا ملزمة على الفئة المقدسة من البوذيين بينما هناك خمس وصايا ملزمة فقط لكل البوذيين، سواء أكانوا أناساً عاديين أم رهباناً وهي:

«لا يقتلَنَّ أحد أي كائن حي

لا يأخذنَّ أحد ما لم يُعطَ له

لا يتحدثنَّ أحد بالباطل

لا يشربنَّ أحد المشروبات المسكرة

لا يمارسنَّ أحد الرذيلة»

(داميكا سوتا، 25).

الواجبات الحياتية

وتعطي رسالة هائلة.. عرضاً أشمل وأوضح لواجبات الإنسان والتي هي مشتركة بين البوذيين الشماليين والجنوبيين، ويتم توضيح العلاقة بين الآباء والأبناء وبين التلاميذ والمعلمين وبين الزوج والزوجة وبين الصديق وصديقه وبين السيد والعبد وبين الرهبان وعامة الناس في ستين مبدأ، والذي يعطينا لمحة عن الحياة الهندوسية الطاهرة المثالية بعلاقاتها المنزلية الجميلة وعقيدتها وحماسها الديني. ويُلخص مضمون هذه المبادئ فيما يلي:

«يعلم الآباء أولادهم الفضيلة والفنون ويحترم الأبناء آباءهم ويرعونهم عند كبر سنهم. ويطيع التلاميذ ويلبون وصايا معلميهم ويعلم المعلمون التلاميذ الخير والمعرفة. ويكون الزوج عطوفاً ومخلصاً لزوجته ويحترمها ويعمل على احترام الآخرين لها وتكون الزوجة ربة بيت مقتصدة ومجتهدة ومضيافة كريمة وزوجة عفيفة ومخلصة. يشارك الأصدقاء أصدقاءهم في السراء ويساندون بعضهم البعض في الضراء. ويكون السيد عطوفاً ويكون العبد مجتهداً وراضياً. ويكون الفرد من عامة الناس محباً ومحترماً لرجال الدين قولاً وفعلاً ويبعد رجل الدين الرجل العامي عن الخطيئة ويرشده إلى الفضيلة ويساعده بأن يدله على طريق الجنة» (سيجالوفادا سوتا.)

الحكاية التي تحث على مقابلة الكراهية بالحب

وما هو أعلى مكانة من هذه القواعد الممتازة للحياة هي تعاليم (جاوتاما) السامية من خلال حكايات وقصص الوعظية وقصص الميلاد اللانهائية التي غرس من خلالها في نفوس تابعيه الواجب الأعلى وهو مقابلة الشر بالخير ومسامحة الأذى. وهذه القصص الوعظية حافلة بروح التدين والحب الخالصة حتى إنها ترفع مكانة معلم البوذية العظيم ودينه فوق كل ديانات العالم القديم. ونلخص مضمون إحدى هذه القصص الوعظية فيما يلي:

ذبح براهماداتا، ملك كاسي، أحد ملوك كوسالا وزوجته وسرق مملكتهما وعند وفاته نظر الملك المنكوب إلى ابنه وأعطاه آخر وصاياه قائلاً: «لا يلطف الكراهية، يا ابني الحبيب ديجافو، مزيداً من الكراهية؛ بل يلطف الكراهية، يا ابني الحبيب ديجافو، الحب».

وبكى الأمير اليتيم وهام على وجهه في الغابة ثم عمل كخادم في إسطبلات براهماداتا الملكية، وفي ذات يوم غنى أغنية وعزف على العود وسمعه الملك وسُرّ منه سروراً كبيراً حتى أنه اتخذ الولد حارساً له، جاهلاً بنسبه.

وحدث أنه في أحد الأيام خرج الملك ليصطاد وأخذ معه ديجافو. ثم

ضل الملك الطريق وأنهك من التعب فجلس ليرتاح. فأسند رأسه إلى حجر ديجافو ونام.

ثم بدأ يفكر ديجافو في داخله: «لقد آذانا هذا الملك براهماداتا ملك كاسي كثيراً، فهو الذي سرق جيوشنا وعرباتنا وأرضنا وكنوزنا ومخازننا. وهو أيضاً الذي قتل أمي وأبي وها قد حان لي الوقت الذي أشفي فيه غليلي».

ثم أخرج ديجافو سيفه من جرابه ولكن وصية أبيه الأخيرة دوت في رأسه: «لا يلطف الكراهية، يا ابني الحبيب ديجافو، مزيداً من الكراهية؛ بل يلطف الكراهية، يا ابني الحبيب ديجافو، الحب». ثم أغمد الأمير سيفه في جرابه مرة أخرى.

وانتاب الملك حلماً مفزعاً وعندما أفاق أخبره ديجافو بالحقيقة وسامحه على قتله أبيه وأمه وأعطاه حياته. ثم أعاد الملك لديجافو مملكة أبيه وأعطاه ابنته ليتزوجها.

واختتم بوذا قائلاً: «الآن يا أيها الرهبان، إذا كان هذا هو كرم وسماحة الملوك الذين لديهم السلطة الملكية ويحملون السيف فمن الأولى لكم أيها الرهبان أن تدعوا نوركم يضيء لكل العالم بأنكم من اخترتم الحياة المقدسة

وفقاً للمذهب والنظام الذي تعملتموه جيداً وتكونون كرماء ومتسامحين»
(ماها فاجا، 5، 2.)

الداماباداً

يتـم التأكيد على نفس الدرس الـذي يحث على مقابلة الكراهية بالحب ومسامحـة الأذى وفعل الخير مـع كل الكائنات في داماباداً وهي عبارة عن سلسلـة من 423 مبـدأ أخلاقياً غير مسبوقين في العـالم لجمالهم وقيمتهم العظيمـة، ولا تتيح لنا المساحة في هذا الكتاب سوى اقتباس بعض الأمثلة القليلة:

«5. لا تتوقـف الكراهية بمزيد مـن الكراهية في أي وقت من الأوقات؛ تتوقف الكراهية فقط بالحب؛ تلك هي طبيعتها».

«51. كلماتـه كالزهور الجميلـة براقة الألوان ولكنهـا دون رائحة من كانت كلماته معسولة ولكنها غير مثمرة ولا يعمل بها».

«129. كل البشر يفزعون من العقاب وكل البشر يخشون الموت. تذكر أنك بشر مثلهم ولا تقتل ولا تتسبب في القتل».

«130. كل البشر يفزعون مـن العقاب وكل البشر يحبون الحياة. تذكر

بأنك مثلهم ولا تقتل ولا تتسبب في القتل».

«183. ألا ترتكب الخطيئة وأن تفعل الخير وأن تنقّي ذهنك، تلك هي تعاليم الأنبياء».

«197. فلننعم بحياة سعيدة ولا نكره من يكرهوننا، ولنعش بين من يكرهوننا خاليين في داخلنا من الكراهية».

«223. فليتغلب المرء على الغيظ بالحب وليتغلب على الشر بالخير، وليتغلب على الشحيح بالسخاء وعلى الكاذب بالحقيقة».

«232. من السهل رؤية أخطاء الآخرين ولكن من الصعب رؤية أخطاء الذات، فينتقي الرجل أخطاء جاره كما ينتقي القش، أما أخطاؤه فيخفيها، كما يخفي المحتال الزهرة السيئة من المقامر».

«260. لا يقال على المرء شيخاً لأن شعره أبيض. فقد يكبر عمره ولكنه عمر ضاع هباءً».

«261. إنما يقال شيخ على من تكمن فيه الحقيقة والحب والردع والاعتدال والذي يخلو من عدم النقاء ويتسم بالحكمة».

«393. لا يصبح المرء براهمان بتضفير شعره ولا بعائلته ولا بمولده، بل من تكمن فيه الحقيقة والصلاح هو من يبارك وهو من يكون براهماناً».

«394. مـا فائـدة الشعر المضفر، يـا أحمق، فما بالك بمـا يكسو جلد الماعـز؟ أنـت يا من تخفي بداخلـك الطمع وتبدي الكياسـة في الظاهر» (داماباداً).

نظام الرهبانية البوذي

من الخطـأ أن نفترض أن (جاوتاما) نصـح كل البشر باعتزال ممتلكاتهم وأعمالهـم في العـالم والتحول إلى رهبان، وعلى العكـس، فقد كان يكن نفس الاحترام لعامة الناس كما كانت القوانين الآرية القديمة تنظر للطلاب وأرباب البيوت، أي الرجال في المرحلة الأولى والثانية من الحياة الهندوسية المثاليـة، وقد وضع بعض القواعد الخاصـة لإرشاد وإنارة طريق أتباعه من عامـة الناس، ومن ناحية أخرى تقابـل الفئة المقدسة عنده المرحلتين الثالثة والرابعة من الحيـاة الهندوسية المثالية المعروفـة في القوانين الآرية القديمة. نصح بـوذا الرجـال الذين انضمـوا للفئة المقدسـة اعتزال العـالم والحياة الاجتماعية وكانت الفئة المقدسة هي أول نظام رهباني عرفنا به.

وعاش (جاوتاما) خمسة وأربعين عاماً بعـد أن أعلن ذلك الدين لأول مـرة ومما لا شك فيه أنه كان لديـه متسع من الوقت لتفصيل قواعد لتنظيم

سلـوك وحياة الرهبان والراهبات، ومن المؤكد أيضاً أنه تمت إضافة الكثير إلى هذه القواعد خلال القرون التي تلت وفاته وقبل أن يتم تدوين القواعد.

وتضاعفت الدور في أرجـاء الهند لمدة ألف سنة من وفاة البوذا وخلال القـرون قبل وبعد ميلاد المسيـح كانت هذه الدور مواقـع للتعلم ومراكز للتعليم القومي، وكون الرهبان هرماً من الكهنة وعاشوا حياة من العزوبية وأدوا الطقوس والخدمـات الدينيـة كمـا تنص عليهـا القواعـد حرفياً، وقدمـوا التعليمـات للشباب في البلـد ونشروا أنفسهـم في الأرض كلها لتلبيـة حاجات العامـة الدينية، وزار الحجاج والمسافـرون الصينيون هذه الـدور وقاموا بعمل نسخ مـن المخطوطات والأعمـال الدينية المحفوظة هنـاك والتي تتحدث بأفضل الطرق عـن الثقافة والتعليم في ذلك الوقت. والآن وقـد اختفت البوذية من الهند فإن حطـام الكنائس والدور البوذية مـن القرن الثالث أوالرابع قبل الميلاد حتى عـام 500 بعد الميلاد هي أقدم عينات موجودة حالياً من العمارة الهندية.

ذكرنا من قبل أنه بينما احتفظ عامة الناس بالفوارق الطائفية لم تكن هذه الفوارق معروفة بين الفئة المقدسة، حيث كان من الممكن للرجال والنساء أياً كانت طوائفهم أن يصبحوا رهباناً أو راهبات، ومن هنا كانوا متساوين

مع الرهبان والراهبات من العائلات الراقية. وهناك حكاية مؤثرة في أحد النصوص الدينية المقدسة عن كيف دخل (كناس فقير) إلى الفئة المقدسة وتدرج حتى أصبح من كبار الكنيسة البوذية.

يقول سونيتا الكبير «لقد جئت من عائلة متواضعة وكنت فقيراً ومحتاجاً، وكنت أؤدي عملاً وضيعاً وهو كنس الأزهار الذابلة. وكان يحتقرني الناس وينظرون إليّ بتعالٍ وبعدم تقدير، وبروح من الاستسلام أظهرت الاحترام للكثيرين، ثم رأيت بوذا وجماعة الرهبان التابعين له عندما مر البطل العظيم بأهم بلدة في ماجادا، ثم ألقيت همومي بعيداً وركضت لأخرّ أمامه احتراماً، ومن رأفته بي توقف، أعلى رجل بين الرجال، ثم انحنيت أمام قدمي السيد ونظرت إليه وتوسلت إليه، أعظم رجل بين الرجال، وترجيته أن يقبلني كراهب، ثم قال لي السيد الكريم: اقترب يا أيها الراهب. وكانت تلك هي البداية التي حصلت عليها» (ثيراجاثا).

كانت الشمولية والنفع للجميع في الديانة البوذية وجمال مبادئها غير المسبوق هو ما ضمن انتشار العقيدة الجديدة في كل الهند وبين الأمم التي بعدت كثيراً عن حدود الهند. ومما لا شك فيه أن النظام الرهباني -الذي جمع الرهبان سوياً كإخوان وكوحدة في العمل على نشر عقيدتهم

وكمجموعـات صغيرة متحـدة على هدف واحد مـن المعلمين والرجال المتعلمين في الأراضي الغريبة ووسط الأمم الغريبة- هو ما نشر الدين حول العالم الشرقي وحفظه في المعابد البعيدة والأماكن الظليلة عندما كانت الأمم تتحارب مع بعضها البعضـ وكانت الممالك والامبراطوريات تدفن تحت الأنقاضـ. وفي يومنا الحاضر وبعـد مرور أربعة وعشريـن قرناً على وفاة البوذا فإن دين الخير والتسامح والحب الذي أسسه يعتنقه الآن ثلث الجنس البشري.

الفصل الخامس

العصر البوذي

(315 ق. م. – 500 م)

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

العصر البوذي

سجلت وفاة الإسكندر الأكبر بداية حقبة جديدة في تاريخ الهند، وكان الحدث السياسي الأعظم في هذا العصر هو توحيد الهند كلها وتجميع شملها لأول مرة كإمبراطورية عظيمة بفضل ذكاء شاندراجوبتا، وكان الحدث الديني العظيم في هذا العصر هو أن الدين الذي أسسه جاوتاما -والذي كان يحرز تقدماً بطيئاً لمدة قرنين بين الفئات المتواضعة والفقيرة- اعتنقه حفيد شاندراجوبتا وأصبح -يمكن لنا القول- الدين القومي في الهند.

شاندراجوبتا

قابل شاندراجوبتا الإسكندر الأكبر في البنجاب، ومن الممكن أن تكون فتوحات الإسكندر العظيمة قد ملأت ذهنه بخطط طموحة مماثلة، وبعد انسحاب الإسكندر انتزع شاندراجوبتا عرش ماجادا من عائلة حاكمة ضعيفة وغزا شمال الهند بأكمله وطرد الإغريق من البنجاب، وبهذا جمع شمال الهند بأكمله في إمبراطورية موحدة. ووقع سلوقس معاهدة سلام مع الإمبراطور الهندي وأعطى له ابنته ليتزوجها، وعاش سفيراً عظيماً،

وهـو ميغاسثينس، في قصر شاندراجوبتـا في باتاليبوترا (أوباتنا) لعددٍ من السنـين وتُلقـي رواياته، المجمعة من اقتباسات وجـدت في أعمال كتاب رومانيين لاحقين، الكثير من الضوء على ظروف الهند في هذا العصر.

ويصـف ميغاسثينس باتاليبوترا على أنها بلدة مزدهرة، وهي على شكل متـوازي أضلاع يبلغ طوله تسعـة أميال وعرضه ميلـين، ويحدّها حائط خشبـي تتخلله ثغرات من أجـل إطلاق السهام ويحميهـا خندق. وكان للإمبراطور جيش ثابت يتكـون من 600.000 من المشاة و30.000 من الفرسان و9000 من الأفيال، (ومن هنا لنا أن نتخيل سعة إمكانياته).

ميغاسثينس في الحكم

من النادر أن تتوافر لدينا شهادة شاهد محايد على العصر فيما يخص الحياة والطباع والحكم الهندوسي القديم، ومن هنا تأتي القيمة والأهمية المتناهية بالنسبة للمؤرخين للروايات التي تركها لنا ميغاسثينس عن الهند في القرن الرابع قبل ميـلاد المسيح. وعن حكم باتاليبوتـرا، عاصمة الإمبراطورية، يتحدث ميغاسثينس ببعض الاستفاضة:

«ينقسـم من هم مسؤولـون عن المدينة إلى سـت مؤسسات تنقسم كل

واحدة منها إلى خمس. يهتم أعضاء الأولى بكل ما يتعلق بالفنون الصناعية، وأعضاء الثانية يهتمون بالترحيب بالأجانب، وتتكون الثالثة ممن يختصون في كيفية حدوث الولادات والوفيات ليس فقط بهدف تجميع الضرائب ولكن بهدف ألا تغيب تلك الولادات أو الوفيات عن مراقبة الحكومة. والرابعة هي المؤسسة المسؤولة عن التجارة والتربح. وأعضاؤها مسؤولون عن الأوزان والمقاييس ويشرفون على أن يتم بيع المنتجات في موسمها بواسطة إعلانات عامة، ولا يسمح لأي شخص بالتجارة في أكثر من سلعة إلا إذا دفع ضريبة مضاعفة، وتشرف الخامسة على الأشياء المصنعة. ويباع ما هو جديد بشكل منفصل عما هو قديم، وهناك غرامة تفرض على من يبيع الاثنين معاً. وتتكون السادسة والأخيرة ممن يجمعون عُشر الأسعار التي بيعت بها الأشياء». (1)

وخارج المدينة العاصمة كانت هناك مؤسسات من موظفين مسؤولين عن الزراعة وبشكل عام عن إدارة الشركة:

«وكان البعض مسؤولاً عن الأنهار وقياس الأراضي، كما هو الحال في

(1) ترجمة مايك كريندل (من اللغة الأصلية إلى الإنجليزية).

مصر، يتفحصون القنوات الصغيرة التي تمر منها المياه الخارجة من القنوات الرئيسية في فروع تلك القنوات الصغيرة، بحيث يكون لكل منها نصيب متساو من المياه، ونفس الأشخاص مسؤولون أيضاً عن الصيادين ومُخوّل لهم سلطة مكافأتهم أو معاقبتهم وفقاً لاستحقاقهم لذلك. وهم يجمعون الضرائب ويشرفون على المهن المرتبطة بالأرض، مثل: قاطعو الأخشاب والنجارون والحدادون وعمال المناجم. وينشؤون الطرق، وعند كل عشر قنوات صغيرة يقيمون عموداً لإظهار الطرق الجانبية والمسافات». [1]

وأما عن شعب الهند فيعطينا ميغاشينس شهادة رائعة:

«يعيشون حياة سعيدة إلى حد كبير نظراً لبساطة طباعهم واقتصادهم. فهم لا يشربون النبيذ أبداً إلا في الأضحيات. وشرابهم الأساسي هو شراب كحولي مصنوع من الأرز بدلاً من الشعير وطعامهم الأساسي هو حساء الأرز. ويثبت بساطة قوانينهم وعقودهم حقيقة عدم لجوئهم للقانون إلا في النادر. وليس لديهم قضايا متعلقة بالعهود والضمانات ولا يتطلبون من بعضهم البعض أختاماً أو شهوداً ولكنهم يعطون ضماناتهم

(1) نفس الترجمة السابقة.

ويثقـون في بعضهـم البعض.. والحقيقـة والفضيلة متساويـان في المكانة والتقدير عندهم».[1]

وفي النهايـة يكتـب ميغاسثينس في وصف رخاء الحيـاة بشكل عام في الهند قائلاً:

«وبالإضافـة إلى ذلك فإن معظم التربـة كانت تحت الري ونتيجة لذلك فكانت تنتج نوعين من المحصول سنوياً. وبالإضافة إلى الحبوب كان ينمو في كل الهنـد الكثير من حبات الدخن والـذي يُحافَظ باستمرار على ريه من خلال مجـاري النهر والكثير من الحبوب من الأنـواع المختلفة والأرز أيضاً وما يسمى بالبوسبوروم بالإضافة إلى نباتات عديدة أخرى تستخدم كطعـام والتي ينمو معظمهـا بشكل تلقائي. وتنتج التربـة أيضاً عدداً غير قليـل من المنتجات التي يمكن أكلها والتـي تناسب أيضاً إطعام الحيوانات، والتي قد يكون من الممل الكتابة عنها. وهذا يؤكد أن المجاعة لم تزر الهند يوماً، وأنه لم يكن هناك نقص عام في مخزون الأطعمة الغذائية يوماً».[2]

(1) ترجمة ماك كريندل.
(2) نفس الترجمة السابقة.

المجتمعات القروية والحكم الذاتي

وما يلي صورة سارة عن الرخاء العام عند أمة قديمة وزراعية بشكل أساسي تحت نظام إدارتهم الخاص، ومما لا شك فيه لم تكن الحروب والمنازعات بقليلة ولكن هذه الحروب كان يشنها جنود محترفون، ونادراً ما كانت تؤثر على السكان الذين اعتمدوا على الصناعة والزراعة. ويقول ميغاشينس، «كانت فئة المزارعين تعتبر فئة مقدسة وآمنة من أي اعتداء؛ فحتى عندما تكون الحرب مشتعلة في حيهم لا يُعطل حَرَثة الأرض أي إحساس بالخطر». وعاش الشعب في سلام في مجتمعاتهم القروية القديمة متحكمين في شؤون قراهم الخاصة ومتمتعين بالاستقلال الذاتي الكامل في إدارة قريتهم ومؤدين لممثل الملك الضريبة المقدرة على قريتهم. ووُجِدَت هذه المجتمعات المستقلة ذاتياً منذ فجر التاريخ حتى نهاية القرن الثامن عشر بعد ميلاد المسيح؛ ونجوا من مصير الأسر الحاكمة والإمبراطوريات، وهربوا من الخطر والدمار عندما تصارع القادة والأجناس المتنافسون على القوة الاستعمارية. وتتحدث قوانين مانو التي سنذكرها لاحقاً في هذا الفصل بتفاصيل أكبر عن سيد لكل قرية وعن سادة لعشر قرى وسادة لمائة قرية وسادة لألف قرية، وكان واجب هؤلاء السادة هو فرض الضرائب والحد من

الجريمة وحماية أهل القرية. ولم يتخطَ تحكم ممثل الملك ما تم ذكره، وعاشت الأمة في مؤسسات قروية تعتمد على الحكم الذاتي لآلاف السنين.

آشوكا الأكبر

خلف شاندراجوبتا على العرش ابنه بيندوسارا في حوالي 290 قبل الميلاد، ثم خلفه ابنه، آشوكا الشهير في حوالي 260 قبل الميلاد، وأضاف هذا الأمير البنغال وأوريسا للمملكة الشاسعة التي ورثها، وبهذه الفتوحات لم يقم آشوكا فقط بجمع شمال الهند بأكمله من السند إلى براهمابوترا تحت حكم واحد، ولكنه أيضاً مدّ ضوء الحضارة الآرية –التي كان الشمال تمتع بها لمدة خمسة عشر قرناً– لأقصى الشرق. ولذا فإن غزو آشوكا للبنغال يُعد حدثاً تاريخيّاً مهماً؛ فجلب منطقة البنغال المزدحمة بالسكان والخصبة وغير المتحضرة بشكل كبير لأول مرة داخل حدود الثقافة الآرية.

فعل آشوكا الأكبر للبوذية ما فعله قسطنطين العظيم للمسيحية، فقد اعتنق الديانة البوذية وجعلها الديانة الرسمية للدولة في إمبراطوريته العظيمة. ولحسن حظنا أنه ترك لنا مراسيمهم محفورة على الصخور والأعمدة في مناطق عديدة من الهند مما ألقى لنا بعض الضوء على عصره وأسلوب إداراته.

مراسيم آشوكا على الصخر

حُفِرت المراسيم على الصخور بعد ثلاثة أو أربعة عشر عاماً من تتويج آشوكا ملكاً. وتوجد نفس السلسلة من الأربعة عشر مرسوماً على الصخور في أجزاء متفرقة في الهند من السند حتى أوريسا:

حرّم المرسوم الأول ذبح الحيوانات، وحرم الثاني تقديم المساعدة الطبية للإنسان والحيوان، وحث الفرض الثالث على احتفال بوذي يدوم لخمسة أعوام، وأعلن الرابع عن التسامح الديني، وعيّن الخامس رجال الدين ورجال الدعوة، وعيّن السادس المعلمين الأخلاقيين لتنظيم حياة الشعب الاجتماعية والمنزلية، وأعلن السابع تسامحاً دينياً شاملاً، وشجع الثامن الأنشطة والاستمتاعات الدينية، ونصح التاسع بإعطاء التعليمات الدينية والأخلاقية، ومدح العاشر العظمة الحقيقية المبنية على نشر الدين الصحيح، ووصف الحادي عشر إعطاء التعاليم الدينية كأفضل عمل خيري، وأعلن الثاني عشر تمني الملك تحويل غير المؤمنين إلى البوذية بفضل الإقناع الأخلاقي، ويتحدث الثالث عشر عن فتوحات الملك في البنغال وعن معاهداته مع خمسة ملوك إغريق والذين أرسل لهم الملك أصحاب الدعوة البوذيين إلى بلادهم، ويلخص الرابع عشر المراسيم السابقة مع بعض التعليقات على حفر المراسيم.

الدعوة للبوذية في الغرب

من بين كل المراسيم المشار إليها باختصار فيما سبق كان المرسوم الثالث عشر هو أكثرهم أهمية من الناحية التاريخية، فهذا المرسوم الشهير يذكر خمسة ملوك إغريق عاصروا حكم آشوكا بالإضافة إلى شعوب جنوب الهند. ويسير النص كما يلي:

«ويوافق آنتيوكي ملك يافاناس مع جيرانه وغير آنتيوكي هناك أربعة ملوك آخرون وهم بطليموس وآنتيجوناس وماجاز وإسكندر وفي الجنوب بين الكوسالا والباندية وبعيداً حتى تمباباني وأيضاً الهيناراجا فيسمافاسي وبين الإغريق والكومباجا والناباكا والبولينداً؛ في كل مكان وافق هؤلاء على التعليمات الدينية لحبيب الآلهة (آشوكا). وهناك حيث ذهب رُسُل حبيب الآلهة سمع الناس عن واجبات الدين الذي يدعو إليه حبيب الآلهة ووافقوا على الدين».

ونعرف من خلال السجلات الإغريقية أنه في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح حكم آنتيوكس سوريا وحكم بطليموس مصر وحكم آنتيجوناس ماقدونيا وحكم ماجاس قورينا وحكم الإسكندر إبيروس، ويظهر مرسوم آشوكا أنه تم إرسال الدعاة البوذيين وأنه تمت الدعوة

للبوذيـة في هذه الأراضـي الغربية في القرن الثالث قبـل ميلاد المسيح. ولم تكـن جهود الرهبـان والدعـاة البوذيين دون فائـدة، واستمروا في جهودهـم ودعوا لمذاهبهم وقصصهـم الوعظية من جيل لجيل، وزادت أعـداد مجموعاتهـم، التي كانت تعيشـ حياة العزوبة، مـن عصر لعصر كلما تعلم الغرباء تعاليم الدين وانضموا إلى صفوفهم، وكانت مذاهبهم ومبادئهـم معروفة بشكل واسـع في فلسطين عندما ولد المسيح عيسى. ومـا يقوله بلينيوسعن الاسنيين (مجموعة مـن اليهود المنعزلين) في القرن الأول بعد ميـلاد المسيح يظهر لنا نتيجة العمـل البوذي خلال ثلاثمائة عام في سوريا:

«علـى الشاطـئ الغربي للبحر الميت ولكـن بعيداً عن البحـر، بعيداً بما يكفـي ليتفادى النسيم البغيض، عاش الاسنيـين وهم عشيرة ناسكة وهي ليسـ لها مثيـل في العالم وليس لديهم أية نسـاء ودون سعادة الحياة المنزلية ودون أيـة نقود وكانوا رفقاء النخيل. ويتجمـع حشود من الناس حولهم يوميـاً، رجال يلجؤون إليهم في أعداد كبـيرة تدفعهم إليهم متاعب الحياة ونوبات سوء الحظ في طريقة حياتهم. ولهذا، ورغم صعوبة تصديق ذلك، فإن مجتمعاتهم عاشت واستمرت خلال آلاف السنين.

مراسيم آشوكا على الأعمدة

كانت مراسيم آشوكا المحفورة على الأعمدة، في نهاية فترة حكمه تقريباً، أقل أهمية تاريخية، وكانت ثمانية مراسيم وهي:

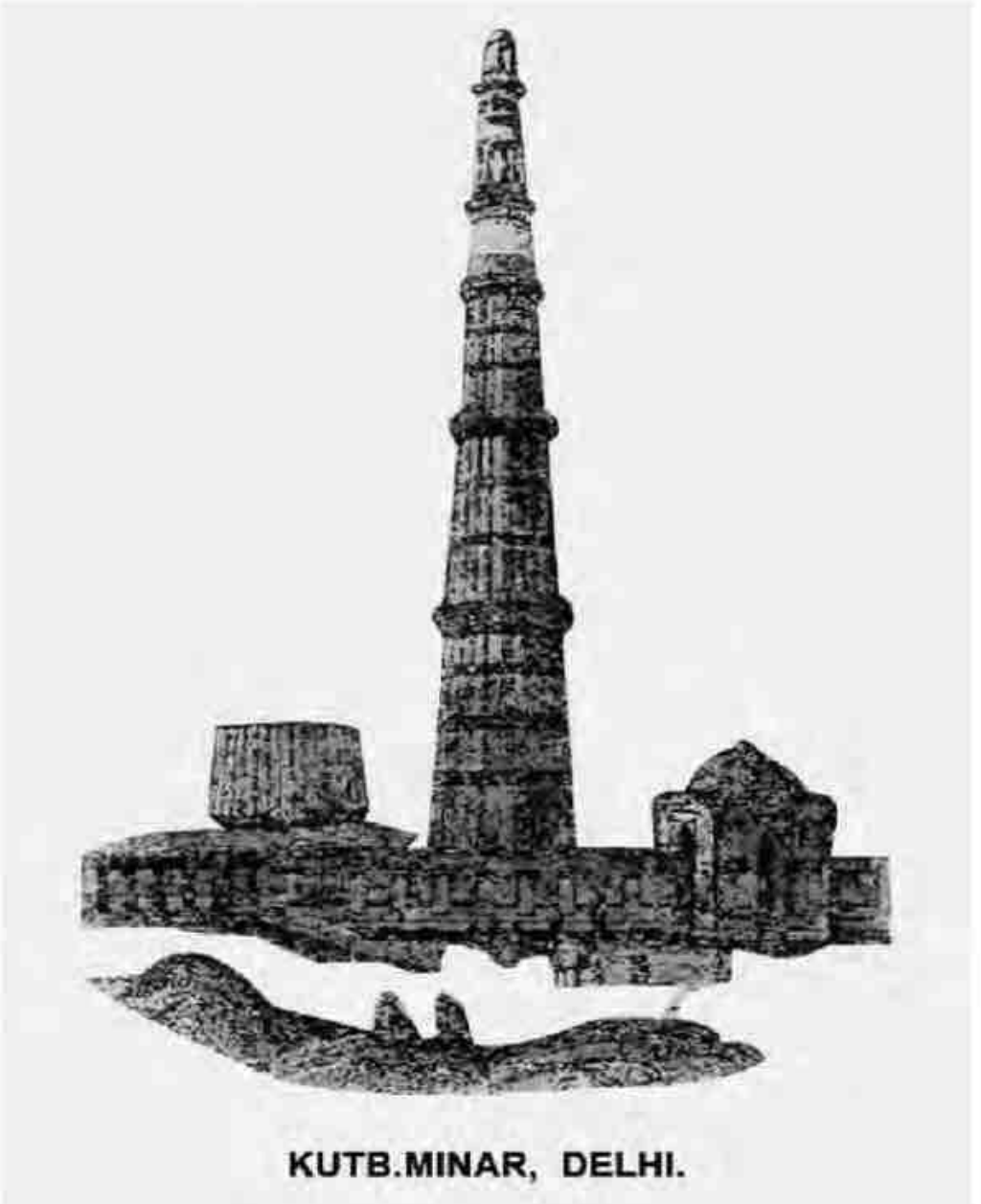

عامود آشوكا

حث المرسوم الأول رجال الدين على العمل بشغف وورع، وشرح الثاني الدين على أنه الرحمة والخير والحقيقة والنقاء، ونصح الثالث بمساءلة الذات وتجنب الخطايا، وفوّض الرابع توجيه التعليمات الدينية للشعب إلى فئة من الموظفين أُطلق عليهم راجوكا وحدد القوانين المتعلقة بالمساجين المحكوم عليهم بالإعدام، وحرّم الخامس قتل العديد من الحيوانات، وأعلن السادس حسن النية للشعب وتمني وجود الحوار بين كل فصائل المجتمع، وعبّر السابع عن أمنية أن تؤدي المراسيم والتعليمات الدينية بالناس إلى الطريق القويم، وأخيراً سرد الثامن أعمال الملك من الخدمات الشعب وإجراءاته من أجل تقدم الشعب الديني.

الخدمات العامة

يقول آشوكا: «لقد زرعت شجرات نایاجرودا بطول الطرق الرئيسية التي تربط البلدات ببعضها حتى يستظل بها البشر والحيوانات؛ وزرعت حدائق من المانجو وأمرت بحفر آبار على بُعد كل نصف كروسا وفي أماكن عديدة قمت بإنشاء بيوت للاستراحة

لكي ينام فيها البشر والحيوانات». وسُرّ الملوك الهندوس القدامى كثيراً بأعمال الخدمات العامة هذه، كما عَلِمنا من كتابات حفرية عديدة لملوك آخرين.

أباطرة آندرا

توفي آشوكا في عام 222 قبل الميلاد وانتهت الأسرة الحاكمة التي أسسها جده بحكم بعض الملوك الضعفاء خلال أربعين عاماً بعد وفاة آشوكا، وتبع هذه أسرتان حاكمتان قصيرتان، ثم جاء قائد قوي من آندرا وغزا مملكة ماجادا وبدأ أسرة حاكمة جديدة والتي حكمت من عام 26 قبل الميلاد وحتى عام 430 بعد الميلاد، وتفاوت نفوذ أباطرة آندرا من عصر لآخر؛ ففي بعض الأوقات كانوا القوى العظمى في الهند ومدّوا نفوذهم حتى الحدود البحرية الغربية، وقد فُقدت ساوراشترا (جوجرات) في القرن الأول بعد الميلاد ولكنها أُستردت في القرن الثاني. وبحلول القرن الرابع ضعف نفوذ الآندرا وجاءت أسرة حاكمة جديدة، جوبتا الشهيرة، وأصبحوا أباطرة الهند.

أباطرة جوبتا

بدأت أسرة جوبتا الحاكمة حقبة جديدة بدأت من عام 319 بعد الميلاد والتي يقال إنه أسسها شاندرا جوبتا الأول وهو الحاكم الثاني في هذه الأسرة. وخلفه بعدها سامودرا جوبتا والذي ترك لنا كتابات حفرية على أحد أعمدة آوسكا، والتي تشهد بنفوذه العظيم في القرن الرابع. ونعلم من هذه الكتابات أن شمال الهند بأكملها كانت تحت سيطرة سامودرا جوبتا، وأن الملوك في جنوب الهند كانوا تحت سيطرته، وأن الممالك الحدودية مثل البنغال وآساموني بال ومالوا دفعوا له الجزية. ثم خلف سامودرا جوبتا شاندرا جوبتا الثاني في أوائل القرن الخامس ولكن قبل نهاية ذلك القرن كان الغزاة الأجانب على أبواب الإمبراطورية وضعف نفوذ أسرة جوبتا.

الغزو الأجنبي.. الإغريق الباختريون

افتتح الإسكندر الأكبر باب الغزوات وحذت القوى الغربية التالية له حذوه باجتهاد كبير، وكان الباختريون الإغريق ذوي نفوذ كبير في القرن الثاني قبل الميلاد. وتكرر عبورهم للسند وغزوهم مناطق من البنجاب

ووصـل غزو أحدهم، وهو ميناندر، بعيداً حتى الغانج. ومما لا شك فيه أن الفن والتعليم الإغريقي كان له أكبر الأثر على الهند منذ ذلك العصر. فنجد المنحوتات الإغريقية مدفونة وسط الأنقاض البوذية، والكتابات الإغريقية مطبوعة على العمـلات الهندوسية وأشار علماء الفلك الإغريق إلى علماء الفلك الهنود.

الطورانيون (كانيشكا) ملوك الشاه

انتهـت المملكة الباختيرية قبل موعدها في عام 126 قبل الميلاد عندما غـزت قبائل اليو تشي والقبائـل الطورانية الأخرى وسـط آسيا. حكم هافيشـكا قبيلة يـو تشي هذه في كابـول وغزا كاشمير ومـد خلفاؤه، هاشـكا وكانيشكا الشهـير، نفوذ الأسرة الحاكمـة في القرن الأول بعد الميلاد.

كان كانيشكا فاتحـاً عظيماً وامتدت إمبراطوريته من كابول وياركاند حتى يومنا وغوجرات، وكان أيضاً بوذياً متديناً وبذل جهداً كبيراً لتثبيت النصوص الدينية للبوذيـة الشمالية، وقد أسس حقبـة ساكا التي بدأت مـن 78 بعد الميلاد والتي ما زالت إحـدى الحقبتين البارزتين في الهند،

وحكم ثلاثون ملكاً في كاشمير بعد كانيشكا ثم صعد ماتريجوبتا، صديق فيكرامادیتیا من أوجاين، على العرش في القرن السادس بعد الميلاد.

كان ساوراشترا، أوجوجرات، تحت سيطرة كانيشكا القوي ولكنه أصبح مستقلاً بعد وفاته، وحكم هذه المملكة صفاً طويلاً من سبعة وعشرين من الملوك من 120 إلى 388 بعد الميلاد، ويعرف هؤلاء الملوك بملوك الشاه في غوجرات، وتركوا لنا كتابات ذات قيمة تاريخية عظيمة، ونجد من خلال هذه الكتابات أن البوذية والهندوسية ازدهرا جنباً إلى جنب في ظل حكم هؤلاء الحكام، حكام غرب الهند، كما ازدهرت الديانتان دون نزاع في ظل حكم آندرا وجوبتا في شمال الهند والدكن. ومن أبرز هذه الكتابات هي تلك الخاصة برودرا دامان والتي يتحدث فيها عن جسر قام بإصلاحه، وقام أحد المهندسين التابعين لشاندرا جوبتا بترميم الممر المرتفع، كما تذكر الكتابات، ثم قام مسؤول إغريقي تابع لآشوكا الأكبر أيضاً بترميمه، وأخيراً قام رودرا دامان نفسه بإعادة بنائه. ويتفاخر في هذه الكتابة بأنه تغلب على قبائل آندرا في الدكن وقام بإنشاء تحالف معهم وقد

مدّ نفوذه حول ساوراشترا وكاش وأماكن أخرى.

الهون البيض

كان آخر حشد من الغزاة الذين اخترقوا الهند من الغرب في هذا العصر هم جمع من نفس قبائل الهون الذين عثوا في آسيا كلها ثم ضربوا أوروبا تحت حكم آتيلا المفزع، وتدفقت قبائل من هذا الشعب إلى الهند وهاجمت جوبتا ثم القوة المركزية في الهند، وأخذ توارمانا الذي لا يقهر شرق مالوا بالقوة من أسرة جوبتا الحاكمة في عام 466 بعد الميلاد وبدأ ابنه، ميهيرا كولا، فتوحاته في عام 515 قبل الميلاد، وانقطعت أسرة جوبتا من نفوذهم ودُمرت إمبراطوريتهم.

ملخص تاريخ العصر البوذي

مما يتضح لنا الآن أن فترة الثمانية قرون التي أطلقنا عليها العصر البوذي مليئة بالأحداث المثيرة، فقد شهد القرن الأول من هذا العصر الطويل جمع شمل إمبراطورية شمال الهند تحت سيطرة شاندرا جوبتا وقبول آشوكا الأكبر بالبوذية كديانة الدولة ونشر هذا الدين

علـى يد رهبانـه ودعاته حتى وصـل إلى سيـلان في الجنوب وحتى مقدونيـا ومصر وفلسطين في الغرب. ثـم يتغير المشهد وتختفي أسرة آشوكا الحاكمة وفي القرن الأول بعد الميلاد نرى آندرا العظيم يحكم ماجـادا وشمال الهنـد بينما أسـس كانيشكا أسـرة حاكمة قوية في كاشمـير. ويتغـير المشهد مرة أخرى ونرى القـوة العظمى في شمال الهنـد تتحول مـن أسرة آندرا إلى جوبتا في حـوالي القرن الرابع بينما هز جوجرات قوة خلفاء كانيشـكا، وتنافست إمبراطورية جوبتا في قوتهـا وعظمتها مع ملوك الشاه. وأخيراً نـرى المشهد الأخير ونرى قبائل الهون الوحشية تتوغل في الهند كما توغلوا في كل بلد متحضر في القـرن الخامـس وفي القرن السادس قامـوا بتشكيل مملكة خاصة بهم في البنجاب.

ولكـن موجات الغـزوات الأجنبيـة لم تضعف الأمـة الهندوسية ولا الحكـم الهندوسـي. فقد استقـر كل جنس جديد من الغـزاة من القرن الأول إلى القـرن الخامـس بعـد الميـلاد في الهند وقبلـوا بالهندوسية أو البوذية وبهذا اندمجوا مع وعملوا علـى تقوية اتحاد الأجناس الهندوسية في الهند القديمة.

العمارة والنحت واللوحات البوذية

توجد المعابد البوذية والكنائس والأديرة البوذية في أنحاء عديدة من الهند وهي أقدم عينات من العمارة الهندية الموجودة حتى الآن، وفي أماكن عديدة اختفت المعابد البوذية ولكن الأسوار حولهم بقيت موجودة وهذه الأسوار محفورة ومنحوتة بشكل مفصل.

وترجع أسوار معبد بوذا جايا ومزار بارهات إلى القرن الذي حكم فيه آشوكا الأكبر. «عندما أطلت علينا في شكل أسوار معبد بوذا جايا ومزار بارهات من عام 200 وحتى عام 250 قبل الميلاد كانت أصلية مائة بالمائة وليس بها أدنى شوائب أجنبية ولكنها قادرة تماماً على التعبير عن أفكارها وعلى أن تحكي القصص بدقة غير مسبوقة، على الأقل في الهند.. فليس هناك مثال أفضل في أي مكان على هذا النوع من الفن الصادق والهادف».[1] وفي بهيلسا، في وسط الهند ما زال يوجد حوالي خمسة وعشرين معبداً بوذياً وترجع الأسوار والمداخل التي تحيط بالمبنى الرئيسي للمعبد، والمعروفة بمعبد سانكي العظيم، إلى

(1) كتاب فرجاسون العمارة الهندية والشرقية.

القـرن الأول بعد الميلاد. وتمثل المنحوتـات الكثيرة على تلك المداخل مشاهـد من حيـاة بـوذا والأساطير البوذيـة وقصص الميـلاد وتكوّن صورة كاملة عن الكتاب المقدس في البوذية في القرن الأول في العصر المسيحي.

ونعود مرة أخرى للكايتيات أو الكنائس البوذية ومن الضروري القول مسبقاً بأنها ليست مبنية بـل محفورة في الصخر. ونعرف بوجود عشرين أو ثلاثـين كنيسة وباستثنـاء واحدة فإنها كلها محفـورة، وكانت الخريطة المبدئيـة لتلك الكنائسـ البوذية شبيهـة بالكنائس المسيحيـة في أوروبا؛ ولكـن بينما كان المظهر الخارجي للكنائسـ المسيحية هو أهم صفة مميزة وبـارزة فيهم، لم يكن للكنائسـ البوذية، لأنها كانـت كهوفاً محفورة في الصخور، شـكلاً خارجياً غير المقدمة التي كانت غالباً ما تكون مزخرفة بشكل كثيف.

وهناك كنائس بوذية عديدة محفورة في الهضاب في سلسلة جبال الجات الغربيـة وفي بيدزر وفي ناشيك في القرن الثالث والثاني قبل ميلاد المسيح. ولكننا نرى العينة المثالية لهذا النوع من العمارة عندما نأتي لكنيسة كارلي التي حُفرت في القرن الأول قبل الميلاد.

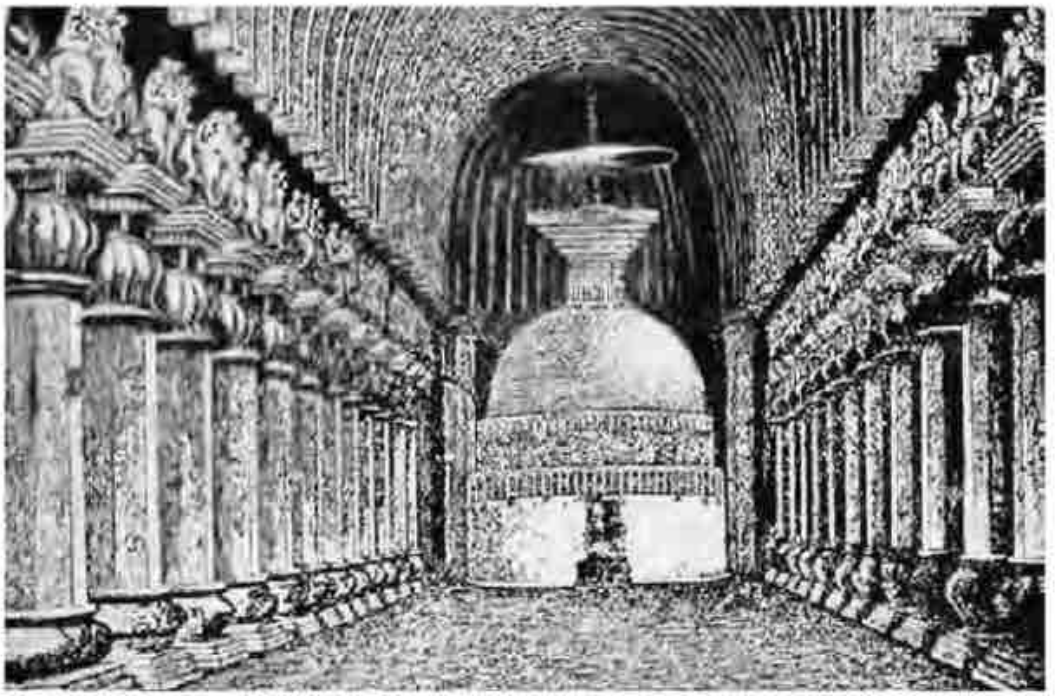

صورة كنيسة في كارلي

ويتكون المبنى من صحن الكنيسة وممرات جانبية وتنتهي بشكل نصف دائري أو نصف قبة وحولها يلتف الممر. ويبلغ طولها 126 قدماً من المدخل إلى الحائط الخلفي وعرضها 45 قدماً و7 إنشات. ويفصل خمسة عشر عموداً على كل جنب صحن الكنيسة عن الممرات وعلى كل عمود توجد صور لأفيال من أعلى وصور لأناس مُنفّذة بشكل رائع وفوق هذا يأتي السقف شبه الدائري ويُضيء الداخل كله حجم واحد غير منقسم من الضوء نابع من فتحة واحدة في الأعلى.

وأخيراً نأتي للفيهارات أو الأديرة البوذية والتي مثلها مثل الكنائس كانت محفورة وليست مبنية. وكانت كهوف أوريسا هي أقدم أمثلة للأديرة

البوذية التي ما زالت موجودة وبعضها مجرد حجرات منفردة في الصخور من أجل إقامة الرهبان المنفردين. وفي غرب الهند، قريباً لناشيك، لدينا أديرة حفرها ملوك الشاه في القرون التي تلت العصر المسيحي؛ ولكن أهم مثال حي للأديرة البوذية في الهند هي تلك التي في أجانتا، والتي حُفِرت بالإضافة إلى الكايتيات أو الكنائس في القرن الخامس بعد الميلاد.

ويصل قياس الكهف رقم 16 في أجانتا 65 قدماً طولاً وعرضاً وفيه عشرون عموداً. وفيه ست عشرة حجرة على جانبين وفيه صالة شاسعة في الوسط وشرفة في الأمام ومحراب في الخلف، وكل الحوائط مغطاة بلوحات جصية تمثل مشاهد من حياة بوذا أو من الأساطير البوذية. وتلك هي أقدم أمثلة من اللوحات الهندية الموجودة الآن ودون ادعاء الفن الراقي فهي لوحات معبرة وهادفة وجميلة.

القوانين الهندوسية وقانون مانو

سبق وأن قلنا من قبل إن البوذية والهندوسية ازدهرا جنباً إلى جنب في تناسق ودّي في معظم أنحاء الهند خلال هذا العصر، وتمسكت الطوائف العليا والرجال المتعلمون بشكل عام بامتيازاتهم القديمة بينما أُبعد العامة بعيداً عن طريق الاحتفالات والمواكب الفخمة البوذية والزيارات للأماكن

المقدسة الخاصة بالبوذية، ووجد فا هيان، وهو حاج ومسافر صيني شهير جاء إلى الهند في أوائل القرن الخامس، معابد هندوسية وأديرة بوذية في كل بلدة كبيرة في شمال الهند، ولم يسجل أي حدث عداوة أو اضطهاد، وشجعت كل الأسر الحاكمة في هذا العصر -أسر شاندراجوبتا وآندرا وجوبتا وملوك الشاه- رجال الدين من كلتا الديانتين ومنحوا الهدايا النفيسة من الأراضي والأملاك للرهبان البراهمان والبوذيين على حد سواء. ولكن بالرغم من ذلك من السهل تصور غيرة البراهمان.

صورة كنيسة في أجانتا

لـو شعروا بشـيء من الحقد تجاه العامـة من الناس التـي كانت تغريهم التجمعات العامة، ورحلات الحج المرحـة والمواكب الفخمة في البوذية. عبـد الجموع صـور بـوذا بشعائر عديـدة وجذبت المـزارات والأماكن المقدسـة البوذية الحجاج بعشرات الآلاف، وكان من الصعب مقاومة سير الأحـداث وتحولت الهندوسيـة ذاتها على هذه الطريقـة الشعبية وبدأت تتحـول إلى ديانة لعبادة الصور ورحلات الحج، وأُهمل تأدية الأضحيات الفيديـة، وناضل أنصار الديانة القديمة ضد هـذا التغير المعهود مع الوقت ولكـن دون جدوى، وإن الموقف الذي يأخـذه التشريع المعروف بقوانين مانو هـو بالضبط ضد هـذا التغير مـن الهندوسية القديمـة إلى الهندوسية الحديثة.

وترجع قوانـين مانو في شكلها الأصلي لعصر سابـق وشأنها شأن باقي التشريعـات فقد كانت في شـكل سوترا (ملخص ذو مغـزى تعليمي) أو موعظة، وفُقد العمل الأصلي والعمل الموجود الآن هو نسخة مأخوذة عنه ومكتوبة كشِعر، وجمعت على الأرجح في القرن الذي سبق أو تلا مباشرة العصر المسيحي. وفي شكله الحالي إذاً، هو يرجع إلى العصر البوذي وتشير محتوياته بشكل كافٍ إلى كونه يقع في نصف المسافة بين دارما سوترا الأقدم

في العصر الفلسفي ودارما سوترا الأحدث في العصر القصصي (البوراني) والتي سنتحدث عنها في الفصل القادم. وتختلف عن الأولى في كونها لا تنتمي إلى أية مدرسة فيدية محددة ولكنها لكل الآريين وتختلف عن الأخيرة في كونها تتجاهل الأساطير القصصية والهندوسية الحديثة ولكنها تُملي الطقوس والأضحيات الفيدية.

وينقسم تشريع مانو إلى اثني عشر كتاباً. ويتخصص الكتابان الأكبر (الثامن والتاسع) في القانون المدني والجنائي، والقوانين المدنية لمانو تعتبر هي أساس القانون الهندوسي، وتتحدث الكتب الأخرى عن الإدارة المدنية والعسكرية وعن الطقوس الدينية والاجتماعية وعن الواجبات المنزلية، وكل هذه الكتب مثيرة للاهتمام وتلقي بكثير من الضوء على الحياة والأخلاق الهندوسية القديمة.

ويتحدث مانو عن أربع مراحل في حياة الإنسان الآري المتدين ويضع الواجبات الخاصة بكل مرحلة. ويذكر القرابين المقدسة التي يجب على الآريين تأديتها ويتحدث باسترسال عن أشكال الزواج وقواعد الميراث. ويشدد في حث المرأة على الشرف والاحترام ومن ناحية أخرى يوضح بأن المرأة لا بد وأن تعتمد دائماً على الرجل وألا تسعى أبداً للانفصال

عن العائلة:

إن الشرف للمرأة المخلصة

يكافؤها عليه زوجها المحب

ويكافؤها أبوها وأخوها

إن كانوا يسعون لمكافأة الفضيلة

***

والشرف للمرأة الصالحة

يرضي الآلهة ذات القوة الصالحة

فأينما تكون المرأة غير شريفة

تكن الطقوس والأضحيات لا جدوى منها

***

وأينما تحزن المرأة وتذبل

يهلك الرجال أصحاب ذلك القدر

ولكن حيث يحافظ على المرأة في المنزل

يزدهر الرجال في قيمتهم وسموهم

(مانو، 3، من 55 إلى 57).

الفتاة الصالحة تطيع والدها

ويتحكم الزوج في الزوجة

ويتحكم الابن في الأم الأرملة

فلا تصبح حياة المرأة حرة أبداً

***

ولا تتحرر المرأة أبداً

من أبيها أو ابنها أو زوجها

لأن انفصالها برغبتها

يلطخ سمعة عائلة زوجها

***

مخلصة لزوجها المحب

وقديرة في واجبات البيت

ودائماً مرحة ودقيقة ومقتصدة

تلك هي الزوجة الصادقة الصالحة

(مانو، 5، من 148 إلى 150).

الفلك

من السهل تخيل التقدم الذي تحقق في هذا العصر الزاهر في مجال العلوم والفنـون. ولكن معظم الأعمال في هـذا العصر ظهرت في أشكال لاحقة في عصـور تاليـة ولذلك فهـي فُقدت بالنسبـة لنا في شكلهـا الأساسي. ويتحـدث الكتّـاب الهندوس عن ثمانية عشر سيدهانتـا، أو نظاماً فلكياً، ازدهرت في هذا العصر. وأقدم هذه الأنظمة هي أنظمة باراشارا وجارجا ويجب أن نذكرهم سريعاً.

باراشارا هو اسم قديم في الفلك الهندوسي، وهو يرتبط بتجميع التقويم الفيـدي ولكن العمـل باراشارا تانـترم، والذي يدعي بأنـه يحتوي على تعليماتـه، ينتمي إلى العصر البوذي. وهو مكتوب نثراً في أغلبه وفيه فصل كامل عن الجغرافيا والذي تمت إعادة نسخه مرة أخرى.

وجارجـا هـو أحد الكتـاب الهندوس القلـة الذين يخبروننـا شيئاً عن الغزو الإغريقي للهند في القرن الثـاني قبل الميلاد. ويكتب قائلاً، «اليافانا -الإغريـق الباختريـون- هـم همـج بربريون دخـلاء ولكن هـذا العلم (الفلـك) علـم راسخ عندهم». ويصـف جارجا كيف غـزا الإغريق أود وبانـكالا وماثورا وباتنا ثـم سقطوا ضحايا للنزاعـات الداخلية وخلفهم

الغـزاة الطورانيون، كل هذه الحقائق التـي يشير إليها جارجا تحدد الوقت الذي عاش فيه وهو القرن الأول قبل ميلاد المسيح.

أعـاد علماء الفلك الهندوس صياغة عمل آخر عن علم الفلك، معروف بسوريا سيدانتا، في العصر التالي وتُرجم إلى الإنجليزية. وهناك عمل رابع، مسمـى ببوليسـا سيدانتا، وهـو نسخة مأخوذة عن عمـل إغريقي، عمل خاصـ ببـاولاس أليكساندريناس على الأرجح، وأعيـدت صياغة عمل خامسـ معـروف ببراهمـا سيدانتا وإعـادة نسخه على يد علمـاء الفلك الهندوس في العصر التالي.

الطب والجراحة

تأسس علم الطب قديماً في الهنـد وكشفت الأبحاث الحديثة حقيقة أن المـادة الطبيـة (وهومصطلح يطلـق على المعلومات المجمعـة عن أي مادة تستخـدم في العلاج) الخاصة بالإغريق وحتى أبقـراط نفسه الملقب بأبي الطب كان مبنيـاً على المادة الطبية القديمة للهندوس[1]، وقد تقدم الطب

(1) كتاب د.رويل الطب الهندوسي في العصور القديمة؛ وكتاب د.وايز عرض لتاريخ الطب.

تقدماً هائلاً في العصر البوذي

ويرجع العمـلان الثابتان في الطب لشـاراكا وساسروتا إلى هذا العصر. وينقسـم عمل شاراكا إلى ثمانية أجزاء تصف الأمراض المختلفة وعلاجها ويتكـون عمل ساسروتا من ستـة أجزاء وتتحدث بشـكل متخصص عن الجراحة وعـن العمليات التي تعتبر صعبة حتـى في العصور الحديثة، وقد كانت عمليات كميائية عديدة معروفة لدى الهندوس وتم تحضير الأكاسيد والكبريتـات، وكذلك عُملـت تفاعلات للكبريت مع المعـادن المختلفة، ووصفـت المواد المعدنيـة داخلياً في الهنـد قبل أن يقتبسهـا العرب بفترة طويلة ويقومون بإدخالها إلى أوروبا في العصور الوسطى.

ويذكر أوائل الكتاب العرب الذين كتبوا عن الطب وهم ابن سرابي وابن الرازي وابن سينا، شاراكا بالاسم في أعمالهم وفي القرن الثامن بعد الميلاد استبقى هارون الرشيد طبيبين هندوسيين في حاشيته وكان اسمهما مانكا وصالح في السجلات العربية.

الفصل السادس

العصر البيوراني

(500 - 800 م)

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

فيكريماديتا الأكبر، القرن السادس

هجـر الغزاة الأجانب غـرب الهند في القرن الخامس والسادس حتى مجـيء أميرّ هندي عظيم، فمثـل فيكريماديتا الأكـبر للهندوس كمثل آلفرد العظيـم للشعب الإنجليزي، فطرد الغزاة الأجانب وأسس إمبراطورية قوية وأحيـا الأدب والعلم والفن. وكحقبة أدبية فقد كانت فترة حكمه من ألمع الفترات في التاريخ الهندي وكان كاليداسا مؤكداً هو أبرز شاعر في الهند وتلي مكانته مكانة كتاب الملحمتين القديمتين المجهولين. وفي العلوم أيضاً تلقي قافلة من الأسماء اللامعة بالضوء على فترة حكم فيكراما. وفي الدين يسجـل عصره الانتصار النهائـي للهندوسية الحديثة، ذلـك المنهج الديني الشعبـي والشامل الـذي حل محل البوذية ووحّـد الأمم الهندوسية من كل الطوائـف والطبقـات. وكأن الأسباب الحقيقية وراء مجـد فيكراما لم تكن كافيـة، فمـازال في الهند حتى يومنا هـذا روايات وأساطـير لا حصر لها تُعرّف اسمه للغني والفقير وللمتعلم والجاهل وللطبقات العليا والدنيا.

إن الأحـداث التاريخية المعروفة عن هذا الأمير العظيم قليلة جداً. فقد هـزم الغـزاة الأجانب، غالباً قبائـل الهون، في منطقـة كارور بين ملتان وقلعـة لوني، وأقـام عاصمته في أوجين في وسط الهنـد ولكن قوته كان

معترفـاً بها في شمـال الهند بأكملـه، ووضع صديقـه ماتريجوبتا على عرش كاشمير، وفضل الديانة الهندوسية ولكنه أبداً ما اضطهد البوذيين، ورعى الشعر والفنون والعلوم وقد أُحيط بمجموعة من الرجال المتميزين والذين ما زالوا يعرفون بـ(الجواهر التسعة) في بلاطه. وفي عصره تم إحياء مـا يبدو أنها كانت حقبة قديمـة في وسط الهند بدأت في حوالي عام 57 قبـل الميلاد ومنذ زمـن فيكراما وهي مرتبطة باسمـه وهي معروفة بعصر سامفات.

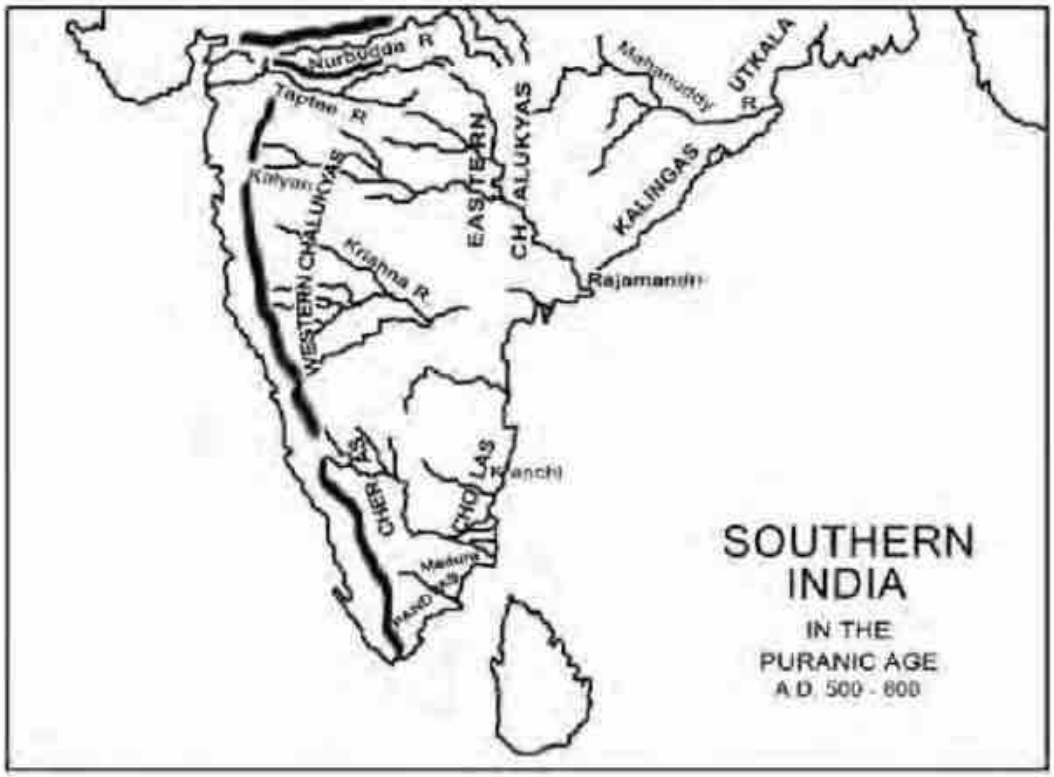

جنوب الهند في العصر البيوراني من عام 500 إلى 800 بعد الميلاد

سيلاديتيا الثاني، القرن السابع

تـولى سيلاديتيـا الأول الحكم في شمـال الهند بعد وفـاة فيكراما وبعد حكم ملكين ضعاف صعد سيلاديتيا الثاني على عرش قنوج عام 610 بعد الميـلاد واستمرت فترة حكمه لأربعين عاماً، وكان راعياً للآداب والفنون وهـو نفسه مؤلف تحت اسم هارشا، وكان محبـاً للبوذية ولكنه لم يضطهد البراهمان. وقد تـرك لنا حاج ومسافر صيني يدعى هاوين تسانج روايات عن احتفالات بوذية تقام في بلاطه كل خمس سنوات والتي كان يحضرها عشرون ملكاً يتم دعوتهم من أنحاء مختلفة من الهند.

ياسوفارمان ولاليتاديتيا، القرن الثامن

كان ياسوفارمـان ملكاً ضعيفاً حكم قنوج في القـرن الثامن وقد هزمه لاليتاديتيـا ملك كاشمير. وتلـك الحقيقة مهمة ومثـيرة للانتباه فقط فيما يتعلـق ببافابوتي وهوآخـر الشعراء العظماء في هذا العصـر اللامع، وكان بافابوتـي من سكان بـيرار وعاش كشاعر مبجل في قصـر الملك في قنوج عندمـا اندلعت الحرب. ولم يرَ ملك كشمـير غنيمة أعلى مكانة عند نصره مـن هذا الشاعـر العظيم، والذي أخـذه معه منتصـراً إلى كاشمير ليُشرّف

حاشيته. ولم يوجه ملك مدحاً أعلى مقاماً من ذلك إلى أي نابغة.

ينتهي العصر اللامع الذي بدأ بفيكريماديتا في القرن السادس إلى القرن الثامن وتلته قرون من الحروب والثورات ومن البؤس والجهل والذي كان موالياً للعصور المظلمة في أوروبا. وسوف نتحدث عن ذلك في الفصل القادم.

ظهور الهندوسية الحديثة

أشرنا في الفصل السابق بشكل موجز إلى التغيرات البطيئة التي مرت بها أشكال وطقوس الديانة الآرية القديمة كلما أصبحت أكثر وأكثر شعبية وتأثراً بالبوذية، وكان من الضروري أن تمر القواعد والطقوس، والتي كانت موضوعة للمستعمرات الآرية الصغيرة، التي عاشت وسط أمم شاسعة اعتنقت الهندوسية، بتغييرات حتى يمكن لها مقابلة متطلبات الشعب، وكانت البوذية هي نتيجة تلك الحاجة القائمة؛ فقد نشرت المذاهب العقائدية الآرية القديمة وجعلتها أكثر شعبية ولكنها رفضت الأضحيات والطقوس الفيدية الخاصة وأحلت محلها منهجاً من التهذيب الأخلاقي والمبادئ الأخلاقية التي يمكن لكل الهندوس والبشرية كلها التعلم منها

وممارستهـا. وبذلك كان الباب مفتوحاً علـى مصراعيه للأمة التي دخلت منه، وأصبحـت الهندوسية أكثر وأكثر شعبية في طقوسها ومظاهرها وفي رحلاتها الدينية واحتفالاتها. فتـم حفر الكنائس والمعابد وتمجيد الأولياء والآثـار المقدسة وتضاعفت الأساطـير والروايات وتم تقديس صورة بوذا في كل أنحـاء الهند بعد العصر المسيحي، وقد جاهـد الدين الآري القديم ضد كل هذه التحديثات دون جدوى، وحاولت قوانين مانو دون جدوى مساندة العقيدة والطقوس القديمة.

تأثـرت الهندوسية خـلال ألف سنة بالبوذية حتـى تبنت الهندوسية كل مـا جعل البوذية منتشرة بين الشعب وبهـذا انحدرت البوذية. ومن الخطأ أن نفترض أن البوذية قد اختفت مـن الهند بسبب الاضطهاد؛ ما عدا في حـالات نادرة عندما مارس الغزاة الوحشية والمذابح. لقد اختفت البوذية مـن الهند لأنها كانت قـد أدت رسالتها، فالهندوسيـة تبنت الاحتفالات الصاخبة والرحلات الدينية الواسعة، وتحولت إلى عبادة الصور والطقوس الشعبيـة، والهندوسيـة وحـدت الآريـين وغـير الآريـين الذيـن اعتنقوا الهندوسيـة في مجتمـع واحد متجانس، وبذلك اختفـت البوذية من الهند لأن مهمتها تحققت ولم تصبح ضرورية.

كوماريلا وسانكارا

يرتبط انحدار البوذية وإحياء الهندوسية باسمين مهمين. لقد عاش كوماريلا باهاتا في القرن السابع، وكتب نصاً تعليقياً على منهج ميمانسا الفلسفي، وكان ألدّ أعداء البوذية في عالم الجدل، فهو لم يقم فقط بتبرير الطقوس الفيدية ومحاربة البوذية، ولكنه أيضاً تعامل مع البوذيين باحترام ضئيل حتى عندما وافقوا على المذهب التقليدي، وخلفه في حوالي نهاية القرن الثامن سانكارا اكاريا الأكثر شهرة والذي يعتبر نصه التعليقي عن مذهب فيدانتا مرجعاً موثوقاً فيه حتى يومنا هذا، ودعم وعلّم المذهب القديم المتعلق بالروح الإلهية الكونية بدلاً من الآراء الأحدث والآراء المخالفة.

ولكن فيما يتعلق بالشعب فقد عاش وعمل كوماريلا وسانكرا دون جدوى، فلم يتمكنوا من إحياء الطقوس الفيدية القديمة ولكنهم استثنوا جموع الشعب واختفوا تحت تأثير هجمات بوذا المطالب بالمساواة، فسعد الشعب بالشكل الجديد للهندوسية الذي أدخل الشعب تحت طيته مما سمح لهم بنصيب في احتفالاته الصاخبة وعبادة الصور ورحلات الحج الشعبية، وانتصر كوماريلا وسانكارا على البوذية المتقهقرة، ولكن

جهودهـم كانت خائبة مثلما كانت جهود قوانين مانو ضد التيار الصاعد للهندوسيـة الجديـدة والـذي اصطبغ بالطقوس والاحتفـالات الشعبية المأخوذة عن البوذية.

المذاهب الرئيسية في الهندوسية القديمة والحديثة

مـن المهم أن نتذكـر أنـه في المذاهب الرئيسيـة لم تختلـف الهندوسية الجديدة عـن الدين القديم للأوبانشيدات، فكلاهمـا اعترف بإله واحد، الروح الموجودة في كل مكان، الروح الإلهية الكونية، وكلاهما يعتقد أن الكون ينبعث من الإله ويكمن فيه وسوف يعود فيه مرة أخرى. وكلاهما يعـرف الثواب والعقـاب في حياة أخـرى وفقاً لأعمالنـا في هذا العالم. وكلاهما يصر على امتصاص الإله لكل تلك الأرواح بعد عدد من تناسخ تلك الأرواح.

الطقوس والعادات في الهندوسية القديمة والحديثة

يكمن الاختلاف الشاسع بـين الهندوسية الحديثة والدين القديم في الطقوس والعادات والاعتقادات الشعبية، فقد أصر الدين الفيدي على

الأضحيات لقوى الطبيعة بينما ترسخ الهندوسية الحديثة الاعتقاد في القوة الثلاثية للإله الأعلى وهي الخلق والحفظ والتدمير وذلك معروف باسم الثلاثية الهندوسية تحت اسم براهما وفيشنو وسيفا، حيث أشادت الترانيم الفيدية بأعمال آلهة الطبيعة (إندرا وآجني وفارونا وسوريا والباقون) وتُضاعف الهندوسية الحديثة الخرافات والأساطير عن تلك الآلهة حتى كونوا منهجاً شاسعاً من الأساطير الشعبية، وبينما أصر الدين الفيدي على الأضحيات للنار كنوع من العبادة تتجه الهندوسية الحديثة لعبادة الصور والسعادة بالاحتفالات ورحلات الحج المتباهية.

البيورانات (النصوص الأدبية المقدسة)

إن الأعمال التي تشرح وتوضح الهندوسية الحديثة والتي من اسمها يأخذ هذا العصر اسمه هي الثماني عشرة بيورانا الضخمة والتي يقال إنها تحتوي على 400.000 بيت شعري، وعُرف نوع من الأعمال بالبيورانات في عصور ما قبل البوذية، وتكونت من تدوينات عن العصور القديمة، ولكن تلك حلت محلها منذ زمن بعيد الأعمال

الضخمة التي أمامنا الآن والتي هي نتيجة جهد قرون عديدة، على الأرجح من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر. وتتكون هذه من عدد لانهائي من الأساطير عن الملوك والأبطال القدامى ونبذات من التاريخ أو بالأحرى قوائم بالملوك في الأسر الحاكمة الشمسية والقمرية وإمبراطورية ماجادا وفصول طويلة عن علم نشأة الكون وعلم اللاهوت ووصف للأماكن المقدسة وأماكن الحج وروايات عن الآلهة الهندوسية الحديثة، ويُعترف ببراهما وفيشنو وسيفا على أنهم أشكال للإله الأعلى، ويملأ الجدال الطائفي حول الإلهين المذكورين أخيراً جزءاً كبيراً من هذه الأعمال الجديدة، ولأن سيفا وفيشنو أصبحا الآلهة المفضلة للهندوس في الآونة الأخيرة تضاعفت أعداد من يقدسون فيشنو ومن يقدسون سيفا عبر الهند، وعبدت أجيال من الشعراء الذين أضافوا للبيورانات من قرن لقرن أحد تلك الإلهين أو الآخر على أنه الإله الأعلى. ولم يغب يوماً عن العقل الشعبي الاعتراف الذي تتضمنه الهندوسية بوجود قوة عليا واحدة، وتميزت عبادة الطوائف العديدة المتجادلة لسيفا وفيشنو بإخلاص وحب شغوف لإله واحد وهذه هي حقاً عبادة الهندوسية لإله واحد، وسيطرت هذه الفكرة على العبادة الشعبية وتميزت بها كل حركة

دينية في العصور الحديثة كما سنرى لاحقاً.

دارما ساستراس

خلف التشريعات القانونية القديمة وقوانين مانو عدد من الأعمال الأخرى والتي كانت غالباً مأخوذة عن تشريعات أكثر قدماً ولكن تمت إعادة صياغتها لتلائم العادات المتغيرة للعصر اللاحق. وتعرف هذه الأعمال باسم دارما ساستراس وتم تعديل الكثير منها على ما يبدو في القرون الحديثة بعد الفتوحات الإسلامية للهند، وحل محل الطقوس والأضحيات الفيدية في هذه الأعمال أشكال العبادة الحديثة، وتبلورت كل تجارة أو مهنة منفصلة في طائفة منفصلة.

العمارة والنحت الهندوسي

هناك عدد قليل جداً من نماذج العمارة البوذية الخالصة بتاريخ أحدث من القرن الخامس بينما أحدث نموذج نجده من العمارة الهندوسية يرجع إلى القرن السادس، ويؤكد لنا بذلك تاريخ العمارة الهندية التقسيم الذي أقمناه بين العصرين البوذي والبيوراني.

ويذكر د.فيرجاسون ثلاثة طرازات للعمارة الهندوسية، وللطراز الهندي الشمالي بعض الصفات المحددة والمميزة، وتتكون المعابد بشكل عام من برج عالٍ ذو زوايا منحنية وصالة مغطاة بسقف مخروطي، وتعتبر معابد بوبانيسوار العديدة في أوريسا والمبنية من الحجر هي أفضل وأنقى نماذج من هذا الطراز وأبرز تلك المعابد هو المعبد العظيم في بوبانيسوار. ويبلغ ارتفاع البرج 180 قدماً ويغطي المعبد من الخارج بنحوتات وزخارف طائلة والتي من المقدر أن تبلغ تكلفتها ثلاثة أضعاف بناء المبنى ذاته. وبُذل جهد لانهائي على كل من تفاصيل تلك الزخارف والنحوتات منظمة ومنمقة وتصميمها غاية في الجمال وتأثير ذلك كله رائع جداً.

وبعيداً عن بوبانيسوار بأميال قليلة يوجد (المعبد البوذي الأسود) والذي يمكن رؤيته من البحر من خلال البواخر المارة بالشاطئ وهو أيضاً مدخل لمعبد هائل أصبح هو ذاته حطاماً. ويقف الرواق شامخاً ومنعزلاً في منطقة مفتوحة منتشر حولها الأنقاض من كل جانب، وهي من بين أروع المباني من الماضي التي يمكن للهند أو أي بلد آخر التباهي بها، فخارجه مزخرف بتنوع لانهائي على أوجهه الاثني عشر والأعمال النحتية منمقة على أفضل شكل يمكن أن نراه في أي من أنحاء الهند.

صورة المعبد العظيم في بوبانيسوار

ويُقال إن (المعبد البوذي الأسود) يرجع إلى القرن التاسع، وعندما نقارن هذا بالمعبد العظيم في بيوري والمبني في القرن الثاني عشر نلاحظ

على الفور انحـدار العمارة الهندوسية خلال هذه الفترة. فلمعبد بيوري، والـذي يعتبر أعظم مـكان للحج في شمال الهنـد في يومنا الحاضر، برج يبلـغ ارتفاعه 192 قدماً ولكن مظهره الخارجي وتفاصيله توحي بانحدار الفن.

وعندما نبتعد عن أوريسا متجهين نحو الأماكن المقدسة في شمال الهند، مثل بسنارس أو ماتورا نجد فقط المعابد الجديدة والتي أُنشئت في القرنين أو الثلاثـة الماضيين. كان شمال الهند بأكملـه من البنجاب وحتى البنغال تحت سيطرة المسلمين من القرن الثاني عشر وحتى القرن الثامن عشر، وقد عاشت نماذج قليلة من العمارة القديمة.

وتعتبر معابد إلورا ذات الشهرة الواسعة، والمحفورة من الصخر الصلب والتي تعتبر إحدى عجائب الدنيـا، نموذجاً جيداً للطراز الهندي الجنوبي. لقد تم بناء أحد تلك المعابد، وهو معبد كايلاسا، في القرن الثامن أو التاسع وهو مبهر في عظمته وقوة بنائه، وتم حفر هوة شاسعة بقياس 270 قدماً في 150 قدماً في الصخر الصلب وفي وسطها يقع المعبد وبه برج عال ورواق مسقـوف يستند علـى ستة عشر عموداً ورواقاً منفصـلاً وبوابة، وكل هذا ليس مبنياً ولكنه محفور في الصخر الصلب والذي أُزيل من حول المباني.

وعندما نبتعد أكثر ونتجه نحو الجنوب نجد مجموعات عديدة من المعابد العظيمة والهائلة ولكن كلها ترجع لأعوام جديدة نسبياً فتم بناؤها خلال الخمسة قرون الماضية. ولهذه الفصيلة تنتمي معابد تانجور وتشيلامباروم ومادورا وسيرينجهام وراميزوارام وكونجيفيرام العظيمة وحتى فيجاياناجار. ولم يتم القضاء نهائياً على الحكم الهندوسي في جنوب الهند، واستمر تأسيس المباني العظيمة حتى القرن الماضي عندما تصارع الإنجليز والفرنسيون على التحكم في كارناتك.

والطراز الثالث هو ما يمكن أن نطلق عليه طراز الدكن والذي تأخذ فيه قواعد المعابد أشكالاً هندسية أو شكل نجم. ويعتبر معبد كايت إسوار أو الثلاث مجموعات من المعابد المبنية في فترة حكم عائلة بالالا الحاكمة بين القرن الحادي عشر والثالث عشر هي أفضل نماذج من هذا الطراز. ويشير د.فيرجاسون إلى أحد تلك المعابد، وهو معبد هولابيد، ببعض التعليقات الرائعة عن العمارة الإغريقية والهندية والتي أضعها الآن أمام القراء:

«كل أعمدة البارثينون متماثلة بينما لا يتشابه وجهان لمعبد هندي واحد، فكل زاوية في كل زخرف مختلفة، ولا تتشابه قبتان في المبنى كله ويعرض

كل جزء موجة مرحة من الخيال ويضرب بكل العوائق الآلية عرض الحائط. وكل ما هو حيوي في العقيدة الإنسانية أو دافئ في المشاعر الإنسانية نجده مُجسّداً على هذه الحوائط ولكن عن الفكر المطلق نجد القليل جداً، أقل مما يوجد في البارثينون عن المشاعر الإنسانية. ومن أجل هدفنا، فإن القيمة العظيمة لدراسة هذه النماذج الهندية هي أنها توّسع كثيراً معاييرنا عن النقد المعماري، فيمكن لنا رؤية مدى ضيق المنظور الذي يكتفي بشكل واحد من الطراز القديم فقط عندما نتعرّف على أشكال مختلفة تماماً عن تلك المألوفة لدينا حتى الآن، وبالصعود لهذا المجال الأوسع يمكن لنا رؤية أن العمارة متعددة الجوانب تماماً مثل الطبيعة البشرية ذاتها ويمكن لنا أن نتعلم كم هي قليلة تلك المشاعر والآماني القلبية والعقلية للإنسان التي لا يستطيع هذا الفن التعبير عنها». [1]

علم الفلك

حظي هذا العلم القديم بتشجيع كبير في عصر فيكر اماديتيا، ويرجع

(1) العمارة الهندية والشرقية.

تاريـخ ثلاثة من ألمع الأسماء في علم الفلك الهندوسي إلى القرن السادس والسابـع. ولد أرياباتا في باتاليبوترا (باتنا) في عام 476 بعد الميلاد، وقام بتأليف عمل يعرف باسمـه، وعرض نظرية دوران الأرض حول محورها ويشرح السبب الحقيقي وراء كسوف الشمس وخسوف القمر، وفي هذا العمـل الخاص به نجد أيضاً أسماء علامـات دائرة البروج الشمسية الاثنتا عشـرة. وكان علمـاء الفلك الهندوس القدامى حـددوا علامات دائرة الـبروج القمرية السبع وعشرين مجموعة نجميـة على مدار القمر وبالنسبة لعلامـات دائرة الـبروج الشمسية فهـي بدون شك ترجـع للملاحظين الغربيين.

ولد فاراها ميهـيرا في حوالي عام 505 بعد الميلاد وكان أحد (الجواهر التسعـة) في بلاط فيكراماديتيا، وجمّع وأعـاد صياغة الخمس سيدانتات القديمـة والتي ذكرناها في الفصـل السابق، وألّف أيضـاً عملاً موسوعياً يعرف باسم بريهـات سانهيتا ويتكون من 106 فصـول. وبالإضافة إلى علـم الفلك الخالص فإنها تتكلم عـن الأمطار والريـاح والزلازل وعن العمارة وبناء المعابد وعن الأحجار النفيسة والحيوانات ومواضيع أخرى عديدة.

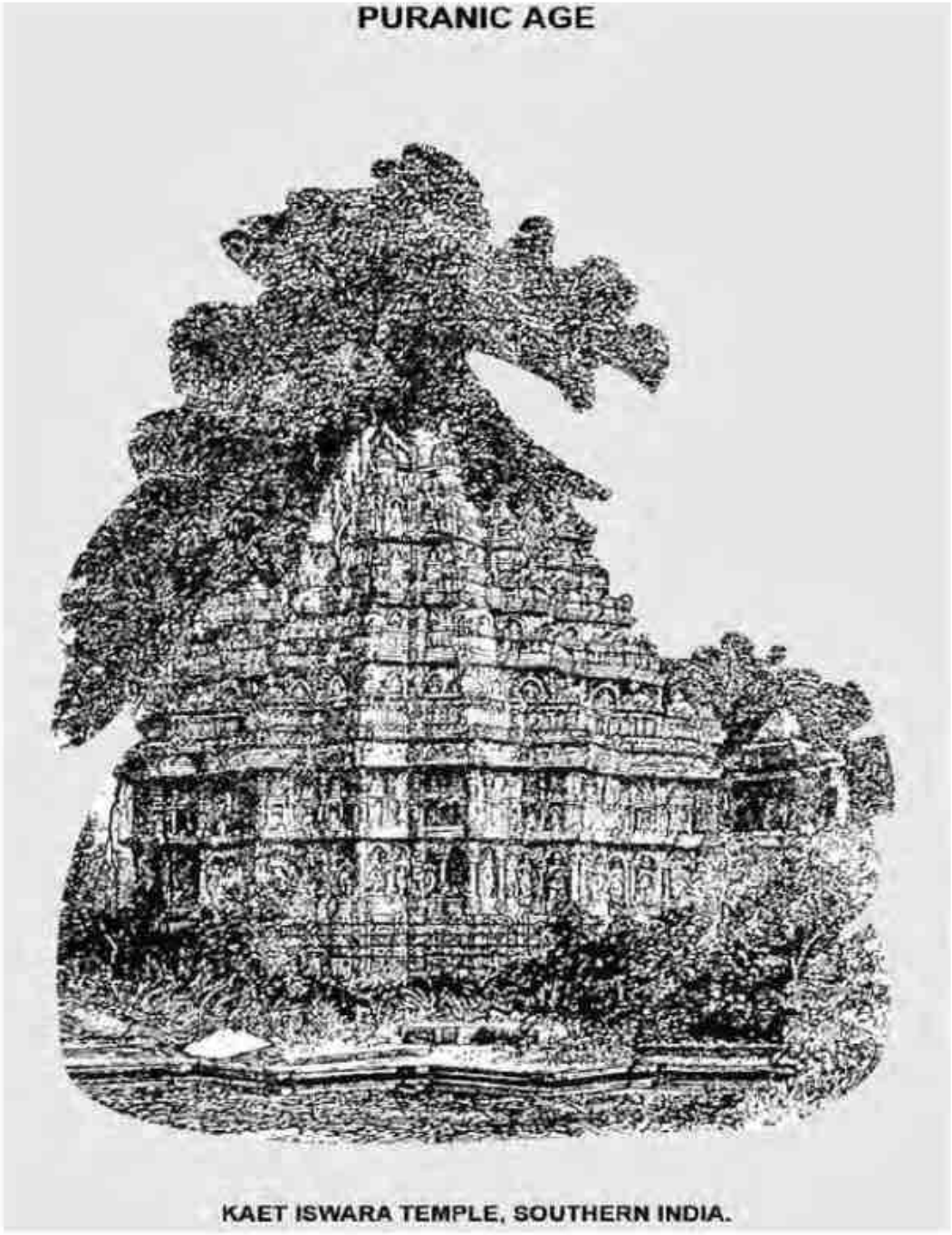

معبد كايت إسوارا في جنوب الهند

كان عالم الفلك الثالث في هذا العصر هو براهماجوبتا والذي ألف عمله في عـام 628 بعد الميلاد. ويتكـون هذا العمل من واحـد وعشرين فصلاً

والتـي تتكون العشـرة الأوائل منها مـن نظامه الفلكـي. والعشرة فصول الأخرى هي فصول مكملة والفصل الأخير هو مقالة عن الهندسة الكروية.

المسرحيات والشعر والقصص

يمتلك كاليداسا وهو أحد (الجواهر التسعة) في بلاط فيكراماديتيا شهرة عالمية، وتُرجمـت مسرحيته الخالدة (ساكونتـالا) إلى الإنجليزية في القرن الماضـي، وجذبـت انتبـاه العلماء الأوروبيـين لأول مرة إلى ثـراء وروعة الأدب السانسكريتـي القديم، ولهذه الترجمة لسير ويليام جونز إذاً أهمية تاريخيـة، وتسجل بدايـة البحوث الأوروبية في التاريـخ الهندي القديم. وتصـف المسرحيـة حب أمـير أسطوري لفتـاة من الغابة مولـودة لحورية والنضـارة والعذوبة والشجن الذي تتميز به المسرحية نادراً ما نجد له مثيلاً في أي تعبير آخر للخيال الإنساني. وتصف أول مقابلة للأمير مع فتاة الغابة البسيطـة بشكل رائع حيث يتبع الحب زواجاً سرياً وفي النهاية عندما تترك الفتاة بيتها الريفي لتذهب إلى زوجها الأمير يصبح المشهد مؤثراً للغاية.

«كانـا: اسمعن أيتها الأشجار في هذه الغابـة المقدسة، يا أيتها الأشجار التي تسكن فيها آلهة الغابات، اسمعن واعلنّ بأن ساكونتالا سوف تذهب

إلى قصر سيدها وزوجها؛ تلك التي لم تشرب رغم ظمئها إلا بعد أن تشربن أيتهـا الآلهة وتلك التي لم تقطف بسبب حبها لكنّ أياً من أوراقكن النضرة رغـم أنها كانـت ستسعد بتلك الأوراق كزينة لشعرهـا؛ تلك التي كانت سعادتها الخالصة في الفصل الذي تُزينّ فيه الأزهار الأشجار!

كورَس مـن حوريات الغابة غير المرئيـة: فليكن طريقها مليئـاً بالنعيم! فلينـثر النسيم الجميل من أجل سعادتها غبار الأزهار الجميلة ذات الرائحة القوية! ولتنعشها بحار من المياه الصافية الخضراء بلون أوراق اللوتس وهي تمشي في طريقها! ولتحميها الأغصان الظليلة من أشعة الشمس الحارقة!

ساكونتالا: آه! ما هذا الذي يتمسك بذيل ثوبي ويمنعني عن الحركة؟

كانـا: إنه طفلك الذي تبنيتيه، الخشف الصغير الذي دائماً ما غطت فمه الـذي جرحته الأطراف الحـادة لحشائش كوسا يـدك وبها زيت إنجودي الشافي والذي كثـيراً ما أطعمتيه بيديك الممتلئة بحشائش سياماكا والذي لن يبعد عن خطوات حاميته.

ساكونتـالا: لماذا تبكي أيها الخشـف الرقيق من أجلي وأنا مضطرة لترك مـكان معيشتنا المألـوف؟ فكما رعيتك أنـا عندما فقـدت والدتك التي توفيت بعد ولادتك مباشـرة، سوف يرعاك أبي بالتبني (كانا) بعناية فائقة

عندما نفترق. ارجع أيها الكائن المسكين، ارجع فلابد لنا أن نفترق.

[وتجهش في البكاء]

كانا: تعالي يا ابنتي الحبيبة وعانقيني عناق الوداع أنا ورفاقك الأحباء.

ساكونتالا: هل يتعين على أنوسويا وبريامفادا الرجوع إلى الدير؟

كانا: لا بـد لهن أيضاً أن يتزوجن بطريقة صحيحة ولا يجب عليهن أن يزرن المدينة ولكن جاوتامي سيصطحبك إلى هناك.

ساكونتالا [وهي تعانقه] : كيف لي أن أعيش في أرض غريبة وقد انتُزعت من أحضان أبي كشجرة الصندل الصغيرة التي اقتُلعت من تلال المالايا».

(ترجمة إلى الإنجليزية، سير ويليام جونز)

وبالإضافـة إلى ساكونتـالا لا تزال هنـاك مسرحيتـان لكاليداسا وهما فيكرامـا وأورفاشي والأخرى هي مالافيكا واجنيمـيرا. ويحتل هو أيضاً أعلى مكانة بين شعراء هذا العصر في الشعر الوصفي والقصصي، فقصيدته السحاب الرسول هي قصيدة وصفية فريدة في ثراء وصفها وألحان شعرها. وتصف قصيدة فترة حكم راغو تاريخ الملوك في العائلة الشمسية. وتصف ميلاد إله الحرب حب الإله سيفا للجبل الفتاة أوما.

خلـف كاليداسـا بهارافي، والذي كتـب قصيدته المفعمـة بالحيوية عن كيراتا وأرجونا، وهي المقابلة بين سيفا متخفياً كرجل غابة وأرجونا، وهي حلقة من الملحمة الهندية القديمة ماها-بهاراتا.

وفي القـرن السابع شارك سيلاديتيا الثاني نفسه كشاعر تحت اسم هارشا وتنسـب مسرحية هائلة وهي راتنافلي إليـه. وينسب إلى ذلك العصر أيضاً ثلاثة أعمـال قصصية عظيمة أخرى. فألّف دانـدن مغامرات عشرة أمراء وألّف بانا عمله الخالد كادامفاري وألّف سوباندو عمله فاسافاداتا. وترجع مجموعـة من القصص معروفة باسم بانكاتانترا إلى قرن سابق وتُرجمت إلى كل لغة أدبية في آسيا وأوروبا تحت اسم أساطير بيلبي.

ويفخـر القرن الثامـن بكاتب واحد منافس لكاليداسـا نفسه. فقد ولد بافابوتـي، كما ذكرنا من قبـل، في بيرار وترعرع في بلاط الملك في قنوج وبعـد ذلك أسرة لاليتاديتيا وأخذه إلى كاشمير، وترك لنا ثلاث مسرحيات والتي وإن كانت أقل جمالاً وعذوبة من مسرحيات كاليداسا إلا أنها تتفوق عليهـا في عمق مشاعرها. ويعد عملـه مالاتي ومادافا عملاً فائق الروعة، وتعتـبر بداية حياة راما أقل أهمية ولكن آخر أعوام راما تعتبر الأكثر شهرة في الهند مـن بين كل أعماله. والحبكة مأخوذة عن رامايانا ولكن الشجن

وجمـال العمل غير مسبوقـين في أي عمل آخر كُتـب في الهند. ويسري حب راما الرقيق لسيتا وحزنه المرير بعد نفيها في العمل في عذوبة صافية:

«راما: فليكن ذراعي وسادة لكِ

لكِ منذ اللحظة الأولى التي جمعنا فيها زواجنا

لكِ في الطفولة وفي الشباب

بين الشجيرات المتواضعة وفي القصور الملكية

لكِ، لكِ للأبد.

سيتا: نعم، نعم، يا سيدي العطوف والمحبوب.

[تنام سيتا]

راما: كلماتها الأخيرة وهي متيقظة هي كلمات حب،

وكل ما فيها عزيز لدي

فوجودها كفاكهة الخلود بالنسبة لي وذراعاها المحبان

يلتفان حول رقبتي أغلى بكثير

من أنفس الجواهر وفي بيتي تحكم هي

كالآلهة الحارسة لشهرتي وثروتي».

(ترجمة من اللغة الأصلية إلى الإنجليزية، هـ. هـ. ويلسون).

وتستحق مسرحية أخرى الذكر وهي مسرحية العربة اللعبة لتأثيرها القوي ووصفها الواقعي لأوجين القديمة. وتنتهي الحقبة الكلاسيكية في الأدب والعلم السانسكريتي مع القرن الثامن وبعد ذلك لا نجد أي أسماء بارزة خلال القرون من النزاعات والمصاعب الداخلية التي تلت. وتختفي الأسر الحاكمة القديمة والضعيفة في شمال الهند من ساحة التاريخ، وفي وسط الحروب والثورات ظهرت أمة جديدة وقوية وهم قبائل راجبوت وأصبحوا أسياد الهند.

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل السابع

عصر سيادة الراجبوت

(800 – 1200 م)

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

العصور المظلمة

لم يكن للهند أي تاريخ يذكر لعدة قرون بعد عصر بافابوتي وسانكرا–أكاريا اللامع. وليس لدينا أي أنباء عن ملوك عظام أو أسر حاكمة أو ممالك عظيمة. ولم يُترك لنا أي أعمال فنية أو معمارية بارزة. ولم نعرف أي أسماء لامعة في العلوم أو الأدب، وقد خيّم ظلام دامس وطويل خلال تلك القرون على شمال الهند.

الراجبوت

ولكـن يمكننا إلى حد ما تتبُّع السير الأساسي للأحداث، فقد لقيَ شمال الهند نفس المصير الذي واجهه غرب أوروبا في نفس الفترة تقريباً، وأُطيح بنفـوذ الأمم القديمة والضعيفـة وصعدت أمم جديدة وقويـة لتحل محلهم، وقلـب الراجبوت (وهـم أمة ادعت نسبهم لملـوك بالابي في جوجرات) الحكم في الممالك وأخضعوا الأمم القديمة واحتلوا العرش فيها، كما غزت الأمم الألمانيـة الآتية مـن الغابات الشمالية كل مملكـة في غرب أوروبا من الرومـان الضعفاء. وكان ذلك بمثابة ثورة سياسية وعرقية في شمال الهند، فكان ذلك انحداراً لحضارة قديمة وفجر ترتيب جديد للأحداث.

يسـير التـوازي على مستوى آخر فقـد تصارع قادة أوروبا الجـدد مع أمة من

الفاتحين أطلقها صوت النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- في آسيا وأفريقيا وأوروبا، واستسلمت إسبانيا للمسلمين، وانتصر تشارلز مارتيل فرنسا، ومن القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر كانت فلسطين هي موقع الصراع، وكان على أسياد الهند الشمالية الجدد التصارع مع نفس القوة العظمى؛ فقد غزا محمد قاسم الهند في الوقت الذي كان فيه أتباعه المسلمون يجاهدون في إسبانيا وفرنسا وقاوم بريثوراي دون جدوى للدفاع عن ديلهي وشمال الهند من محمد غوري في ذات الوقت الذي كان فيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد يحاولون فيه دون جدوى انتزاع الأرض المقدسة من يد صلاح الدين العظيم.

محمد قاسم

حدث غزو محمد قاسم في عام 711، وكان الهندوس قد اختطفوا سفينة عربية في ميناء ديوال ورفض ظاهر الراجبوتي تسليمها، وبذلك أُرسل محمد قاسم ضده واخترق الهند حتى وصل لآلور عاصمة السند وقتل ظاهر في معركة طاحنة، وتم فتح مُلتان وكل مملكة ظاهر، ولكن أُعطيت أوامر للمجاهدين بالرجوع وانتهت الحملة، ولكن المسلمين الهنود ظلوا يتحكمون في بعض المناطق في السند.

اثنتا عشرة حملة لمحمود غزني

لم نسمع أي أخبار عن حملات إسلامية أخرى للهند لمدة مائتي عاماً تقريباً من وقت محمد قاسم، ولكن ظهر فاتح جديد في القرن الحادي عشر على الساحة. وتعرف فتوحات محمود غزني بحملاته الاثنتي عشرة بالرغم من أنه على ما يبدو غزا الهند أكثر من اثنتي عشرة مرة. ومن المهم ذكر بعض تلك الحملات بشكل مختصر.

كانت الحملة الأولى في عام 1001 ضد جايبال الشجاع والذي هُزم بالقرب من بيشاور وأُخذ أسيراً، وتوّغل محمد أبعد من سوتليج، وعند عودته إلى غزني أطلق سراح جايبال مقابل فدية كبيرة، ولكن الراجبوت، بعد أن شعر بالخزي في أعين أبناء بلده بسبب هزيمته وأسْره، نقل مملكته إلى ابنه أنانجابال وصعد على محرقة الجنازات واختفى بين النيران.

وفي 1808 بدأت حملته الرابعة، وكان أنانجابال مستعداً للهجوم هذه المرة وتلقى المساعدة من الملوك الهندوس في أوجين وجواليور وقنوج وكالينجار وديلهي وأجمير، وبذلك تم تجميع جيش هائل ويقول المؤرخ فرشته «لقد باع النساء الهندوس جواهرهم وصهروا مصوغاتهم، والتي أرسلوها من أماكن بعيدة، لإمداد الحرب بالمؤن». ولكن الحرب الوطنية

هذه فشلت أمام النظام الذي تميزت به جيوش محمود وهُزم الهندوس وتوّغل محمود مرة أخرى في البنجاب واستولى على قلعة ناجاركوت المقدسة.

وكانت الحملة السادسة في عام 1011 للاستيلاء على معبد ثانيسفار الشهير والمقدس، وتم تحطيم الصور والاستيلاء على المعبد وحمل عدد مهول من الرجال والنساء كعبيد. ويقول فرشته: «بدت غزني كمدينة هندية، ولم يكن هناك جندي في المعسكر من دون ثروة أو العديد من العبيد».

وفي الحملة التاسعة التي بدأها في عام 1017 توّغل محمود لأول مرة حتى وصل إلى الغانج، وفجأة رأوه أمام قنوج وأُخذ راجيابال ملك قنوج على غفوة ليستسلم حينها. ثم تقدم محمود حتى ماثورا، مدينة شمال الهند المقدسة، وأخذته روعة المكان، وكتب إلى واليه في غزني قائلاً: «يوجد هنا ألف مبنى راسخ كإيمان ألف من المؤمنين ويتكون معظمهم من الرخام بالإضافة إلى معابدها الكثيرة، ولابد وأن تلك المدينة حصلت على هيئتها الحالية بعد إنفاق ملايين الدينارات، ولا يمكن إنشاء مثيلتها في أقل من مائتي عام». ومما لا يشيد بسمعة الغازي أنه نهب المدينة الرائعة لمدة عشرين يوماً ورحل عنها بغنيمة هائلة.

وفي عام 1024 قام محمود بحملته الثانية عشرة والأخيرة ضد أنهالوارا

أوباتـان عاصمة جوجرات، وكان الهدف على ما يبدو هو نهب ثروات معبد سومانـاث الهائلـة، وهزم محمود ملـك أنهالوارا في حرب شرسـة وأخذ قلعة سوماناث التي تم الدفاع عنها بقوة وحطم الصور ونهب الكنز. ويقول فرشته: «كان الكنز الموجود في سوماناث أكثر من أي كنز ملكي وجد من قبل».

أمضـى محمود السنوات الأخيرة من عمره في غزو فارس وتوفي في عام 1030. وكان قائداً ومجاهداً عظيماً، ولكن لم يكن لديه من الذكاء ليكوّن إمبراطورية خالدة. ولم يساهم في تأسيس إمبراطورية مستقرة.

شمال الهند في القرن الحادي عشر

كان البـيروني وهو مـن سكان خوارزم ممن عاصروا محمـود والذي أحضره محمـود إلى غزني، ودرس المعرفة والعلوم الهندوسية وترك بياناً قيماً عن شمال الهنـد في القـرن الحادي عشر حيـث انقسم شمـال الهند بأكملـه إلى ممالك وإمارات صغيرة تابعة للراجبوت والتي كوّنت اتحاداً قوياً من الأمم الهندوسية، وكان راجيابـالا ملك قنوج هو الحاكـم المركزي وتضمنت الأراضي الواسعة تحـت سيطرته البنغـال في الشـرق، وفي أقصى الشمال كانـت كشمير مملكة مستقلة، واحتفظت هذه الدولة الهندوسية القديمة باستقلالها حتى غزاها الملك

أكبر العظيم في القرن السادس عشر، أما بيشوار فكانت تحت حكم جاييال وأنانجابال، وكما رأينا من قبل فقد حكم السند مجموعة من الولاة المسلمين، وحكم جوجرات الراجبوت من سلالة شالوكيا والذين لم يتأثر حكمهم تقريباً بغزو محمود لسوماناث، وكان يحكم مالوا سلالة راجبوت أخرى وكان بوجاديفا، والذي حكم من 997 عام إلى 1053، راعياً مثقفاً للآداب وأحيا ذكريات فيكرامادیتیا وسیلادیتیا. وفي كل مكان كانت العصور المظلمة في نهايتها، وكان حكم الراجبوت مؤسساً وقوياً وكانت المعرفة الهندوسية في حالة انتعاش تحت رعاية ملوك الراجبوت في شمال الهند.

الدكن

بعد سقوط أمة أندرا العظيمة حكم الراجبوت من عائلة شالوكيا الدكن من القرن الخامس وحتى القرن الثاني عشر، وقد كان للفرع الغربي من هذه العائلة الحاكمة السيطرة على ماهاترا وكانت عاصمتهم هي كاليان. ويقال أن جايا سينها (المؤسس) ينحدر من أسرة بالابي التي حكمت جوجرات، وقد قام أحد خلفائه بمضاهاة سيلاديتيا الثاني، إمبراطور الهند الشمالية في القرن السابع، وقد استمرت الأسرة الحاكمة القوية في حكمها مع بعض الاضطرابات حتى عام 1189.

وكان للفرع الشرقي لهذه العائلة السيطرة على الساحل الشرقي من مصبات كريشنا إلى أوريسا، حيث كانت عاصمتها في راجاماندري، وأسس فيشنوفاردانا العائلة في أوائل القرن السابع وحكم أحفاده، مع بعض الاضطرابات، حتى انتقلت المملكة بالزواج في القرن الحادي عشر إلى راجيندرا كولا، حاكم جنوب الهند في ذلك الوقت.

جنوب الهند

كانت الهند إلى جنوب نهر كريشنا منذ العصور القديمة محلاً لثلاث ممالك معاصرة وهي كولا وشيرا وباندیا، وكانت مملكة كولا إلى الساحل الشرقي، شمال وجنوب نهر كافيري وعاصمتها هي مدينة كانتشي الرائعة والمسماة الآن بكونجيفيرام، وكانت مملكة شيرا على الساحل الغربي وشملت مدينة ترافانكور الحديثة، أما مملكة باندیا فتقع في أقصى الجنوب وتضمنت أحياء معروفة الآن باسم مادورا وتينيفيلي، وكان شعب باندیا هو الأقدم من بين الثلاثة، وهناك إشارات لهم على كتابات آشوكا الحفرية في القرن الثالث قبل الميلاد، وبينهم وبين الرومان تجارة كثيرة قبل وبعد بداية العصر المسيحي مباشرة. وأما نفوذ كولا قد قوي فيما بعد ورأينا أن

راجيندرا كولا أصبح حاكم جنوب الهند بأكمله في القرن الحادي عشر.

وكما هو الحال في كل مكان فقد أتى الراجبوت وغزوا. وأسس الراجبوت من عائلة بيلالا مملكة قوية على أنقاض الثلاث ممالك في القرن الحادي عشر وقد كان نفوذهم طائلاً في جنوب الهند حتى أطاح بهم المسلمون في عام 1323.

أوريسا

حكمت أسرة كيساري الشهيرة أوريسا من القرن الخامس إلى القرن الثاني عشر ويرجع الفضل في النماذج الرائعة للعمارة الهندوسية في بوبانيسوار وكاناراك التي تحدثنا عنها في الفصل السابق إلى هذه الأسرة العظيمة. وكانت عاصمتهم في بوبانيسوار ثم في جاجبور وفي القرن العاشر أسسوا كوتاك، وخلف هذه الأسرة جانجا أو العائلة الجانجية والتي حكمت من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر وبنى أمير من هذه العائلة المعبد العظيم في بيوري والموجود حتى الآن، وحكم خمسة ملوك من أسرة جديدة في القرن السادس عشر والتي بعدها فتح المسلمون البلد في عام 1560.

البنغال

أتت البنغال مثل أوريسا تحت طية الحضارة الآرية في عهد فتوحات آشوكا في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح، وفي القرون التي تلت العصر المسيحي كانت مهداً لخمس ممالك مزدهرة وكثيفة بالسكان، وقد عُرفت الأجزاء الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية على الترتيب بباندرا وتامرالبيتي وساماتاتا وكارنا سوفارنا بينما عرفت أسام باسم كاماروبا.

وفي القرن التاسع أسس الراجبوت أسرة بالا الحاكمة لبنغال واتسعت ممتلكاتهم لتشمل قنوج عندما غزا محمود تلك المدينة. ولكن عندما تحركت بالا إلى الغرب حلت محلهم أسرة سينا في الشرق.

وقام أحد أفراد أسرة سينا والمعروف بأديسورا، كما يقال، بإحضار البراهمان والكاياستا من قنوج إلى البنغال، ويقال إن آخر -وهو بالالا سينا- قد قسم هذه الطوائف إلى كولين أو خالصين وماوليك أو مختلطين، وحكم آخر ملوك هذه الأسرة في ناديا عندما فتح المسلمون البنغال في عام 1204.

الأدب والعلم

إن هذا البيان المختصر عن الولايات المختلفة التي ظهرت في الهند قبل

الفتح الإسلامي مباشرة سوف تمكننا من رؤية الهند تحت حكم الراجبوت من منظور عين الطائر، فالدولة كانت قد استقرت بعد حروب على الحكم وحروب عرقية وكوّنت الولايات اتحاداً هائلاً من الأمم الهندوسية والذي كان يمكنه التجمع ضد أي محتل أجنبي إذا حدث ذلك، وانتعش العلم والأدب تحت هذا النظام الجديد للأشياء، كما انتعش العلم والأدب في غرب أوروبا تحت سادتها الجدد من الألمان في القرن الثاني عشر.

وظهر الشاعر ماغا في القرن الحادي عشر في بلاط الملك بوجا ملك مالوا والتي تحدثنا عنها سابقاً، وقد ألّف قصيدة اسمها سيسوبالا-بادا والتي لها الكثير من القراء في الهند حتى يومنا الحالي، وهي حلقة من الملحمة القديمة ماها-باهاراتا وتصف قتل كريشنا لسيسوبالا، وقد ألّف سري هارشا، غالباً من بينارس أو البنغال قصيدة أخرى (نايشادا)، وهي مبنية على حلقة أخرى من الملحمة ذاتها في القرن الثاني عشر، وقد أُلّفت مسرحيتان رائعتان وهما مودرا راكشاسا وفيني سانهارا ما زالتا مقروءتين حتى اليوم في الهند في هذا العصر أيضاً، وجمّع سومااديفا من كاشمير من السجلات القديمة مجموعته الممتعة والقيمة من الحكايات المعروفة بكاثا-ساريت-ساجارا، أو محيط الأنهار من الحكايات، وقد جُمعت

هيتوباديسا من قصص بانشاتانترا القديمة التي ذكرناها في الفصل السابق، وأخيراً فقد تغنى جاياديفا من البنغال بحب كريشنا وراداً في عمله الشهير جيتا-جوفيندا وكلماته بها أكثر الألحان طرباً في اللغة السانسكريتية. والقصيدة كلها عبارة عن رمز يُقصد بها تجسيد حب الكائنات الحية للإله الأعلى ولكن الرمز مختفٍ وراء الوصف الغني والحيوي. وتوصف الملذات الحسية -من الشم والبصر واللمس- في حب فتيات الحليب لكريشنا:

«تطلب إحداهن وهي مزينة بإكليل من ورود الشامباك المنثورة كالنجوم

أن يريح رأسه على وسادة صدرها الداكنة الحانية

وفوق جبهته تنثر مع الورود رائحة عطرية نادرة

تسقط على حواسه المنتعشة مثل الأمطار على الهواء الظمآن

بينما تلوّح الفتيات المجتمعات برائحة جميلة

ويضحك كاريشنا ويلعب ويتنفس برائحة الربيع العطرة

وتنظر أخرى إلى وجهه وتجلس بشجن بعيداً

وتتأمله بنظرات من الحب التي تقفز من القلب للقلب

وتشتعل عيناها بلهب الحب الخجول والمحتجبة بين رموشها السوداء

بين الجمع من الفتيات اللاتي تلمع أعينهن في الحلقة

تشرق حوله بأجمل المعاني في ضوء الربيع المرح

والثالثة في هذه المجموعة الساحرة من ساكنات الغابة

يعلو جسدها وصدرها بنبض الشباب

تنحني نحوه لتتحدث بأعذب الكلمات في أذنه

ثم تطبع قبلة بشفاه نضرة كورقة الشجر تحت وجنته

قبلة ساحرة ويستدير كريشنا لهذه اللمسة الحريرية

ليعيد القبلة لصاحبتها، – آه يا رادا! لقد نسيتك كثيراً».

(ترجمة سير أدوين أرنولد إلى الإنجليزية).

وفي العلم نرى اسماً واحداً لامعاً في القرن الثاني عشر وهو اسم باسكارا أكاريا الشهير، وقد أكمل عمله الفلكي العظيم، سيدانتا سيروماني، في عام 1150، وقد ترجم كولبروك الأجزاء الأولى من العمل عن الجبر والحساب إلى الإنجليزية.

المعتقدات الدينية.. طوائف سيفا وفيشنو

فضّل حكام الراجبوت في الهند الديانة الهندوسية، في شكلها الجديد أو البيوراني، وانتشرت في البـلاد كلها وماتت البوذية موتاً طبيعياً ما عدا في

بعض المناطق المنعزلة. ومن بين الثلاثي البيوراني أصبح سيفا وفيشنو الأكثر شعبية بين العابدين، وتضاعفت الطوائف المتنافسة، تلك التي قدّست أحد الإلهين أو الآخر بشكل أقوى، بشكل تدريجي في الهند. ويشير الأدب والعمارة في القرن السادس والسابع والثامن إلى تفوّق عقيدة سيفا، بينما يشير الأدب والعمارة في العصور اللاحقة للشعبية المتزايدة للإله فيشنو. لقد ألّف كاليداسا وباهارافي شعراً في سيفا في القرن السادس، وألّف ماغا وجاياديفا شعراً في فيشنو في القرن الحادي عشر والثاني عشر، وبَنَت أسرة كيساري الحاكمة معابد لسيفا في بوبانيسوار في القرن السابع وأهدتهم أسرة الغانج إلى فيشنوفي بيوري في القرن الثاني عشر، ومرّت الملحمتان والبيورانات القديمة على أيدي المراجعين أتباع فيشنو، وقد أصبح دين فيشنو هو الملمح الرئيسي لهم في شكلهم الحالي.

وأما راما بطل الرامايانا وكريشنا أحد أبطال ماها بهاراتا وحتى بوذا نفسه الذي حظي بعبادة عدد كبير من الناس لألف سنة، فقد اعتُبروا تجسيدات لفيشنو، وبذلك تركز العقل الشعبي أكثر وأكثر على عبادة فيشنو. ولكن كان تجسيد فيشنو ككريشنا هو موضوع العبادة المفضل. وكان دين كريشنا قد انتشر لقرون عدة بين طوائف مختلفة في الهند تعرف

باسم باجافاتا وبانكاراتراس، ولكن الدين ازداد شعبية فقط بعد سقوط البوذية، واحتاج العقل الشعبي شيئاً للعبادة أقرب للقلب وأوضح في الفهم من الروح الإلهية الكونية للأوبانشيدات، واحتل كريشنا هذا المكان الذي شغله بوذا لعشرة قرون، وقد احتلت قصص وأساطير كريشنا قصص ميلاد بوذا، وتحولت أماكن الحج البوذية إلى مواقع حج فيشنوفية وحتى الحياة في الأديرة البوذية والتي كانت عاملاً قوياً في انتشار العقيدة تم اتباعها إلى حد ما من قبل أتباع فيشنو. ولم يعرف ملايين الهنود إلا القليل عن المذاهب الفلسفية في الأوبانشيدات أو الخرافات البوذية المتهالكة وكانت عبادة كاريشنا بالنسبة لهم عبادة شعبية لإله واحد مثبتاً في الأساطير والحكايات الشعبية. وبينما اعتقدوا في آلهة عديدة فقد شعروا بطريقة ما أن كل الآلهة ما هي إلا قوة واحدة وظهرت هذه القوة على الأرض في صورة كريشنا من أجل الإطاحة بالمخطئين ومكافأة فاعلي الخير، وقد دافع المفكرون الدينيون في القرن السابع والثامن مثل كوماريلا وسانكارا عن الطقوس والمذاهب الفيدية، ولكن الداعية الديني العظيم رامانوجا في القرن الثاني عشر دافع عن التوحيد الشعبي عن دين الإله الواحد وقد سُمي هذا الإله فيشنو أو كريشنا. ولم تنتهِ الحركة التي بدأها رامانوجا معه ولا

بفقـدان الاستقلال الهندوسي. فقد ظل العقـل الهندوسي الديني يصارع خلال القـرون الطويلة من الحكم الإسلامي من أجـل الوصول إلى شكل بسيط وشعبـي للتوحيد. وفي وسط نزاعات الطوائـف المتنافسة وبالرغم مـن الاعتقاد في آلهة عديـدة وممارسة العديد مـن الطقوس والاحتفالات مازلنا نجد جموع الشعب في الهند متمسكين بعبادة فيشنو كشكل بسيط للتوحيد الذي تمكنوا من فهمـه ونجد المصلحين الدينيين في القرون التالية يتبعون خطوات رامانوجـا ويدعون لعقيدة الإله الواحد تحت اسم فيشنو أو كريشنا.

اللغات الحديثة

تلـك هي روح الديانـة الهندوسية الحديثة لجموع الشعـب مدعو إليها ومعلنـة في اللغـات الحديثـة، وكانـت السانسكريتيـة القديمة هـي اللغة المتحدث بها حتى حوالي عام 800 قبل الميلاد وبعدها خُففت إلى لغة بالي والتـي نُشرت البوذية مـن خلالها، وانقسمت لغة بـالي إلى براكريتات أو لهجـات الشعب عندما ظهر الشكل الجديد للهندوسية في القرن الخامس والسادس بعد الميـلاد. وسجلّت الثـورة السياسية والعرقيـة في القرنين

التاسع والعاشر، والتي أدت إلى صعود الراجبوت إلى الحكم ونشر دين سيفا وفيشنو، تغيراً جديداً في اللغة المتحدث بها في الهند وحلت اللغات الحديثة في الهند محل البراكريتات، حتى أصبحت اللغة الهندية بشكل أو بآخر لغة شمال الهند؛ واستمرت اللغة البنغالية وماهاراتي في كونهما اللغتين المتحدث بهما في الشرق والغرب، بينما انتشرت اللغات غير الآرية مثل تاميل وتيليجو في الجنوب.

الفتح الإسلامي في شمال الهند

في القرن التالي لوفاة محمود قام أمير من أسرة غور الحاكمة بتدمير غزني، وأصبح غياث الدين من هذه العائلة ملك غور في عام 1157 وكان أخوه شهاب الدين محمد غوري هو الذي فتح شمال الهند المسلم.

وفي أول مواجهة كبيرة له مع الهندوس لم يفلح محمد غوري. وكان قد قام بحملة إلى الهند وأخذ مدينة بيتوندا عندما سمع بأن بريثوراي ملك ديلهي وآجمير كان يسير نحو المدينة بجيش مهول. وعاد محمد غوري لنجدة المدينة وقابل الجيش الهندوسي في تيروري على نهر ساراسفاتي، وخاضوا معركة طاحنة وهُزم المسلمون وجُرح محمد نفسه وبصعوبة نقله

أحد أتباعه المخلصين بعيداً.

وفي عام 1193 عاد محمد غوري إلى الهند بجيش مهول من 120.000 حصان مكوّن من الأتراك والأفغان أشجع رعاياه. وكان بريثوراي أيضاً قد تلقى إمدادات من الإمارات الهندوسية المجاورة واستعدّ بجيش هائل على ساحة نصره السابق.

حاول محمد مفاجأة الجيش الهندوسي عن طريق عبور النهر قبل الفجر ومهاجمة الجيوش فجأة ولكن الهندوس سيطروا على المسلمين حتى انتظمت صفوف الجيش كله. واشتعلت الحرب طوال اليوم وعند الغروب وضع محمد غوري نفسه عند مقدمة 12.000 من أشجع الفرسان في جيشه وتسلح بالدروع الفولاذية واندفع بين الجنود الهندوس حتى ذعرت القوات الهندوسية واختل نظامها. يقول فرشته: «لقد اهتز الجيش الأعجوبي مثل المبنى الشامخ الذي يتأرجح قبل سقوطه واندثر بين انقاضه». وقد أُسر بريثوراي وقُتل.

وبذلك تم فتح ديلهي وأجمير في عام 1193 وفي العام التالي عاد محمد غوري إلى الهند وهزم جاي شاندرا ملك قنوج وبينارس. وغزا عبده السابق قطب الدين، والذي تركه كوكيل له، جوجرات وغزا القائد

الشهير بختيار خيلجي التابع له أود وبيهار والبنغال بحلول 1204.

وبعـد ذلك بعامين أُغتيل محمد غوري وهو مُخيم في السند وأصبح قطب الدين أول ملك مسلم مستقل لديلهي وشمال الهند.

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل الثامن

عصر الحكم الأفغاني

(1206 – 1526 م)

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

أسرة العبيد الحاكمة

من عـام 1206 إلى عام 1290، أصبح قطب الديـن ملك شمال الهند المستقل في عام 1206 وكان عبداً في بداية حياته، وتُعرف الأسرة الحاكمة التـي أسسهـا بأسرة العبيـد الحاكمة. تـوفي قطب الديـن في عام 1210 ويحفـظ قطب منـار العظيم اسمه وهو معلم شامـخ ومصنوع من الحجر الرملـي مزخرف بكتابـة سور من القـرآن عليه وما يزال يقـف عالياً بين أنقاض ديلهي القديمة.

وبعد فترة الحكم القصيرة لابنه الأكبر إرم، صعد ألتامش والذي كان عبداً لقطـب وأثبت جدارته كحاكم قوي. وخلال فـترة حكمه قامت أسراب الجراد من المغول باكتساح آسيا وتوغلوا في أوروبا. ولكن جانكيس خان لم يعبر من خلال السند وبذلك نجت الهند من الكارثة العالمية لهذا العصر.

صورة : قطب منار في ديلهي

أعلن الحكام المسلمون في السند والبنغال استقلالهم ولكن ألتامش نجح في إخضاعهـم لسيطرتـه. وكان الهندوس في مالوا ما يزالـون يناضلون من أجل الاستقلال ولكن ألتامش أخضع جواليور وأوجين ودمّر المعابد والتماثيـل الشهيرة لتلـك العاصمة القديمـة لفيكراماديتيـا. وبذلك فقد

امتدت إمبراطورية ألتامش بطول شمال الهند بأكمله قبل وفاته في 1236.

وقد خلفته ابنته رضية بيجام وهي المرأة الوحيدة التي تولت عرش ديلهي المسلمة، وقد كانت متعلمة ومجتهدة ونشيطة، ولكن الاهتمام الذي أظهرته لعبد عباسي أغضب القواد وكبار الرجال وتم خلعها من الحكم وإعدامها في عام 1239.

جلس على عرش الهند اثنان من الخلفاء الضعاف وغير المهمين حتى عام 1246 عندما صعد ناصر الدين، الابن الأصغر لألتامش، على العرش، وكان المغول حينها مستحوذين على أكبر المقاطعات في السند وذهب وزير ناصر الدين، بلبن، إلى البنجاب ليحمي المقاطعة، وحارب الحكام الهندوس في جنوب يومنا أيضاً وأخضع مالواله مرة أخرى بهزيمته للراجبوت في ميوات في معركة هائلة.

وخلف بلبن ناصر الدين وتولى الحكم من عام 1265 إلى 1287، وكان قوياً ومتحفزاً ولكن كان أيضاً قاسياً وبلا رحمة. كانت غابات ميوات ما تزال مليئة بالراجبوت الأقوياء من سلالة جادون، ويقال إن بلبن ذبح 100.000 منهم من أجل إخضاع المكان لسيطرته، وقد أعدم نائبه في البنغال لفشله في كبح جماح العصيان وذهب بلبن نفسه إلى المقاطعة

لإخماد الإنقلاب. وعلى الجبهة الغربية غزا المغول الهند مرة أخرى وطُردوا على يد ابن بلبن الذي قُتل في المعركة، وتوفي بلبن في عام 1287 وانتهت فترة حكم قصيرة لخليفة ضعيف من هذا الأسرة الحاكمة بعد ثلاث سنوات.

أسرة خلجي الحاكمة

من عام 1290 إلى عام 1320، تفاوتت إمبراطورية أسرة العبيد الحاكمة في امتدادها من وقت لآخر وفقاً لقوة أوضعف الأمبراطور ولكنها امتدت عبر شمال الهند كله تحت حكم ألتامش وبلبن، ومدّت الأسرة الحاكمة أو، أسرة خلجي، الأمبراطورية الإسلامية إلى الدكن.

واستمر جلال الدين مؤسس أسرة خلجي الحاكمة في محاربة الهندوس الأقوياء في مالوا، وقد نهب علاء الدين، ابن اخيه وحاكم كارا، الدير البوذي في بيلسا وسرق بندلخاند ثم خطر بباله فكرة غزو الدكن. وبعد سير لمدة 700 ميل خلال الغابات وسلسلة جبال فيندیا ظهر فجأة أمام مدينة ديوجيري الهندوسية، وغزا المدينة وهزم الجيش الهندوسي واختفى عن الساحة بعد جمع فدية كبيرة. وعلى قدر قوته كان غادراً وشرساً، فقد دعا

عمه إمبراطور كارا وقتل الرجل المسن وصعد على العرش في عام 1295.

ووصل النفـوذ الأفغاني أقصاه في الهند تحت حكم علاء الدين خلجي. وكان الهندوس قد استعادوا استقلالهم في جوجرات ولكن كارون راي الملك الهندوسي فرّ أمام قوات علاء الدين وأُخذت زوجته الشهيرة والجميلة كامالا ديفي ضمن السبايا. وأُخذت أنهالوارا وكانبي وأُعيد غزو جوجرات بالكامل من الهندوس في عام 1303.

وتدفق المغول مرة أخرى إلى الهند ولكن هُزموا أولاً في لاهور ثم على أبواب ديلهي، وتم ردع غزو ثالث لهم في عام 1305.

وقام علاء الدين بمحاولات قوية لكسر الراجبوت الذين كانوا ما يزالون يحافظون على استقلالهم في راجبوتانا، ولم تخضع بعد للحكم المسلم، وأخذ رينتامبور من الراجبوت من سلالة جايبور في عام 1300 واستولى على شيتور من الراجبوت من سلالة سيسوديا في عام 1303، ولكن القائد التابع له هزم حاكم مالوا وأخضع أوجين وماندو ودار وشانديري.

ولكن غزو الدكن كان الحدث الأبرز في فترة حكم علاء الدين. فقد توغل قائده ملك كافور في البنغال ودخل ورانجال عاصمة مملكة تيلينجانا الهندوسية في عام 1303. وبعد ذلك بثلاث سنوات قام القائد ذاته بالسير

خـلال مالوا وإلى ماهراتا وأخذ ديوجـيري وأخضع الملك الهندوسي رام ديـو وجعله يدفع الجزيـة في ديلهـي، وتوّغل كافـور في كارناتيك وبنى مسجداً في أقصى نقطة في جنوب الهند.

ولكـن خطة غزو الهند كلها لم يُقدّر لها النجاح، فقد أعلنت جوجرات العصيان واستعاد الراجبوت شيتور وأشعل هاربال ديو، ابن رام ديو، نيران الحـرب في الدكن وطـرد الحامية المسلمين. يقول فرشتـه: «وقد استشاط الملـك غيظاً عندمـا سمع تلـك الأنباء». ثـم تفاقم مرضـه بسبب غضبه الشديد وتوفي في عام 1315.

وقد شوّه الخمس سنوات الأخيرة من حكم تلك الأسرة الجرائم والأفعال الشنعاء والفساد وانتهت تلك الأسرة في 1320.

أسرة تغلق الحاكمة

من عام 1320 إلى عام 1414، كان غياث الدين تغلق مؤسس تلك العائلة ابـن عبد تركي مـن أم هندوسية مـن قبيلة جات، وقد غـزا ابنه جونا خان وارانجال وانتهت الأسرة الحاكمة الخاصة بالراجبوت من أسرة كاكاتي.

وخلف جونا خان والده تحت اسم محمد في عام 1325، وقد كان أميراً

بارعـاً ومثقفـاً وقد درس الفلـك وكتب الشعر وعرف المنطـق والفلسفة الإغريقيـة، ولكـن غرائبه اقتربت من الجنون، وكانـت فترة حكمه عبارة عـن تمرد طويل للمقاطعات، وعند وفاتـه كانت عظمة إمبراطورية ديلهي قد انطفأت.

وانتهـت خطة محمـد بغزو الصين عـن طريق إرسال قـوات من خلال جبـال الهيمالايـا بكارثـة. وبخطته لإعـادة غزو جنوب الهنـد فقد نقل سكان ديلهي مرتين عبر جبال فينديا إلى ديوجيري والتي أسماها دولتاباد، ولكـن الحملات انتهت بالمجاعة والهلاك. ومن أجل تعويض خزائنه فقد أصدر عملات نحاسية بقيمة عالية بشكل خيالي، ووصلت التجارة لحالة ركود واضطر إلى استرجاع عملاته المستهلكة من خلال الضرائب، وأدت ضرائبه الباهظة وأعمال القسوة إلى الهلاك والكوارث.

وانفكـت عُرى الإمبراطوريـة الأفغانية العظيمة في الهند تحت حكمه، فثـارت البنغال وتحولـت إلى مملكة مسلمة مستقلـة في عام 1340، وبنى بوكا راي، الملك الهندوسي لكارناتيـك، عاصمة جديدة في فيجاياناجار وأسس المملكة العظيمة المعروفة بهذا الاسم في عام 1344، وأسس حسن جانجـو مملكـة مسلمـة مستقلة في الدكـن في عام 1347 وتعـرف أسرته

الحاكمة بأسرة باهماني الحاكمة، لكن كانت هناك انقلابات في جوجرات ومالـوا والسند، وبينما كان يحاول قمع تلـك الانقلابات العديدة، توفي محمد في عام 1351.

وخـلال فترة حكم محمـود، آخر ملك في هذه الأسـرة الحاكمة، توّغل تيمور لينـك في الهند واستولى على ديلهي وذبح ونهب المواطنين في عام 1398، وقـد رجع إلى ميروت وهـاردوار، محملاً بالغنائم، ثم مضى في حملته الشهيرة ضد باجازات.

أسرة سيد الحاكمة

مـن عـام 1414 إلى 1450، كان تيمور قد عيّن سيد خضـر والياً على مولتـان ولاهور وبعـد انقطاع عائلة تغلـق، حكم خضر خـان وخلفائه الثلاثة لمدة ستة وثلاثين عاماً تقريباً كأباطرة لديلهي.

أسرة لودي الحاكمة

من عام 1450 إلى عام 1526، وبعد ذلك قام بهلول لودي بتأسيس أسرة حاكمة جديدة وضمّ البنجاب وجوانبور إلى ديلهي، وأعاد ابنه سيكاندار

احتلال بيهار ولكن ابن سيكاندار إبراهيم كان أميراً ضعيفاً وواهناً، حيث فكّت الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية قيود ديلهي، ودعا حاكم البنجاب بابـار العظيـم إلى كابول من أجـل غزو الهند. وجاء باربـار وهزم الجيش الهندي في معركة بانيبـات العظيمة في عام 1526، وقُتل إبراهيم واحتل بابار ديلهي وآجرا، وبذلك أسس الإمبراطورية المغولية في الهند.

انتشار النفوذ الإسلامي

كانت النتيجة السياسية العظيمة لثلاثة قرون من حكم الأفغان للهند هي انتشـار النفوذ الإسلامي عبر جزء هائل من القـارة، وقد نشرت فتوحات الحـكام الأقوياء مثل قطب الدين وألتامش وبلبن هذا النفوذ عبر جزء كبير مـن شمال الهند مـن السند إلى براهمابوترا، وتوّغل عـلاء الدين أبعد من جبال فينديا وأسس ولاية مسلمة في الدكن وبلدة ماهراتا. من المهم تذكر أنـه بالرغم مـن أن العائلة الحاكمـة في ديلهي بدأت تنحـدر من منتصف القرن الرابع عشر إلا أن هذا الانحدار لم يؤثر بأية طريقة على تفوق النفوذ المسلـم. وعلى النقيض، كلما كانت حـدود ديلهي تتقلص، كانت ممالك مسلمـة تظهر على الساحة في المقاطعات البعيدة، وكان معنى ظهور تلك

الممالك الإسلامية المستقلة تعزيز أكثر للنفوذ الإسلامي في الهند.

أصبحت البنغال مملكة مسلمة مستقلة في عام 1340 واحتفظت باستقلالها لمدة فاقت القرنين حتى احتلها أكبر العظيم مرة أخرى وضمها لإمبراطورية ديلهي، وأصبحت إمبراطورية جوجرات في الغرب أيضاً مملكة مستقلة في عام 1391 وظلت مستقلة حتى عصر أكبر. وفي مالوا قام الراجبوت بجهود متكررة ودؤوبة من أجل الحفاظ على استقلالهم ولكنهم انهزموا، وعندما تقلص نفوذ ديلهي أصبحت هي مملكة إسلامية مستقلة، وكانت السند ولاية إسلامية مستقلة وحتى جوانبور، بما في ذلك بلدة بينارس، أصبحت ولاية إسلامية مستقلة في عام 1394.

وفي الدكن وفي بلدة ماهراتا نشأت مملكة إسلامية مستقلة جديدة بعدما تلاشى نفوذ العائلة الحاكمة في ديلهي، وأنشأت أسرة باهماني الحاكمة العظيمة حكمها في الدكن في عام 1347 ومثلت القوة المركزية الإسلامية في الجنوب مثلما كانت العائلة الحاكمة في ديلهي هي القوة المركزية الإسلامية في الشمال. وبعد حكم مزدهر دام لحوالي قرن ونصف القرن انحدر نفوذ العائلة وانقسمت أراضيها الشاسعة إلى خمس ولايات، وهي: أحمد ناجار (1490) وبيجابور (1489) وجولكوندا (1512)

وبيرار (1484) وبيدار (1492). ولكن هذا التآكل في مملكة باهماني دلّ علـى ضعف هذه العائلة وليس ضعـف النفوذ الإسلامي. وعلى العكس، فقـد نشر تأسيس الولايات الصغـيرة وقوّى النفـوذ الإسلامية في الدكن كلها.

وفي جنـوب الهنـد، أي جنوب نهـر كريشنا، لم تُكسـر شوكة الحكام الهندوس تماماً، وقـد احتفـظ الهندوس باستقلالهم حتى مجـيء الغزو الإنجليـزي في القرن الماضي، وقد أطاح الحـكام المسلمون المجتمعون في الدكـن في معركة تاليكوتا في عام 1565 بمملكـة فيجاياناجار الهندوسية والمؤسسـة في عـام 1344 ولكن القـادة الهندوس المحليـين استمروا في حكم جنوب الهند.

وتحفـل مملكة باندياـ القديمة، وعاصمتها في مـادورا، بقائمة طويلة من الملـوك والأسر الحاكمة من الهندوس من القرن الرابع قبل الميلاد إلى القرن الثامن عشر بعد الميلاد. وتفخر مملكة تشيرا بخمسين ملكاً وكولا العظماء الذيـن كانـوا في ذات يـوم أصحاب أكبر نفـوذ في جنـوب الهند وكان عددهم ستة وستين بالإضافة إلى الأسر الحاكمة الوريثة.

وستمكننـا تلـك الحقائق من فهـم النتائج العامة لعصـر الحكم الأفغاني

في الهنـد. وإن لم ينشغل انتباهنا فقط بـثروات العائلة الحاكمة في ديلهي، فسنجـد أن الثلاثة قرون من الحكم الأفغاني مثلـوا التوسع المستمر للنفوذ الإسلامي في الهند. وخلال القرن والنصف الأول كان هذا التوسع نتيجة قوة حكام ديلهي الذين كسروا شوكة الهندوس ليس فقط في السند والغانج ولكن في المقاطعات البعيدة أيضاً مثل جوجرات ومالوا والبنغال والدكن. وخلال القرن والنصف الأخير كان التوسع الإسلامي نتيجة تأسيس ممالك إسلاميـة مستقلة في تلـك الأماكن التي كان النفـوذ الهندوسي قد انكسر وانهزم فيهـا. ومن خلال هـذه العملية المزدوجة ترسخـت سلطة النفوذ الإسلامي في الهند.

ولكـن كانت هناك ثـلاث مناطق محـددة جيداً احتفظ فيهـا الهندوس باستقلالهـم: 1. كانت الحواجز الجبليـة الهائلة ولايات ما رواء الهيمالايا من كاشمير إلى آسام سداً أمام الفتح الإسلامي.

2. في منطقة وسط الهند من راجبوتانا وخلال الغابات في وسط الهند إلى أوريسا على البحر الشرقي احتفظ الهندوس باستقلالهم لشجاعتهم أو بسبب وسائل الدفاع الطبيعية للولايات.

3. ظل جنوب الهنـد، أو الهند إلى جنوب نهر كريشنا، مستقلاً وتحت

حكـم القـواد الهندوس أو النايك نتيجـة بُعدها عن ديلهـي وحتى عن ولايات الدكن الإسلامية.

الإدارة الداخلية

هـذه هي النتائج العامـة لحكم الأفغان مدة 320 عاماً في الهند، من عام 1206 إلى 1526. ولكن من الضروري أن نبحث أعمق من السطح في تلـك النتائج السياسيـة وأن نكتشف كيف أثـروا في الشعب؛ لأن تاريخ الهند هو تاريخ الشعب ليس تاريخ الأسر الملكية الحاكمة. وكثيراً ما ضللت حـروب وجرائم ملوك ديلهي طلاب التاريخ وأعطتهـم انطباعاً سيئاً عن الحكم الأفغاني في الهند. ولكن التحليل الحكيم والمحايد لظروف الشعب خـلال تلك الفترة تزيل الكثير من المفاهيم الخطأ وتمكننا من تكوين حكم حقيقي بشكل أكبر وتقييم أعدل.

كانت الصفة الحميدة الأكبر لحكم الأفغان في الهند هي عدم تدخلهم في ترتيبات الإدارة الداخلية، وأنهـم لم يتدخلوا في أمور الشعب والسلطات الثابتة، وفي البنغال عاشت جموع الشعب من العاملين بالزراعة تحت نظام ملاّك الأراضي الوارثين أو زيمينداريات، والذين كانوا مسلّحين بوسائل قوة

تمكنهم من الحفاظ على السلام ومعاقبة الجريمة، وكان الحكام الأفغان من الحكمة أو الكسل بحيث لم يتدخلوا في هذه الترتيبات، وكانت مساحات شاسعة من البلد مخصصة للجاجيردارات أو القواد العسكريين الأفغان، ولكن هؤلاء الرجال لم يعرفوا إلا القليل عن الترتيبات المالية للبلد، وفي معظم الأوقات كانوا يسعدون بمجرد جمع الإيرادات من الزيمينداران وتركوا العلاقات بين الزيمينداران والشعب كما هي، وتم تعيين القضاة ورجال الشرطة في المدن الكبيرة ولكن عاشت نسبة تسعة إلى عشرة من السكان في القرى ولم يروا أو يعرفوا الكثير عن تلك السلطات ولم يكد يؤثر الفتح الإسلامي على ظروف الحياة في البنغال، وقد ازدهرت الزراعة في البنغال واستمر الإيجار كما هو قبل غزو الأفغان، واشتغل سكان قرى ومدن البنغال المسلمون في تلك الصناعات المزدهرة التي مدّت أسواق آسيا وأوروبا بمصنوعاتهم ونتائج غزلهم.

كانت الظروف الاقتصادية في قرى شمال الهند مختلفة عنها في البنغال. وبدلاً من العيش تحت نظام ملاّك الأراضي الوارثين فقد عاشوا تحت نظام المجتمع القروي، حيث كانت كل قرية وحدة منظمة وكانت تحفظ النظام في القرية وتفض النزاعات وتسوي توزيع الأراضي الصالحة للزراعة وتجمع

وتدفع نصيبها من الإيرادات إلى الدولة، ولم يعتبر الحكام والولاة المسلمون أن من شأنهم التطفل على هذا النظام من الحكم الذاتي في القرى، وتوالت الأسر الحاكمة على عرش ديلهي وأطاحت الحروب بالقرى المحصنة والمحمية، ولكن المزارعين استمروا في عملهم النافع من قرن لقرن غير مبالين بمن يجلس على عرش ديلهي أو على الكرسي الإقليمي، وبين الحين والآخر إن تعرضت الأرياف لهجوم ملك أو قائد أحمق، كان سكان الريف يتركون بيوتهم مع نسائهم وأطفالهم وممتلكاتهم وحيوانات الحراثة وكانوا يعودون ويستقرون في بيوتهم إلى أن يذهب الاقتحام. ولكن هذا الاعتداء على المزارعين لم يكن متكرراً ولا مستمراً، وفي شمال الهند ترك الحكام القلقون والهائجون سكان القرى المكافحين والمجتهدين وحدهم الذين ناضلوا في مهنتهم الزراعية تحت ظل نظام المجتمع القروي، والذي كان يعتبر قديماً حتى في أيام مانو، ولم تمس أخطاء وجرائم الملوك بشكل عام بالصالح العام لجموع الشعب ولم تمس الحروب والنزاعات بين القواد المتنافسين، ولم تكن أعمال القمع ضد السكان الزراعيين متكررة لأنهم لم يكونوا يخدمون مصالح الحكام أنفسهم.

والصفة الأخرى الحميدة في حكم الأفغان كانت في أنه بالرغم من أن

الحكام انفصلوا عن جموع الشعب بسبب دينهم إلا انهم اعتبروا الهند بلدهم ولم يكن لهم مصالح خارج الهند، وعندما قام محمود غَزني بحملاته إلى الهند حمل معه كنوز المعابد والقصور بالإضافة إلى آلاف العبيد من الرجال والنساء من الهند لإثراء وتعمير وطنه الجبلي، ولكن الحكام الأفغان منذ عصر قطب الدين لم يكن لهم مثل تلك الأهداف ولم يكن لهم وطن خارج الهند، ولم تدفع الهند الجزية لأية دولة أجنبية ولم تتبع أي حكام أجنبيين، ولم تُنفق إيراداتها خارج حدودها الطبيعية ولم تتأثر تجارتها وصناعتها بشكل سيئ بالتجارة أو الصناعة إلى أي بلد أجنبي، وبالرغم من بساطة تفكير بعض الأباطرة إلا أنهم أدركوا بشكل عام أن مصالحهم كانت متطابقة مع مصالح شعوبهم وأن إيراداتهم كانت تأتي من رفاهية شعب الهند المسالم والدؤوب. يخبرنا فرشته أن فترة حكم علاء الدين، في أوائل القرن الرابع عشر، شهدت زيادة عامة في الثروة والذي ظهر على المباني الخاصة والعامة عبر الهند كلها، وبالقرب من نهاية القرن ذاته أسس فيروز شاه المستنير أعمال الري والسرايات والمستشفيات والكباري وقطع قناة يومنا الشهيرة مما سمح بهامش من الخصوبة على جانبي النهر، وقام الكثير من الحكام الأفغان الآخرين بتدعيم تلك الأعمال من أجل منفعة الزراعة التي خدمت مصالح ومجد العائلات الحاكمة.

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل التاسع

أحوال الشعب تحت الحكم الأفغاني

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

ثلاثة قرون من الحكم الأفغاني

غالباً ما تنشأ المقارنات بين أحوال شعب الهند وشعب أوروبا خلال الفترات المختلفة من التاريخ الحديث، وتكون هذه المقارنة في صالح الهند خلال الثلاثة قرون من الحكم الأفغاني في الهند بالمقارنة مع العصر الإقطاعي في أوروبا -من وقت فريديريك باربا روسا وفيليب الثاني (فيليب أغسطس) إلى كولومبس ومارتن لوثر-، وكانت حروب الهند أقل تدميراً وأقل تكراراً وسببت شقاءً أقل للناس من الحروب التي خربت كل بلد في غرب أوروبا، وكان قمع الحكام المسلمين والجايجيردارات أقل ضرراً للصناعة والزراعة في الهند من قمع النبلاء والأسياد الإقطاعيين في أوروبا الذين سكنوا القصور ونهبوا القرى والمدن، وازدهرت التجارة والصناعات في الهند كما لم تزدهر من قبل في أي مكان في أوروبا إلا في إيطاليا وهولندا، وأُخذت الإصلاحات الدينية والحركات الثقافية بين شعب الهند بهدوء أكثر وبلا كبت جامح وباضطهاد أقل من أوروبا.

الحركات الدينية

في حقيقة الأمر إن نظرنا للحركات الدينية للهندوس تحت الحكم

الأفغـاني فسنجد أن انتزاع المسلمين لعرش ديلهـي والأقاليم لم يؤثر كثيراً علـى هوايات ونشاطـات وتفكير وحيـاة الشعب، وقـد أشرنا في فصل سابـق إلى لهفة العقـل الهندوسي إلى إله واحد بالذات ممـا أدى إلى عبادة سيفـا وفيشنو بشكل خاص والـذي كان أيضاً سبباً لظهور شيع كثيرة عبر الهنـد. ومن القرن العاشـر وما قبله كانت هناك زيـادة، على ما يبدو، في عدد ونفوذ الشيع التي عبدت فيشنو، أو تجسيده كريشنا، ويحمل كثير من أدب القرنين الحادي عشر والثاني عشر طابع النفوذ الفيشنوفي.

راما نوجا

رامـا نوجا الذي ترعرع في جنوب الهنـد في القرن الثاني عشر هو أول سلسلة طويلة من المعلمين الفيشنوفيين في الهند في العصور الوسطى، فقد أعلن وحدانية الإله تحت اسم فيشنو، وأعلن أن حب الإله هو طريق النجاة، وبـدا أن ملك كولا كان يميل لعقيدة سيفا، واضطـر راما نوجا للفرار من أراضيه إلى مايسور وأدخل ملك تلك البلد في دينه ومذهبه، وتلقى معتنقو الديـن الجديد من كل فئة من فئـات الشعب، ويقال إنه أسس سبعمائة دير قبل وفاتـه، وكانت البوذية قـد انقرضت تقريباً من الهنـد ولكن في هذا

الشـكل الجديد للهندوسية نكتشف الأثـر الهائل الذي تركته البوذية على الديانـة الفيدية القديمة التي اعتمدت على الطقوس والأضحيات وحولتها إلى ديانة لجموع الشعب.

راما ناندا

احتل راما ناندا المـكان الخامس في القطار الذي بدأه راما نوجا والذي نشـر عقيدته ومذهبه في القرن الثالـث عشر والرابع عشر في شمال الهند، وجعـل بينارس مقره الرئيسي، ولكنه سافر حـول الهند بعيداً ودعا لدين الإله الواحد تحـت اسم فيشنو، وناشد راما نوجـا الطوائف العليا وكتب باللغـة السانسكريتية، أما راما ناندا فناشد الشعـب ودعاهم للدين باللغة الهندية، لغة الشعب في شمال الهند. ودعمت الحركات الدينية في الهند، كمـا في أي مكان آخر، الثقافة الأدبية وتنمية اللغات ودعمت حركة راما نانـدا اللغـة الهندية وأثرتها، وبذلـك نجد أنـه في ذات الوقت الذي كان يؤسس علاء الديـن فيه النفوذ الإسلامي في شمال الهند، كان هناك رجل آخـر يدعو لحب إله واحد بين جمـوع الشعب في شمال الهند وقد قرّب الهندوس من كل الشيع والطوائف بمذهبه وأثرى اللغة والأدب في شمال

الهنـد بعمله طوال حياته. وينظر مؤرخ الهنـد نظرة ارتياح بعد سجلات الحـروب والأحداث السياسية إلى العمل الهادئ لهذا الرجل الذي أثّر في حيـاة وتفكير الملايين من الرجال والنساء المسالمين الذين اشتغلوا بالتجارة والصناعة والزراعة.

كبير

ناشد كبير، أحد تلاميذ راما ناندا إلى الهندوس والمسلمين على حدٍ سواء ودعـا إلى طهـارة الحياة والإيمـان الكامل بالإله. وقـال إن رب الهندوس هـو أيضاً رب المسلمين -على حد تعبـيره- . يقول «ما الفائدة من غسل فمـك أو عدّ خرزات سبحتـك أو الاستحمام بأنهـار مقدسة أو الانحناء في دور العبـادة إن دخل قلبك النفاق بينما أنـت تؤدي صلواتك أو تقوم بالحـج؟». «إن كان الإله يسكن المعابـد، فمن يسكن الكون؟». «ومدينة الإلـه الهندوسي هي في الشـرق (بينارس) بينما مدينة المسلمين في الغرب (مكة) ولكن إن بحثنا في قلوبنا سنجد إلهاً واحداً للهندوس والمسلمين». وتعاليـم كبير، والمعروفة باسم كبير شاورا محفوظة في بينارس ولكن أتباعه عديدين في الدكن ووسط الهند وجوجرات.

ناناك

دعـا ناناك لنفس وحدانية الإله الشهـيرة في البنجاب ويشتهر الجرانث (النصوص السيخية) الخاصة بناناك لأن الشيع السيخية التي أسسها اكتسبت أهمية سياسية في وقت لاحق. وُلد ناناك في عام 1469 ودعا الهندوس والمسلمين على حد سواء إلى أن يكونوا أتباعه، وأن يعبدوا الإله الواحد للكون، وقد ظل أتباعه لفترة طويلة شيعة مسالمة حتى جاءت اضطهادات أباطرة ديلهي الآخرين وقلبتهم إلى أشجع شيعة عسكرية في الهند الحديثة.

تشايتانيا

في البنغال ألهمت عبادة فيشنو أو كريشنا أول شعر وأغانٍ ظهرت في اللغة المحلية ودعا تشايتانيا لوحدانية الإله وعبادة إله واحد تحت اسم فيشنو أو كريشنا، ودعا هو أيضاً المسلمين والهندوس معاً للانضمام إلى شيعته ولكن أتباعه كانوا كلهم تقريباً من الهندوس، وفي يومنا الحالي يشكلون تقريباً كل السكان الهندوس في البنغال ما عدا الطوائف العليا الذين يلتزمون بعبادة سيفا، أو نظيرته ساكتي أو دورجا أو كالي.

دادو

وأخيراً، ترك دادو –وهـو مصلح ديني ولد في أحمد أباد عام –1544 إرثاً من الشعر امتدّ لعشرين ألفاً من السطور، ونشر خمسون تلميذاً تعاليمه حول راجبوتانا كلها.

الحركات الأدبية جنوب الهند

تماشت الثقافة الأدبية مع تلك الحركات الدينية حول الهند خلال عصر الحكم الأفغاني، ويفخر جنوب الهند بأربع لغات أدبية، وهي: تاميل، وتيليجو، واللغة الكارناتيكيـة، ولغة ماليالامية. ولكـن من بين تلك اللغات كانت تاميل الأكثر شهرة لأدبها القديم، ووجدت البوذية محركاً جيداً في لغة جنوب الهند كما كان في شمـال الهند، وهناك كم هائل مـن الأدب البوذي أو الأدب الجايني (نسبة إلى الجاينيـة وهـي ديانة هندية) في لغة تاميل يرجع من القـرن التاسع إلى القرن الثالـث عشر، وتعتبر الشينتاماني؛ وهي ملحمة رومانسية مكونة من 15،000 سطرٍ أفضـل نماذج هذا النوع. وعندما حلت عبادة فيشنو وسيفا تدريجياً محل البوذيـة في الجنوب، عكسـ الأدب هذا التغير. وتمت ترجمـة رامايانا إلى لغة تاميـل في حوالي عـام 1100 بعد الميـلاد، وتم تأليف عدد مهـول من الترانيم

لسيفا بين القرن الثاني عشر والخامس عشر، وظهر في نفس العصر أيضاً الكتاب العظيم المكون من أربعة آلاف من الترانيم لفيشنو.

ويرجع الفضل إلى جنوب الهند في إنتاج أفضل عالم ومُعلّق سانسكريتي شهير في العصور الوسطى أو عصر الحكم الأفغاني كما سمينا تلك الفترة، وجمع سايانا أو مادافا، وزير مؤسس المملكة الهندوسية في فيجاياناجار (1344)، تعليقاته الشهيرة عن الفيدات والأعمال المقدسة الأخرى، والتي نقلت للهند الحديثة الفهم التقليدي للماضي، وما زالت تعتبر مصدراً موثوقاً فيه حتى الآن. ولم يقم أي عمل آخر تم تأليفه في الألف سنة الماضية بحفظ ونقل، للهندوس الحداثي، التعليم القديم لآبائهم بهذا الشكل مثلما فعلت التعليقات الشهيرة لسايانا، وأتى جنوب الهند في مقدمة افتتاح الإصلاحات الدينية الحديثة، وفي مقدمة تأليف الأدب الحديث، ويقف جنوب الهند أيضاً في مقدمة العمل العظيم المتمثل في حفظ وتفسير الأدب القديم والمقدس لنا.

شمال الهند

إن اللغة الهندية هي اللغة المحلية في شمال الهند، ويبدأ الأدب الهندي

بملحمة تشاند التي أُلّفت في عهد آخر ملك هندوسي لديلهي، وتلت أيضاً الحركات الدينية لراماناندا وكبير التي أدت إلى تكوين كم هائل من الأدب الهندي المقدس. وتفخر راجبوتانا بالأناشيد البطولية والشعر المرتبط بالأعمال الحربية للقادة الإقطاعيين فيها.

الدكن

في الدكن كان شعراء ماهراتا الأوائل، الذين رجعوا للقرن الثالث عشر، كلهم من الشعراء الدينيين، ومما لا شك فيه أنهم تأثروا بتلك الحركات الدينية التي تأثرت بها الهند كلها، وكانت شخصية الشعر هي ذاتها إلى حد كبير في الأجزاء الأخري من الهند.

البنغال

في البنغال أيضاً كتب الشعراء، الذين كتبوا باللغة المحلية والذين كانت تآليفهم موجودة، عن كريشنا وأحبائه، الذين رمزوا إلى حب الإله ذاته لكل الكائنات. وكان جاياديفا قد ضرب المثل في القرن الثاني عشر بشعره السانسكريتي الخالد، جيتا جوفيندا، وفي القرن الرابع عشر حذا

بيديباتـي من بيهار وكانديداس من البنغال حذوه وألفا أغانٍ مؤثرة والتي مـا زال يغنيها ويقرؤهـا أبناء بلده، وسوف تشـير الترجمة التالية لإحدى أغـاني كانديداس، أقدم شاعر في البنغال مـا زالت تأليفاته موجودة باللغة المحليـة، كيف أن فكرة حـب وإيمان الكائنات كلها بالإلـه مختبئة بشكل خفـي في حب امرأة لحبيبها. وتتحـدث رادها بكل الحب الملتهب لامرأة وكل الإيمان الشديد لعابدة:

آه! كيف يمكن للكلمات أن تصف أفكاري

والصراع المتلهف الداخلي؟

في الحياة وعند الموت وبعد الميلاد

كن أنت سيد حياتي!

فقلبي مربوط إلى قدميك

وأتمنى عطفك وحبك

وأقدم كل حياتي وروحك

لأقدسك وأكون أمتك!

ولقد تساءلت إن كان على الأرض

في العالم الأدنى أو في السماء العليا

كائن خيّر ورحيم

ينظر إليَّ بعين الرأفة؟

ويذكر اسمي بصوت محب

للعالم الأدنى والأرض والسماء

ويمكن لرادها اللجوء إليه للمساعدة

من هو يا كريشنا! غيرك أنت؟

وعلى جانبي نهر الحياة

في جوكول وفي السماوات العلا

وحدها زهرة اللوتس المقدسة يمكن أن تنقذنا

وإلى تلك الزهرة ألجأ بحب!

فلا ترفضني، فأنا ضعيفة،

آه! لا تدر وجهك بعيداً

فسوى مالك حياتها،

لا تملك رادها ملاذاً آخر!

فلو افتقدتك للحظة،

يتملكني دوار مميت وصامت،

تمسك جيداً بكريشنا، يغني الشاعر العظيم،

وأرتديه كالقرط الثمين!

وفي القرن الخامس عشر تمت ترجمة الملحمتين السانسكريتيتين العظيمتين، رامايانا وماها–باهاراتا إلى الشعر البنغالي، وناشدت تلك الترجمات جموع الناس في العصور التالية، وأعطى المصلح الديني تشايتانيا، الذي دعا لعقيدة فيشنو في أوائل القرن السادس عشر، دفعة أبعد لثقافة الأدب البنغالي.

وبذلك نرى نشاطاً في الفكر والفعل تحت حكم الأباطرة الأفغان بتعدد وتنوع الحياة نفسها. وتبدو لنا أفعال الأباطرة والقادة العسكريين ذات أهمية قليلة عندما نقارنها بالتيارات الفكرية والدينية والأدبية والزراعية والتجارية والصناعية المتعددة المعاصرة والتي شغلت الأمة. والانطباع الذي يتولد لدينا من البحث الدقيق لكل تلك الحقائق ليست لبلد دمرتها الحروب والاستبداد باستمرار ولكن لبلد استكملت، تحت حكم ملوكها العقلاء أو الحمقى، بسلام مشوارها الزراعي وتقدمت في التجارة والصناعة ودعمت الشعر والفنون وكانت لها القدرة على التفكير لذاتها وأن تناضل من أجل الإصلاح الديني.

الرحالة الأجانب في القرن الخامس عشر

تؤكد شهادة الرحالة الأجانب الذين زاروا الهند خلال هذا العصر ذلك الانطباع. ولم يترك الكثير منهم سجلات عن رحلاتهم ويتعلق الكثير مما تركوه من العادات والطباع الغريبة والمعابد والصور والطقوس والاحتفالات الدينية الخاصة بما كانت تعتبر في هذا الوقت أرض العجائب، وبالرغم من ذلك فقد ألقت رواياتهم عن البلد، وبين الحين والآخر عن المدن والصناعات، ببعض الضوء على أحوال الشعب.

نيكولو كونتي

من أقدم الرحالة الأوروبيين للهند والذي ترك سجلات عن رحلاته هو نيكولو كونتي من مدينة البندقية، وقد زار الهند في أوائل القرن الخامس عشر وبهرته فيجاياناجار، التي كانت العاصمة الهندوسية لجنوب الهند، لثرائها وروعتها. ويصف المدينة على أنها تبلغ ستين ميلاً في دورانها وتحتوي على مائة ألف من الرجال القادرين على حمل السلاح. وبعدها زار كونتي البنغال وسرّته ثروتها وجمالها. ثم وصل إلى مدينة أسماها سيرنوفيم (سافارنا جرام في شرق البنغال) حيث كان يقال إن النهر تصل

سعته إلى ثلاثة عشر ميلاً (غالباً في الفصل الممطر). وكانت المدن والحدائق الجميلة تغطي ضفتي النهر، وصعد الغانج حتى وصل لمدينة شهيرة وقوية أسماها ماورازيا (مونغير)، والتي امتلأت بالذهب والفضة واللؤلؤ.

عبد الرزاق

ترك رحالة مسلم زار الهند في منتصف القرن الخامس عشر بعض الروايات المهمة أيضاً. فقد أرسل شاهرخ، خليفة تيمور على عرش فارس، عبد الرزاق إلى الهند طالباً منه أن يعطيه تقارير عن السواحل وعن البلد، وكان عبد الرزاق، مثل كونتي، بليغاً في وصفه فيجاياناجار، وقد أُحيطت المدينة بسبعة حوائط مكونين نفس عدد السياج بين بعضهم البعض. واحتوى اثنان من الحواجز الخارجية على المزارع والحدائق ولكن الأربعة الداخلية تكونت من البيوت والمتاجر والقصور، وكانت هناك أربعة من الدكاكين الهائلة حول قصر الملك وكانت هناك صالة مجالس عظيمة يدعمها أربعون من الأعمدة إلى اليمين، وإلى اليسار كانت وزارة المالية. وفي كاليكوت شهد عبد الرزاق احتفالاً ضخماً فيه جمع الأمير ألفاً من الأفيال.

فارثيما

تـرك لنا فارثيما روايات مشابهة، وقد زار الهند في نهاية القرن الخامس عشر تقريباً، وقد قابل في كامبي في جوجرات معتنقي عقيدة الجاين الذين عاشـوا هناك بأعـداد كبيرة. يقـول الرحالة إنهم كانوا رجـالاً لا يأكلون أي شـيء بـه دم أو يقتلون شيئاً به روح، ولم يكونـوا من المسلمين ولا من الهندوس ومفهوم النجاة عندهم هـو المعمودية، ووفقاً للأعمال الصالحة التـي يقومون بها، وقـد بدا ملك فيجاياناجـار للرحالة كأنـه أعظم ملك سمـع عنه وأن عاصمته كان بها أجمل هـواء وأجمل المناظر التي رآها في حياته، وكانـت كاليكوت ميناءً عالمياً وكان بهـا أناس من الجزيرة العربية ومصر وفارس والهند وبورما وسوماترا والجزر الهندية وكانت تجارتها في أيـدي المسلمين الذين بلغ عددهم خمسة عشر ألفاً، وزار فارثيما الساحل الشرقي للهند والبنغال ثم أبحر نحو بورما وسوماترا وبورنيو.

الفصل العاشر

عصر حكم المغول

(1526 – 1707 م)

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

بابار

من عام 1526 إلى عام 1530. وُلد بابار، وهو السادس بالوراثة بعد الغازي التتاري تيمور لينك، في عام 1482 والذي طُرِد بعد مغامرات عديدة من فرغانة وسمرقند واستولى على مملكة كابول في عام 1504. وبعد ذلك باثنين وعشرين عاماً انتصر في معركة بانيبات الأولى وانتزع عرش ديلهي من الأفغان.

وأصبح الراجبوت، الذين كانوا فخورين باستقلالهم الذي لم يُمَس، الآن من ألدّ أعدائه وتقدُم رانا سانجا من ميوار بجيش عظيم لينتزع عرش ديلهي. ولكن الراجبوت عادوا منهزمين في معركة فتح بور سيكري وأخذ بابار حصني شانديري ورينتامبر، وأخضع بيهار أيضاً قبل وفاته في عام 1530.

همايون وأسرة سور الحاكمة

من عام 1530 إلى عام 1556. عند وفاة بابار خلفه على العرش ابنه همايون في الهند، بينما صعد شقيق همايون على عرش كابول وبهذا أصبحت الهند وكابول مملكتين منفصلتين في أول بداية الحكم المغولي.

وكان لهمايون حياة متقلبة، فقد حاول انتزاع جوجرات من بهادرشاه وانتزاع جوانبار وبيهار من شير خان، وهزمه الأخير في عام 1539

و1540 واضطُـر حينها إلى مغادرة ديلهـي والبحث عن ملجأ في حاشية ملـك الفرس. وأثنـاء هذه الرحلـة العصيبة والخائبة خـارج الهند ولدت ملكته ابنه أكبر العظيم في عام 1542.

وبذلـك أصبـح شير خان إمبراطـوراً في عام 1540 تحت اسـم شير شاه وأسسـ أسرة سـور الحاكمة، وبهذا أعاد شمال الهنـد تحت الحكم الأفغاني لبعضـ الوقت، وانتزع البنجـاب من كامران وأخمـد العصيان في البنغال وأخضع مالوا، وهزم الراجبوت من عائلة ماروار وأخذ شيتور من الراجبوت في ميـوار ثم توفي في عـام 1545، وكان حاكماً قوياً وذا حكمة، وأدخل تعديـلات عظيمة إلى الحكومة المدنيـة وأسس الطريـق الرئيسي الأكبر من البنغال إلى البنجاب والذي يبقى حتى الآن أثراً يشهد ببعد نظره وحكمته.

حكمـت عائلة شير شـاه العرش لأحد عشـر عاماً أخرى ثـم بدأوا في الانحدار التدريجي، وثارت المقاطعات بما فيها البنجاب ومالوا وديلهي، ورأى همايون فرصته ودخل هندوستان مرة أخرى وهزم ابنه المغوار أكبر بقيادة القائد بيرام الجيش الأفغاني في حرب بانيبات الثانية في عام 1556. وبذلك أعاد المغول غـزو الهند، وبعد وفاة همايون الذي توفي بعد وقت قصير، خلفه ابنه في نفس العام.

أكبر العظيم

من عام 1556 إلى عام 1605. كان أكبر هو المؤسس الحقيقي للإمبراطورية المغولية في الهند. فقد كان هو أعظم ملك للهند منذ عصر فيكرامادیتیا في أوجين والذي سبقه بألف عام، وكان معاصراً لأعظم ملوك أوروبا ومنهم هنري الخامس ملك فرنسا وإليزابيث ملكة إنجلترا وفيليب الثاني ملك إسبانيا. ولم يوجد له مثيل في الهند حتى يومنا هذا. كان له كل صفات الحاكم العظيم والموهوب، الذكاء العسكري والشجاعة والثبات على أرض المعركة والكرم والثقة في الشعب في إدارة الأحوال المدنية والتعاطف والتفهم والثقة الحقيقية فيهم التي أثارت فيهم العرفان بالجميل والإخلاص والدعم المتناهي. كانت أهمية القوة العسكرية والانتصارات على أرض المعركة لاسمه العظيم لا تُذكر بالمقارنة بروحه الراقية وقدرته على الثقة والإشعار بالثقة وتعاطفه الكريم مع الجميع مما مكّن أكبر من تشكيل إمبراطورية عظيمة ومستمرة من المناطق المفرقة المأخوذة بالمعارك العسكرية التي تركها له والده وجده.

وخلال أربع سنوات من صعوده للعرش حرر أكبر نفسه من تلمذته لبيرام وتولى القيادة المباشرة للأمور، وثار بيرام خان ولكنه انهزم وتوفي بعد ذلك بقليل.

وما بين عام 1560 وعام 1567 كان أكبر دائم الانشغال في محاربة الاضطرابات وتسوية الدولة. فقد ردع عصيان قادته في مالوا وأود والله أباد، وأخضع بيهار وأبعد غزو البنجاب الذي قاده أخوه حكيم، وامتدت فتوحاته لجوندوانا في الجنوب، وترتبط قصة رومانسية غريبة بغزو جوندوانا التي كانت تحكمها في ذلك الوقت دارجافاتي، الأميرة الهندوسية، وإحدى أعظم الشخصيات في التاريخ الهندي، فقد كانت إدارية كفئاً واستمتعت بالرياضات والتمرينات الرجولية، وتبقى أنقاض القلعة التي حمتها من قوات أكبر واضحة بالقرب من جوبولبور، وما زال اسمها يتذكره الناس في المقاطعات المركزية.

لقد أمكن كسب صف القادة الراجبوت العظام بسياسة من الصداقة والثقة. وأعطى حاكم جايبور ابنته للزواج من أكبر، وأعطى حاكم جودبور ابنته للزواج من ابن أكبر، وتعاملوا مع قادة جايبور وجودبور باحترام فائق وولوهم المناصب العالية وكانوا من بين أكثر المؤيدين إخلاصاً للعرش. ولكن الراجبوت في ميوار رفضوا أي تحالف مع عائلة مسلمة وتقهقر البطل براتاب سينه إلى الجبال بعد استيلاء أكبر على شيتور، وظل مختفياً حتى وفاته، وبعد وفاته أسس راجبوت ميوار عاصمة جديدة في أوديبر والتي هي من أجمل المدن في الهند في يومنا الحالي.

وبمساعـدة أصدقائـه ومؤيديه الراجبـوت عمل على تقليص الإمبراطورية المسلمـة في شمال الهند. فتم غزو جوجرات في عام 1572–1573 بمساعدة راجـا (لقب يعني الحاكم) باجوان سينج حاكم جايبور وابنه بالتبني مان سينج الشهير، وتم توحيد البنغال مرة أخرى مع الإمبراطورية في عام 1576–1580 على يد القائد الهندوسي تودار مول التابع لأكبر، وخضعت كابول لحكم أكبر عنـد وفاة أخيه حكيـم، وأُرسِل راجا مان سينج وهـو أقوى قادة أكبر كحاكم لذلـك المكان. وأخيراً أُخضِعـت مملكة كشمير الهندوسيـة القديمة، التي طالما احتفظـت باستقلالها بسبب حاجزها الجبلي القوي، وأخيراً أتت تحت الحكم الإسلامـي في عام 1586. وتم غزو السند في عام 1592 وسقطت قندهار في يد أكبر في عام 1594 وبذلك امتدت إمبراطوريته، التي كسبها بقوته ووحدها بسياسته الحكيمة والتحاب والثقة، من براهمابوترا إلى جبال كابول وقندهار.

ولكـن أكـبر لم يبنِ فقـط ويعزز النفوذ المغـولي في شمال الهنـد، بل مدّ هذا النفـوذ أيضـاً إلى الدكن، ولفـترة طويلة ظلـت سلطانة تشاند، الملكـة البديلة لأحمـد ناجار، وهي شخصية بطوليـة في التاريخ الهندي، تدافع عن استقلال تلك الولاية، وقاد أكبر، الذي كان رجلاً كبيراً الآن يبلغ خمسة وسبعين عاماً، الجيش بنفسـه في عام 1599 وقُتلـت سلطانة تشاند على يـد قواتها المتمردة

وأُخـذت أحمد ناجـار. ولكن الولاية لم يتم إخضاعهـا نهائياً حتى حكم شاه جهان؛ واقتصرت فتوحات أكبر في الدكن على قاندش. وتوفي في عام 1605.

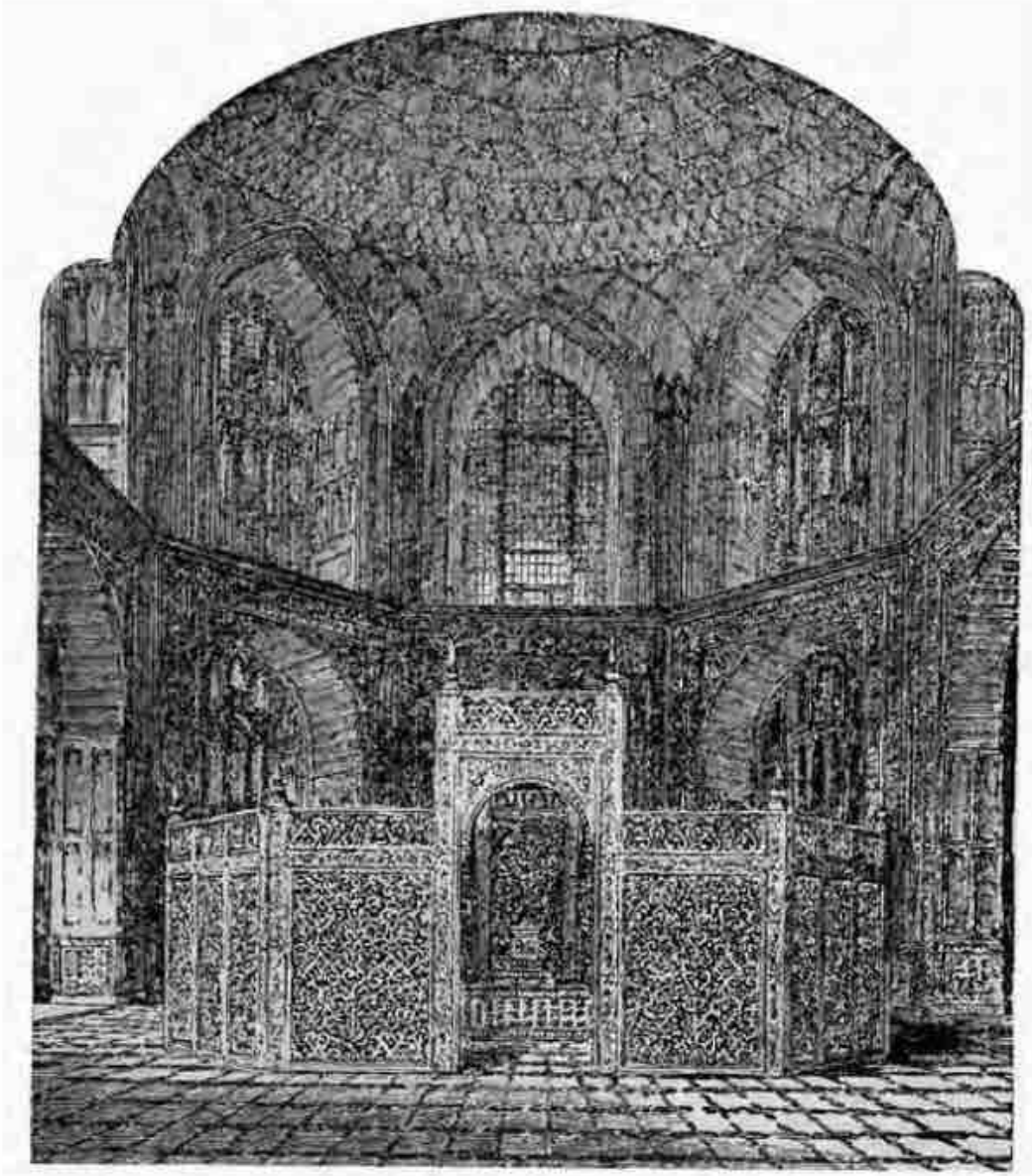

INTERIOR OF TAJ MAHAL, AGRA.

مقبرة أكبر في سيكاندرا

إدارة أكبر للأحوال المدنية

تتضح عظمة الملك الذي أسس الإمبراطورية المغولية في الهند في نظامه في إدارة الأحوال المدنية. فقد قسم إمبراطوريته العظيمة والكثيفة بالسكان إلى خمسة عشر سوبا أو مقاطعة، وهي: ديلهي وآجرا وكابول ولاهور ومولتان وجوجرات ومالوا وأجمير وأود والله أباد وبيهار والبنغال وقاندش وبيرار وأحمد ناجار، وتم تعيين والٍ في كل مقاطعة، وكان من تحته الديوان أو موظفو الضرائب وفوجار أو القادة العسكريون، وتم تعيين القضاة ورجال الشرطة في المدن من أجل إقامة العدالة وحفظ النظام؛ ولكن بالنسبة لداخل الدولة تركت شؤون الشعب بكل بساطة لمؤسساتهم القديمة، وهي المجتمعات القروية في شمال الهند والسلطة المؤسسة من الزيمندارات (ملاك الأراضي) في البنغال. وخلال الخمسة قرون من الحكم الإسلامي في الهند، من عام 1206 إلى عام 1707، تركت مؤسسات الشعب ذاتية الحكم دون مساس، ولبّوا واجباتهم في حفظ النظام في البلاد وتسوية النزاعات والاضطرابات ومعاقبة الجرائم والاعتداءات وحماية أرواح وممتلكات الشعب. وأكثر من ذلك فقد عملوا كحاجز بين الشعب وجشع الحكام؛ ولم تمس تجاوزات وقسوة الأباطرة والولاة، التي كثيراً ما نسمع عنها في التاريخ، حياة السكان الزراعيين والصناعيين المسالمين

في الهند والذين عاشوا تحت حماية مؤسساتهم التي زادها الزمن احتراماً.

وكان الإجراء الإمبريالي الأوحد الذي مس حياة جموع الشعب هو نظام الضرائب على الأراضي، وكان القائد الهندوسي تودار مول أيضاً وزير المالية لأكبر، وكان من أبرع الاقتصاديين التي عرفتهم الهند الحديثة، حيث تم عمل مسح لأراضي الإمبراطورية الشاسعة وقياس الأراضي وتسوية الإنتاج لكل فدان من الأرض وتحديد متطلبات الحكومة إلى ثلث إجمالي المحصول المُقدّر، وكان هذا الطلب ضعف القدر الذي فرضته القوانين الهندوسية، ولكن من الجدير بالذكر أن طلب أكبر هذا كان طلباً مثالياً ومن غير الممكن أن يكون قد فُرض حرفياً من سنة لأخرى، وكانت الضرائب المقدرة على الأراضي في شمال الهند، أي باستثناء كابول والدكن، حوالي مائة مليون روبيه أو عشرة ملايين جنيه إسترليني.

جاهانجير

من عام 1605 إلى 1627. كان جاهانجير، الذي خلف والده، أميراً ضعيفاً مفتقداً لقدرات أبيه العظيمة، ولمدة طويلة حكمت ملكته الشهيرة، نور جهان، الإمبراطورية. كانت نور جهان ابنة رجل فارسي، وفي صغرها كانت تذهب إلى حريم أكبر مع والدتها، وقد رآها جاهانجير وبهره جمالها، ورفض

أكبر عرضه ليتزوجها وتزوجت الفتاة من رجل يدعى شير أفغان والذي أُرسل إلى البنغـال حيث مُنح جايجار (أراضـي يمنحها الحاكم لقواده) وعندما أصبح جاهانجـير إمبراطـوراً ظل يتذكر الفتاة التي سحرتـه في شبابه. وقُتل شير أفغان وأُخذت نور جهان إلى ديلهي وبعدها بفترة تزوجها جاهانجير في عام 1611.

وفي ميـوار لقي براتـاب سينه البطل حتفـه واستسلم ابنه بسهولـة للإمبراطور الجديد، وفي الدكن كسرت أحمد ناجار القيود المغولية وأصبحت حرّة مرة أخرى تحت مالك أمبار، وفي الغرب استولى الفرس على قندهار من يد قوات جاهانجير.

خلـق تولي الملكـة نور جهان لزمام كل الأمـور معارضة قوية؛ وثار ابن الإمبراطـور وقائده ماهابات خـان، وفي وسط تلـك المشاكل والحروب توفي الإمبراطور في عام 1627، وزار سير توماس رو، وهوسفير إنجليزي، حاشية جاهانجير في عام 1615.

شاه جهان

من عام 1627 إلى عام 1658. عاد ابن جاهانجير الأكبر سريعاً من الدكن وأعلـن نفسه إمبراطوراً في عام 1628، وأمّن عرشه بقتله الوحشي لأخيه وكل أبناء عائلة أكبر الذين أمكن لهم الطموح في العرش.

وتتميّز فترة حكم شاه جهان بخسارة واحدة وزيادة إضافية مهمة للإمبراطورية المغولية. فقد فقدت الهند قندهار وجزءاً كبيراً من أراضي كابول نهائياً. ومن ناحية أخرى تمت إضافة ولاية أحمد أباد بشكل نهائي الآن وتم إجبار الولايتين المسلمتين الأخريين في الدكن، وهما بيجابور وجولكوندا، على دفع الجزية لديلهي.

وبلغت العمارة الإسلامية ذروتها في الهند في حكم شاه جهان. فنرى روعة وجمال مسجد الجمعة وديوانه الخاص (الذي كان يُستضاف فيه المبعوثون والضيوف) في ديلهي ومسجد معطي وتاج محل في أجرا والمشكلين من الرخام واللذين يثيران إعجاب ودهشة كل مسافر حديث.

انتقمت الوحشية والإجرام الذي قتل بهما شاه جهان، من أجل المحافظة على العرش، منه في كِبَر سنه. فقد ثار ضده أبناؤه الأربعة وخلعه أورنجزيب أصغرهم وأقواهم وصعد على العرش في عام 1658. ثم أعدم أورنجزيب اثنين من إخوانه ومات الثالث موتة بائسة هارباً إلى أراكان.

أورنجزيب

من عام 1658 إلى عام 1707. كان اعتداء المغول على استقلال الولايات المسلمة الجنوبية مثل أحمد ناجار وبيجابور وجولكوندا،

أعمـالاً مشكـوكاً في حكمتها. فقـد كانت تلك الولايـات تدعم النفوذ الإسلامـي في الجنوب وأضعف تلك الولايـات الحكم الإسلامي الذي لم يتمكـن من الصمود في الدكن من ديلهي، وقوي نفوذ الماهراتا مع سقوط الولايات الإسلامية.

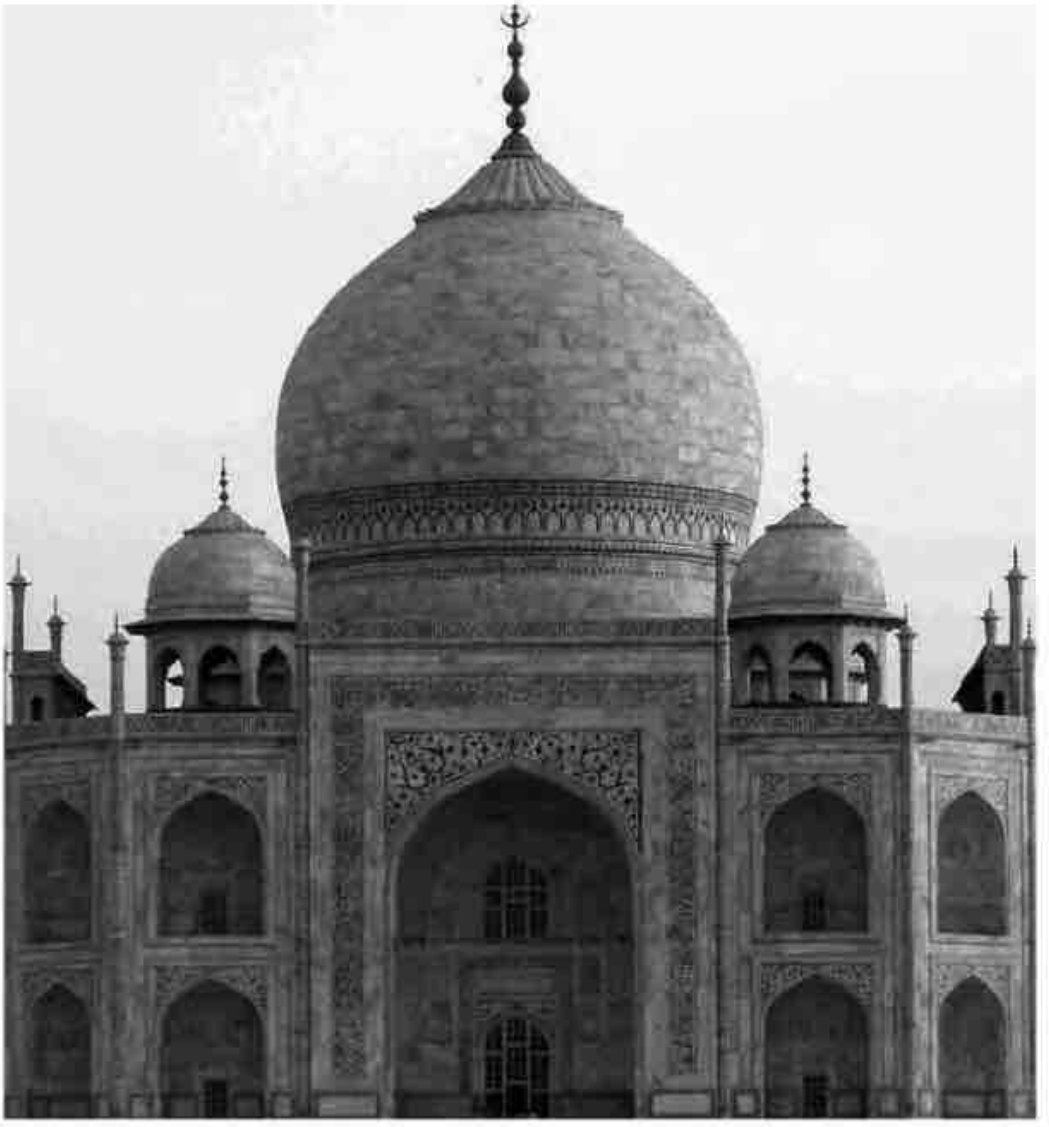

تاج محل، أجرا

ويرفرف اسم سيفاجي عالياً بين الأسماء الهندوسية العظيمة في العصور الحديثة كما يرفرف اسم أكبر عالياً بين المسلمين، وقد بنى أكبر الإمبراطورية المغولية في القرن السادس عشر؛ وبنى سيفاجي إمبراطورية ماهراتا في القرن السابع عشر. وفي سن صغير انتهز سيفاجي فرصة ضعف الولايات الإسلامية الجنوبية من أجل القيام بحملات النهب على أوسع وأعلى المستويات. فقد استولى على عدد من الحصون الجبلية وقام بحرب عشوائية مع بيجابور وأخيراً عقد اتفاقية مع الولاية في عام 1662، والتي من خلالها أصبح يمتلك الأراضي كلها من بونا إلى نهر كريشنا. وفي السنة التالية أخذ بونا من قائد أورنجزيب، وفي عام 1664 أعلن استقلاله صراحة وأُعطي لقب راجا.

وأصبح أورنجزيب الآن يمكنه اللجوء لقادته الهندوس، فأرسل جازوانت سينه من جودبور أولاً، ثم جاي سينه الأقوى من جايبور، ضد قائد الماهراتا. ولم يتمكن سيفاجي من مقاومة القائد الإمبريالي، واستسلم لجاي سينه، وتنازل عن بعض أراضيه ووافق على الاحتفاظ بالباقي كإيجار من الإمبراطور حتى إنه أقنعه بزيارة ديلهي وكانت المعاملة الطيبة في تلك المناسبة كفيلة بأن تجعله صديقاً للعرش المغولي للأبد، ولكن أورنجزيب

الغادر سجنه ومع ذلك هرب الماهراتا صاحب الحيلة وعاد إلى بلده في عام 1666 وهو يستشيط غضباً ويتوّعد بالثأر ضد النفوذ المغولي.

وتوفي جاي سينه وهو في طريقه إلى ديلهي، ولم يستطع جازوانت سينه تحقيق أي شيء وعقد اتفاقية مع سيفاجي واعترف به كراجا (كحاكم). ولم يكن ماهابات خان، الذي كان قد أرسله أورنجزيب مع 40،000 من القوات، بأكثر فلاح، وقد هزم سيفاجي القوات المغولية الهائلة على أرض المعركة. وفي عام 1674 توّج سيفاجي نفسه مرة أخرى ملكاً مستقلاً.

وفي العام التالي عبر سيفاجي نهرناربادا (أونارمادا) وللمرة الأولى قام بحملاته التدميرية شمال ذلك النهر. وفي عام 1676 عبر نهر كريشنا متجهاً نحو الجنوب وعبر قريباً من مادراس حيث كان الإنجليز على وشك بناء حصن يسمى حصن سينت ديفيد. وامتدت أراضي سيفاجي الشاسعة من نهر ناربادا في الشمال إلى ما وراء نهر كريشنا في الجنوب، وتوفي وهو في قمة نفوذه ومجده في عام 1680. وفي فترة لم تتجاوز فترة حياته رفع قدر الماهراتا إلى قوة سياسية عظيمة في الهند.

وأكمل قهر واضطهاد أورنجزي بهلاك الإمبراطورية المغولية. فقد منع أي إظهار لمظاهر العبادة الهندوسية ومنع الاحتفالات الهندوسية، ودمّر

العديد من المعابد الهندوسية الشهيرة، وفرض الجزية عليهم وأصدر قانوناً غير منطقي بمنع أي هندوسي من ركوب الحيوانات الصغيرة أو ركوب فرس عربي دون إذن، وبدأ حرباً شرسة ضد الراجبوت على أتفه الأسباب وعزل تلك الأمة للأبد عن عائلة ديلهي بتدميره لأراضيهم وحرق قراهم وتقطيع أشجار الفواكه واختطاف نسائهم وأطفالهم. وبعد وفاة سيفاجي عبر نهر نارابادا من أجل غزو الدكن.

ولأن الماهراتا كانوا قوة عظيمة في ذلك الوقت كان من الحكمة أن يترك أورنجزيب، بل يقوي ويدعم الولايات الإسلامية، وهي: بيجابور وجولكوندا. ولكن تفكير أورنجزيب الضيق لم يكن قادراً على استيعاب تلك السياسة الحكيمة وتلهّف على تدمير وتحطيم كل مظهر للنفوذ غير نفوذه هو، وأخذ بيجابور في عام 1686 وجولكوندا في عام 1687 والتي كانت آخر بقايا المملكة باهماني (الولاية الإسلامية في الدكن) والتي تأسست عام 1347 وانتهت في الدكن بعد 440 عاماً.

وكرّس أورنجزيب كل قواه من أجل تدمير الماهراتا ولكنه فشل. وتفادى الماهراتا معركة ضارية (متفق على مكانها وزمانها) وانتشر فرسانهم المهرة على كل جانب واجتاحوا الدكن بينما كانت محاولات أورنجزيب في

الاستيلاء على القلاع غير المعروفة غير مثمرة. ويقول المؤرخ المسلم خافي خان، «بالقتال الشديد وبالإنفاق من الكنوز الهائلة التي جمعها شاه جهان وبتضحيات الآلاف من الرجال، توغل (أورنجزيب) في بلادهم المنكوبة، وقد أخضع القلاع القوية وطردهم من بيوتهم ومنازلهم، ولكن شجاعة الماهراتا ازدادت وتوغلوا في الأراضي القديمة للعرش الإمبريالي ونهبوا ودمروا أينما ذهبوا».

وبعد الضعف والإنهاك الذي تسبب فيه نظام من الحروب لمدة عشرين عاماً ضد عدو غير ملموس، تقهقر جيش أورنجزيب العظيم، الذي كان قد غزا الدكن وتظاهر بشكل مبالغ فيه بالثراء والعظمة غير المسبوقين في الجنوب، في عار واضطراب وسط صيحات وإهانات ونيران الماهراتا المستمرة الذين لاحقوهم، وأخيراً وصل أورنجزيب إلى أحمد ناجار وتوفي عام 1707 وسط أنقاض إمبراطورية عظيمة دمرها اضطهاده وقهره خلال فترة حياته.

وكثيراً ما قورنت شخصية أكبر العظيم الذي بنى الإمبراطورية المغولية بشخصية أورنجزيب الذي هدمها وكانت الدراسة مثمرة. لقد امتلك كل من أكبر وأورنجزيب صفات هائلة تثير إعجاب الرجال. فقد كان كلاهما

يعرف بشجاعته في الحروب وثبات غاياته ووسرعة وقوة أفعاله. وكلاهما تميز بالاجتهاد والقدرة على العمل مما أذهل معاصريهم، وتمتع كلاهما بذكاء نادر وحكمة قوية وبصيرة ثاقبة في النفس البشرية. ولكن لهذا كله أضاف أكبر تعاطفاً وسعة صدر وتسامحاً حكيماً وثقة كريمة وثقة في رعاياه مما ساعده على تأسيس وتوحيد إمبراطورية عظيمة من مجرد مناطق متفرقة. ومن ناحية أخرى تميّز أورنجزيب بازدواجية باردة وعدم ثقة ثابتة في نفسه لكل البشر وسياسة اضطهاد ولوّم وعدم رحمة تجاه رعاياه والتي عزلت الراجبوت أولاً ثم دمرت الولايات الإسلامية في الدكن وأخيراً حطمت الإمبراطورية العظيمة التي كان جده الأكبر قد أسسها.

الفصل الحادي عشر

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

أحوال الشعب تحت الحكم المغولي

مـن بين السجلات القيمة التي تُركت لنا عـن حكومة أكبر كانت ما يسمى بآيين أكبر[1]، وهو بيان وصفي وإحصائي عن إمبراطوريته العظيمة. ويبدأ العمل بوصف عائلة الإمبراطور وبيته ويعطينا معلومات قيمة عن الصناعات المختلفة وأعمـال الشعب. ولكن الجزء الأكثر قيمـة في العمل هو البيان الإحصائي عن الخمسـ عشرة سوباً (مقاطعة)، قبل أن يتم غـزو كشمير والسند وقندهار وأن ينضموا إليهم، ويعطينا فكرة عامة عن أحوال الشعب في القرن السادس عشر.

(1) ترجمهـا مـن الفارسية إلى الإنجليزية (وهذه الترجمـة مأخوذة عن الإنجليزية) الأستاذ الدكتور بلوكمـان وكولونيل جاريت ونشرها الجمعية الآسيوية في البنغال. ولقد اعتمد الكاتب على هذه الترجمة لدقتها وعلميتها ولم يعتمد على ترجمة السـيد جلادوين الأقدم.

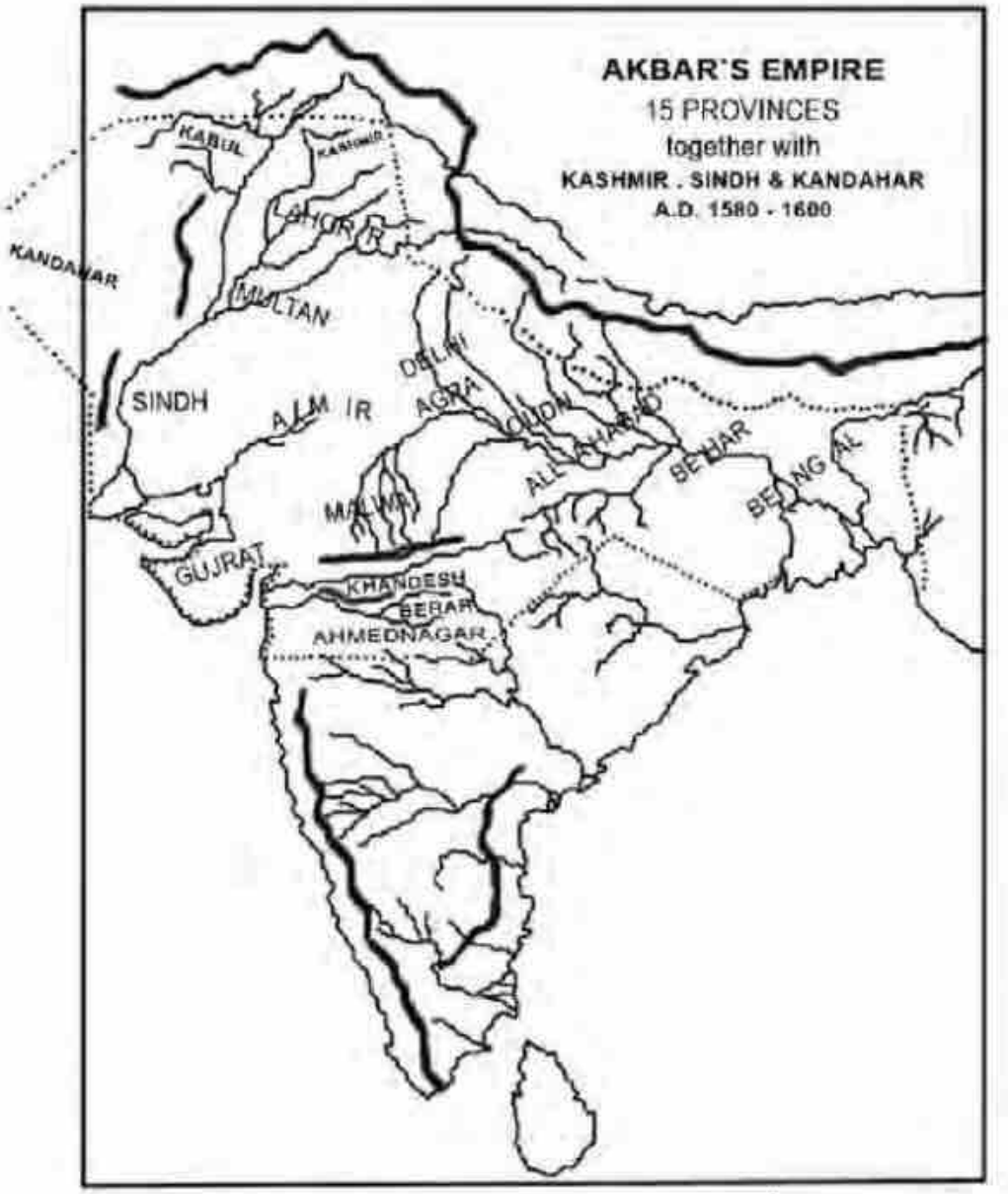

إمبراطورية أكبر (15 مقاطعة) بالإضافة إلى السند و كشمير و قندهار
عام 1530-1600 بعد الميلاد

ومن بين الخمس عشرة سوبا أو مقاطعة التي انقسمت إليها الإمبراطورية كانت كابول خارج الحدود الطبيعية للهند بينما لم يكن قد تم احتلال قاندش وبيرار وأحمد ناجار بشكل كامل، ومثلت الإحدى عشرة سوبا

الأخرى شمال الهند كله تقريباً. والملخص الآتي عن الإحدى عشرة سوبا مستخلص من آين أكبر.

لقد كان لمقاطعة البنغال أربعة وعشرين ساركار أوحي. وكان العائد الضريبي 14،961،482 روبيه أو تقريباً مليون ونصف المليون جنيه إسترليني. وكان الزمينارات (ملاك الأراضي) بشكل أساسي ينتمون إلى طائفة كاياسثا. وكانت القوات المحلية، والذين كانوا قوات احتياطية تحت الجايجيردارات والزيمينداراتت، تتكون من 23،330 من الفرسان و801،150 من المشاة بالإضافة إلى الأفيال والمدافع والمراكب، وأنتج حاكم غوراغات (ديناجبور ورانجبور حديثاً) الحرير. وأنتج حاكم سونارجون (داكا حديثاً) الموصلين الفاخر، وكان تشيتاجونج ميناءً هائلاً وكان ملجئاً للتجار المسيحيين، وكان لحاكم ساتجون (هاجلي حديثاً) ميناءان يلجأ لهما الأوروبيون، وكان لكوتاك حصن حجري واشتهرت بيوري بمعبد جاجاناث العظيم وكان بالاسور وجالاسور مكانين مهمين في أوريسا، وكان الأرز هوالطعام الرئيسي للشعب في مقاطعة البنغال وكانت المحاصيل وفيرة.

وكان لمقاطعة بيهار سبعة أحياء، وكان العائد الضريبي لها 5.547.985

روبيه أو أكثر من نصف مليون جنيه إسترليني بقليل، وكانت القوة الاحتياطية فيها تتكون من 11.415 من الفرسان و449.350 من المشاة، بالإضافة إلى المراكب، وازدهرت الزراعة بدرجة عالية وبشكل رئيسي زراعة الأرز، وأكل الفقراء الحبوب وكان قصب السكر وفيراً، وكانت باتنا مدينة مهمة. وكان في راججار محجرة من الحجر الذي يشبه الرخام، وحمى مونغير سوراً قوياً من الحجر من الغانج إلى التلال. وفي شامبارم نما نبات البيقة دون حرث، وكانت تيرهت مكاناً قديماً للتعليم الهندوسي وكانت روتاس حصناً جبلياً يصعب اختراقه.

وكان لمقاطعة الله أباد عشرة أحياء، وكان العائد الضريبي 5،310،695 روبيه أو أكثر من نصف مليون جنيه إسترليني، وكانت القوات المحلية الاحتياطية من 11،375 من الفرسان و237،870 من المشاة بالإضافة إلى الأفيال، وكانت الله أباد مكاناً مقدساً للحج وكانت بينارس مدينة كبيرة وأكثر المدن قدسية للهندوس والمقر الرئيسي للتعليم الهندوسي، وكانت جوانبور مدينة كبيرة وكانت كالينجار حصناً جبلياً هندوسياً قديماً، وازدهرت الزراعة في المقاطعة ونُسجت الملابس الجميلة في بينارس والسجاد في جوانبار.

وكان لمقاطعة أود خمسة أحياء، وكان العائد الضريبي لها 5.043.954 روبيه أو ما يقرب من نصف مليون جنيه إسترليني، وتكون الجيش المحلي من 7640 من الفرسان و168.250 من المشاة بالإضافة إلى الأفيال، وازدهرت زراعة الأرز، وكانت أود إحدى أكبر مدن الهند والعاصمة القديمة لبطل الرامايلنا، وكانت بارايش مدينة كبيرة وكان بها مصنع كبير لصك العملات لتصنيع العملات النحاسية بالقرب منها، وهبطت شعوب مناطق الهيمالايا إلى السهول ببضائعهم من ذهب ونحاس ورصاص ومسك وعسل وزنجبيل والأقمشة الصوفية والنسور والصقور حاملين البضائع على ظهورهم وعلى الخيول والماعز واستبدلوها بالملابس والملح والحُليّ والزجاج والأوعية الفخارية الموجودة في السهول. وكانت مدينة لوكنو مدينة كبيرة وسط محيط خلاّب.

وكان لمقاطعة آجرا ثلاثة عشر حيّاً. وكان العائد الضريبي لها 13.656.257 روبيه أو ما يقرب من مليون ونصف المليون جنيه إسترليني. وتكونت القوات المحلية من 50.681 من الفرسان و577.570 من المشاة بالإضافة إلى الأفيال، وكان المناخ جيداً وازدهرت الزراعة وكانت الفواكه والأزهار والشمام والعنب وفيرة، وكانت أجرا هي عاصمة

إمبراطورية أكبر. (لقد بنى جلالته حصناً من الحجر الأحمر مثلما لم يرَ أي من الرحالة من قبل، وتحتوي على أكثر من خمسمائة مبنى ماسوني على شكل التصميمات الجميلة من البنغال وجوجرات والتي صاغها النحاتون المهرة والفنانون البارعون كنماذج معمارية). وقد بنى أكبر القصور في سيكري أيضاً وفي كلا المكانين نُسج السجاد والمنسوجات الفاخرة وحصل الكثير من الحرفيين على عمل دائم هناك، وزُرعت المانجو الكبيرة والفاخرة في المناطق المجاورة وتم تصنيع السكر ناصع البياض، وتم الحصول على صبغات بأعلى جودة في جوارها، وكان ماثورا مكاناً مقدساً للهندوس واحتوى على المعابد الراقية بينما كانت قنوج هي العاصمة الهندوسية القديمة. وكان جواليور حصناً جبلياً يصعب تخطيه، وأنتجت ألوار الزجاج والسجاد الصوفي وكان في بيراث وأماكن أخرى مناجم نحاس.

واحتوت مقاطعة ديلهي على ثمانية أحياء، وكان العائد الضريبي 15.040.388 روبيه أو حوالي مليون ونصف المليون جنيه إسترليني. وتكونت القوات المحلية من 31.490 من الفرسان و242.310 من المشاة، وكانت الكثير من الأراضي في المقاطعة عرضة للفيضانات. وكانت

المحاصيل جيدة وزُرعت فواكه (إيران وتوران وهندوستان) هنا، وظلت ديلهي مكاناً ملياً بالآثار القديمة وبقيت لفترة طويلة عاصمة للمسلمين. وكانت هناك مناجم ذهب وفضة وحديد ونحاس في كومون بالإضافة إلى غزال المسك وثور التبيت والصقور والنسور والحرير والعسل، وأسس الإمبراطور فيروز هيسار والتي جلب إليها مياه نهر يومنا عن طريق الشق، وكانت سارهند مكاناً مميزاً، وثانيسفار مكاناً هندوسياً قديماً مقدساً بالقرب من منطقة كورو كشيترا حيث يقال إن حرب ماها باهراتا وقعت هناك.

واحتوت مقاطعة لاهور على خمس دواب أو مناطق بين الأنهار، وكان العائد 13.986.460 روبيه أو أقل من مليون ونصف المليون جنيه إسترليني. وتكونت القوات المحلية من 54.480 من الفرسان و426.086 من المشاة، وكانت المقاطعة عامرة بالسكان وخصبة وكان الري يعتمد بشكل رئيسي على الآبار، وشتاؤها أشد من أي مكان آخر في الهند والحرفيون فيها مهرة، وتم الحصول على الذهب والفضة عن طريق غسيل التربة في بعض المناطق. أما لاهور فكانت مدينة كبيرة وجعل منها أكبر مدينة قوية بالتحصينات التي أقامها وجمّلها بالحدائق التي أحاطتها. وناجاركوت كانت حصناً ومكاناً هندوسياً للحج، ووُجد ملح الصخور في سلسلة جبال تيلا.

وكان لمقاطعة مولتان عائد ضريبي بقيمة 3.785.090 روبيه أو أقل من أربعمائة ألف جنيه إسترليني، وتكوّن الجيش المحلي من 18.785 من الفرسان و165.658 من المشاة. وكان المناخ مشابهاً لمناخ لاهور ولكن الأمطار أقل والحرّ أشد. أما مولتان فكانت مدينة قديمة وكان بها حصن من الطوب وفي بهكر قلعة أخرى. ومن بهكر امتدت الصحراء الشاسعة والتي هبت فوقها رياح السموم خلال ثلاثة أشهر من الجو الحار، وغير نهر السند مجراه من وقت لآخر وتبعت الزراعة والقرى مساره.

وكان لمقاطعة أجمير سبعة أحياء. والعائد الضريبي 7.210.039 روبيه أو ثلاثة أرباع مليون جنيه إسترليني. وتكونت القوات المحلية من 86.500 من الفرسان و347.000 من المشاة. وتربتها رملية وأمكن الحصول على المياه على عمق شديد واعتمدت المحاصيل على الأمطار. وكان جاوار هو أكثر المحاصيل وفرة، وعاش الشعب في أكواخ مصنوعة من خشب البامبو على شكل خيم، وتكونت المقاطعة من ولايات الراجبوت ميوار وماروار وهاروتي (كوتا وباندي) والذين كانوا تقريباً تحت حكم القادة الراجبوت والذين كان ينتمون بولائهم لأكبر.

وكان لمقاطعة جوجرات تسعة أحياء. وكان العائد 10.920.557 أو أكثر

من مليون جنيه إسترليني، وتكوّن الجيش المحلي من 12.440 من الفرسان و61.100 مـن المشاة، وكانت التربة رملية ويعد جـاوار وباجرا الطعامين الرئيسيـين للشعب، وتم استيراد القمح من أجمير ومالوا والأرز من الدكن. ومن ميناء باتان البحري إلى بارودا امتلأت الأراضي بشجر المانجو، والذي أنتـج أجود الثمار، ونما التين والشمـام والفواكه والزهور بغزارة، ورصعوا عرق اللؤلؤ بمهـارة وأنتجوا أقمشة مشغولة بخيوط من ذهب بالإضافة إلى المخمل والمشغولات، وقلدوا أيضاً الأقمشة الفارسية والتركية والأوروبية. وأيضـاً قاموا بتصنيع السيوف والخناجر والسهام الممتازة وكانت لهم تجارة حيويـة في مجال المجوهرات والفضة. وكانت أحمد أباد –عاصمة المقاطعة في عصـر أكبر– مدينة غنية ولها حصنـان وبها ألف مسجد، وكان كامباي ميـنـاءً بحرياً مزدهراً وبـه المباني الفاخرة وتردد عليـه التجار من أمم عديدة. وسكـن جهالوار التي كانت مقاطعة منفصلـة للراجبوت من سلالة جهالا

وصـدّرت باتـان الملابس القطنيـة الفاخـرة، وكان شامبانير حصنـاً جبلياً تاريخيـاً وممتلئاً بالفواكـه، وكان سـورات ميناءً بحرياً شهـيراً بالقرب من مصبات نهر تابتي وقد استقر البارسيون في هذا الحي بسبب تسامحه الواسع حيث تتمتع كل شيعة بحريتهـان، ولإهمال وزراء الدولة وقادة المقاطعات الحدودية أصبحت العديد من تلك الأحياء في يد الأمم الأوروبية.

وكان لمقاطعة مالوا اثنا عشر حياً. وكان العائد 6.017.376 أو ما يزيد على نصف مليون جنيه إسترليني. وتكوّن الجيش المحلي من 29.668 من الفرسان و470.361 مـن المشاة، بالإضافـة إلى الأفيال، وهذه المقاطعـة نوعاً ما أكثر ارتفاعاً من باقي المقاطعـات ومناخها معتدل، وقد نمت شجرات الصفصاف بشـكل طبيعي على ضفاف الأنهـار وأيضاً الزنبق والزهـور بكل الألوان في ظـلال الأشجـار، وتكثر فيها البحـيرات والوديان الخضـراء والقصور العالية والبيـوت الريفية البسيطة التي تنفست هواء أرض الخيال، وتوفرت المحاصيل وزُرع القمح والخشخاش وقصب السكر والمانجو والشمام والعنب، ونُسجت الأقمشة مـن أفخر الخامات، وكانـت أوجين مدينة كبـيرة وعريقة واعتبرها الهندوس مكانـاً مقدساً ويوجد بها 360 معبـداً في أحيائها. وفي تشاندري حصن حجري و14.000 بيت من الحجر، وهي العاصمة القديمة لبوجا.

عائد الأراضي في شمال الهند

يعطينا البيان المختصر أعلاه فكرة معقولة عن أحوال شمال الهند تحت حكم أكبر المستنير، وتم تقدير العائد من الأراضي من الإحدى عشرة مقاطعة على أنه ثلث الإنتاج تقريباً؛ ولكن هذه النسبة المثالية لم تُفرض حرفياً وفي بعض المقاطعات، يقال إنه لم يكن هناك قياس للأراضي، والعائد الكلي عن الأراضي في الإحدى عشرة مقاطعة التابعة لأكبر حوالي عشرة ملايين جنيه إسترليني.[1]

(1)

	روبية
البنغال	14.961.482
بيهار	5.547.985
الله اباد	5.310.695
أود	5.043.954
آجرا	13.656.257
دلهي	15.040.388
لاهور	13.986.460
مولتان	3.785.090
أجمير	7.210.039
جوجرات	10.920.557
مالوا	6.017.376
المجموع	101.480.283

من بين الإحدى عشرة مقاطعة تلك يقابل الثمانية الأولى تقريباً مقاطعات البنغال وشمال الغرب وأود والبنجاب كما هي الآن تحت الحكم البريطاني. وكان تقدير عائد الأراضي لتلك المقاطعات في حوالي عام 1580 تقريباً 77.332.311 روبيه بينما عائد الأراضي الذي تحقق فعلياً في عام 1896–1895 من الأربع مقاطعات المقابلة لهم في المساحة تقريباً تحت الحكم البريطاني يساوي حوالي 124.797.780. ويظهر من خلال هذه الأرقام أن تقديراً أكبر للأراضي كان معتدلاً مقارنة بتقدير الأراضي في الوقت الحالي.

الجايجيردارات والزيميندارات

كانت الأراضي كلها في الدولة، نظرياً، ملكية للحاكم ومن الممكن للإمبراطور تقسيم الإقطاعات أو الجايجارات وإعطاؤها لقادته المميزين أو الأشخاص المفضلين لديه، وكان القادة العسكريون والمدنيون يكافؤون بهذه الطريقة بدلاً من الأجور؛ ولكن لأن تلك الجايجارات أو الأراضي كانت تورث من الأب لابنه، كان إعطاء كل هذه الأراضي خسارة نهائية للعائد الضريبي للدولة، وقد رفض أكبر فكرة تقسيم الأراضي وتبنى نظام إعطاء قادته النقود كأجر ولكن الملوك الضعاف لم يتبعوا هذا النظام وتضاعفت الأراضي المقسمة عبر الهند كلها، وفي عزبهم كان الجايجيردارات والزيمندارات لهم اليد العليا في الأمور الجنائية وأمور الإدارة المدنية وحفظ النظام، وفي أحيان ليست بالقليلة تحارب الجايجيردارات والزيمندارات مع بعضهم البعض، مثلما فعل البارونات واللوردات في أوروبا في العصور الوسطى.

التجارة والضرائب

أعاقت رسوم النقل والضرائب الباهظة التجارة الداخلية كثيراً، وكان

أكبر ضد تلك الابتـزازات وأطاح بمعظمها. ويخبرنا المؤرخ المسلم خافي خـان أن أورنجزيـب قام بإلغاء حـوالي ثمانين من تلـك الضرائب في مرة نـادرة من نوعها، ولكن الأوامر الإمبريالية لم تكن دائماً مطبقة فيما يتعلق بالجايجـيرادارات والزيمنداراتومما لاشك فيـه أن الابتزازات التي طلبها أصحـاب النفـوذ أرهقت التجارة والصناعـة في الهند كما كان الحال في العـالم كله في ذلـك الوقت. ولكن بالرغـم من تلك المعوقـات ازدهرت الصناعـة والتجـارة في الهند نهايـة الحكم الإسلامي وحتـى بداية القرن التاسع عشـر، وملأت المصنوعـات الهندية الأسـواق الأوروبية وقُدّرت المنسوجات الهندية في كل العالم المتحضر.

الحركات الدينية

لم تختفِ التعاليم الدينية لراما نوجا وراما ناندا ولكبير وتشايتانيا ولناناك ودادو من الهنـد، ولم تقتل الأساطير والعقيدة التـي تؤمن بالآلهة العديدة والمعابـد التـي لا تعـد ولا تحصى والطقوس ورحلات الحـج، في قلب السـكان الهندوس الفكرة السامية عن عبادة الإله الواحد، وكان التنافس بشـكل رئيسي بين شيـع سيفا وشيـع فيشنو، مثلما كانـت النزاعات في

العصور الوسطى في أوروبا، تنازعاً حول مسمى؛ وبينما عبدت الطبقات العليا بشكل عام في الهند الإله تحت اسم سيفا أو ساكتي، اتجهت الطبقات الأكثر تواضعاً إلى فيشنو أو كريشنا على أنه الإله الأوحد للكون، والذي ظهر بأشكال مختلفة وتلقى العبادة تحت أسماء مختلفة. وكما كان الحال في الهند القديمة كان الحال في الهند الحديثة، فقد تواجدت ممارسات عبادة أكثر من إله جنباً إلى جنب مع مفهوم لم يغب أبداً عن الأذهان بوجود إله واحد للكون كله، وكان هذا الاعتقاد مترسخاً لدى المصلحين الدينيين في الهند حتى إنهم لم يترددوا في تعريف إله الهندوس على أنه إله المسلمين وإله البشرية كلها.

العقيدة الإلهية لأكبر

تفهمت روح أكبر المستنيرة والمتسامحة روح تلك التعاليم؛ وينتقده المسلمون المتدينون لتبنيه وإعلانه للعقيدة التي كانت شكلاً انتقائياً للتوحيد الخالص، وقد كانت (عقيدته الإلهية) مبنية على اللاهوت الطبيعي وتكونت من أفضل الممارسات من كل العقائد، وقد عبد الشمس على أنها تمثل روح الكون وكان هو ذاته رئيس أتباع عقيدته الجديدة،

ولكـن عقيـدة انتقائيـة مثل هذه لا تقنـع ولا تشجع الشعـب وقد ماتت (العقيدة الإلهية) لأكبر معه.

الأدب الديني في البنغال

شجع حكم أكبر الذي مثل حقبة تاريخية مهمة الحركات الثقافية في كل مقاطعة في الهند جنباً إلى جنب مع تلك الحركات الدينية، وأدى الإصلاح الدينـي لتشايتانيا إلى ظهـور كمية هائلة مـن الأدب الفشنوفي، وقد ترك الستـة معلمـين الفيشنوفيـين العظمـاء أعمـال ضخمة، معظمهـا باللغة السانسكريتية، ولذلك كانت لها أهمية ضئيلة، ولكن الروايات عن حياة وأعمال المصلح التي سجلها تلاميذه المخلصون والمحبون باللغة المحلية ما زالت تُقرأ باحترام وهي من بين أهم وأعرق الأعمال في الأدب البنغالي.

مدرسة المنطق في البنغال

بالإضافـة إلى تلك الحركة الدينية فقد تم إحراز تقدم في الفلسفة والقانون، ويقـف اسم راغونـاث وحيداً في البنغـال كمؤسس مدرسـة المنطق، حيث حافظ على سمعته في الهند لمدة ثلاثة قرون ومازال مزدهراً حتى اليوم، وتعلم

راغوناث دروسه من آخر صف طويل من المعلمين الذين كانوا قد حفظوا وورّثوا هذا الفرع من التعليم القديم لمدة ألفي سنة من أب لابنه ومن معلم لتلميذه، كما يُحفظ العلم ويوّرث في الهند وحدها، ويقال إن راغوناث هزم معلمه في الجدل وجاء وأسس مدرسته الخاصة في ناديا، ومازال المنطق يُدرّس بالطريقة التقليدية القديمة في تلك القرية المتواضعة، المحمية تحت الشجرات الظليلة على فرع من نهر الغانج، ومازال الطلبة يأتون من المناطق البعيدة في الهند للعيش مع معلميهم في أكواخهم المتواضعة ولخدمتهم وللتعلم منهم من سنة إلى أخرى التراث الهندوسي القديم، ويعتبر هذا أثراً مثيراً للاهتمام من الماضي والذي فاق عمره عمر الأسر الحاكمة والإمبراطوريات.

تشريعات القانون في البنغال

بينما دعا تشايتانيا الشعب لدين المحبة وعلّم راغوناث الفلسفة القديمة للمتعلمين، جمّع راغوناث عملاً من التشريعات للطقوس والاحتفالات للهندوس الحداثي. ويعتبر العمل شاهداً على عمله الدؤوب وتعليمه ولكننا نفتقد فيه الآراء الواسعة والمشاعر الراقية في التشريعات الأقدم، بينما يتميز هو بالكثير من القيود المؤلمة التي تتميز بها العصور الحديثة.

الشعر في البنغال

في بداية القرن السابع عشر ألّف موكوندا رام أعظم وأكثر الأعمال الموجودة في الشعر البنغالي أصالة، وترك سابقوه الكثير من الأغاني ذات الألحان الجميلة عـن كريشنا، وقد أثروا اللغـة أيضاً بنسخ من ماها باهاراتـا ورامايانا، وخطر ببـال موكوندا رام الفكـرة الأجرأ وهي تأليف شعر قصصـي أصيل مبني على الأساطير والتقاليد الدينية في البلاد، وتُركت لنا اثنتان من تلك القصائد؛ واحدة تروي قصة صياد قام بإزالة الغابة وبناء مدينة بمساعدة الآلهة ساكتي أو أوما أو تشاندي؛ وتـروي الأخرى قصة تاجر أبحر إلى سيـلان وغرقت سفينته وظل سجيناً حتى ذهب ابنه وأنقذه بمساعدة نفس الآلهة، ولم يكن في الأدب البنغالي شيئ أكثر صدقاً وطبيعية وأصالة ومحاكاة للحياة الواقعية من شعر موكوندا رام.

وكان لموكونـدا رام خليفة في القرن الثامن عشر وهو بهارات تشاندرا. ويصف غـزو البنغال على يد مان سينه قائد أكـبر، ويذكر بالمناسبة الكثير من القصص التي كان لها الأثر في مجد الآلهة ساكتي، وهو يجيد مهارة في النثر أكثر مـن موكوندا رام، وقد أثرت أبياته المصاغة بفن وعباراته المنتقاة اللغة بشـكل كبير، ولكن فيما يخص الصـدق والشجن والشعر الحقيقي فهو يبعد كثيراً عن مكانة سيده العظيم.

الأدب في شمال الغرب

بـدأ سور داس من ماثورا حقبة جديدة في شمـال الغرب بعمله الشهير سـور ساجـار في القرن السادس عشر، وقد خطا خطـاه كيشاف داس، مؤلـف بهاكتا مالا، وقد ألّف بيهاري لال من أمبار عمله الشهير ساتساي في القـرن التالي والذي مـا يزال يُقرأ ويُقَدَر عبر شمـال الهند كله، ولكن العمـل الأعظم في اللغة الهندية هو ترجمـة، أو بالأحرى تعديل، رامايانا علـى يد تولسي داس، وهو عمل حدد اللغة وتعرفه الطبقات العليا والدنيا ويعرفه الغني والفقير من شعب شمال الهند.

أدب الماهراتا

تفتح ترجمة أو تعديل سريـدار للملحمتين السانسكريتيتين العظيمتين، ماهـا باهاراتـا ورامايانـا، إلى لغة الماهراتـا حقبة جديـدة في تاريخ أدب الماهراتـا، وفي القرن التالي ظهر توكارام وهو تقريباً أعظم شعراء الماهراتا، وقد ولد توكارام في عام 1608 ويقال إنه لم يكن سعيداً في حياته الزوجية، حيـث ترك بيته ولجأ إلى معبد فيتوبـا والمعروف بشكل عام على أنه شكل مـن أشكال كريشنـا، وقضـى أياماً من التأمـل وأشرق عليـه فجر جديد

وتدفقت الترانيم (الأبهانجات) من شفتيه بتلقائية وجاء الآلاف من كل الشيع والطوائف للاستماع لتلك الأغاني الدينية، والتي مازالت موجودة في الدكن حتى يومنا هذا، وجاء خليفة توكارام وهو مايور بانث في القرن التالي والذي ما تزال أغانيه الكثيرة شهيرة حتى الآن.

الأدب في لغة تاميل

ذكرنا الأعمال القديمة والغزيرة لشعراء جنوب الهند في لغة تاميل الأدبية في فصل سابق، وقد ظهرت مدرسة جديدة في شعر تاميل معروفة باسم سيتار في القرن السابع عشر، وقبل الشعراء بسيفا على أنه الإله وتبنوا ذلك الاسم لعبادة الإله الواحد ورفضوا أي شيء يتناقض مع وحدانية الإله. وتظهر روح ومبادئ الإيمان بوحدانية الإله تلك في القصيدة التالية المنقولة عن لغة تاميل:

الإله الحقيقي واحد، والفيدات (النصوص الدينية الهندوسية) لها شأن مختلف،

ويحكم أحد القادة الدينيين بأن لنا منسك طهارة واحد، وسماء واحدة أعلى وللبشر الفاني ميلاد واحد،

وطريقة واحدة صحيحة للحياة على هذه الأرض،

والذين يبحثون في الفيدات عن الطريق،

في النصوص المختلفة والطقوس المختلفة،

ويؤدون صلاتهم لآلهتهم العديدة،

يموتون مذنبين ويلقون في الجحيم!

الرحالة الأوروبيون في الهند في القرن السابع عشر (مانريك)

في بداية القرن السابع عشر أُرسل ساباستشان مانريك وثلاثة رهبان من مجتمع رهبان سينت أوجاستين من أجل القيام برحلات التبشير في البنغال، وقاموا بزيارتها وزيارة أماكن أخرى عديدة في الهند خلال ثلاثة عشر عاماً، ويتحدث عن داكا كمركز تجاري هائل لتجارة البنغال والذي تردد عليه الناس من كل الجنسيات، وكان تعداد السكان هناك مائتي ألف، ويصف خصوبة البلد الهائلة ويتحدث عن الخامات الرائعة المصنوعة من القطن التي أنتجتها البنغال وصدرتها لكل دول الشرق، ويصف البنجاب من لاهور حتى مولتان كبلد غنية بالقمح والأرز والخضروات والقطن وبها قرى عديدة ونُزل ممتازة. وكانت مولتان مدينة مهمة ولها تجارة نشطة جداً وهي مكان مقابلة القوافل من فارس وخرسان والبلاد الغربية الأخرى،

وكانت البلد حول تاتا مليئة بوفرة هائلة بالقمح والأرز والقطن الذي أعمل ألفي نول، وكانت صناعتا الحرير وجلود السند مزدهرتين أيضاً.

هوكينز ورو

زار هوكينز وسير توماس رو السفير الإنجليزي الهند في أوائل القرن السابع عشر، وقد تركا لنا بياناً عن روعة المعسكر الملكي وعن نزوات الإمبراطور جاهانجير، ولكنهما لم يعطيانا الكثير من المعلومات القيمة عن أحوال الشعب وزراعتهم وتجارتهم وصناعتهم، وقد جاء رجل إنجليزي آخر هو ويليام بيرتون مع خمسة مرافقين في مهمة إلى نائب (حاكم) كوتاك في 1632 ويصف تلك المدينة على أنها مكان مزدهر وبه تجارة كثيرة وشوارع واسعة كثيرة. ومن بين الأماكن التي زارها كانت مدينة هارهاربور التي اشتهرت بالنسيج والتي انشغل سكانها الذين بلغ عددهم 3000 بالغزل.

جراف

ترك لنا نيكولاس جراف، الطبيب الذي ذهب ليرى مدير المصنع

الهولندي هوجلي في عام 1669، بياناً مثيراً للاهتمام، فقد جملت المعابد والقصور راج محل والتي كانت عاصمة البنغال في ذلك الوقت؛ ودهش جمال مونغير بأبراجها ومناراتها وأسوارها البيضاء الرحالة بشكل كبير، وكانت باتنا أكثر روعة من مونغير وبها تجارة قوية وامتدّ شارع مصطف بالمتاجر من الطرف الأول للمدينة للطرف الآخر.

ماندیلسو

جاء رحالة ألماني يدعى ماندیلسو إلى غرب الهند في عام 1639، ووجد بروش مدينة أخرى كبيرة عامرة بالسكان وممتلئة بالعاملين في الغزل والتي صنعت أفخر الملابس القطنية في مقاطعة جوجرات، وكانت برودیرا مدينة أخرى كبيرة للعاملين في الغزل والصباغة وبلغ دوران أحمد أباد، عاصمة جوجرات، سبعة فراسخ، وكانت الشوارع واسعة والمساجد والمباني شامخة والسوق الملكي ذا سعة شاسعة، وكان مزروعاً بالأشجار، واستخدم النساجون المهرة الحرير البنغالي والصيني في أقمشتهم حيث صنعوا المشغولات من الذهب والفضة؛ وقام التجار الهندوس بإرسال الحوالات من وإلى أبعد المناطق في آسيا وبعض أجزاء من أوروبا. وكانت

كامباي مدينة أكبر من سورات وبها تجارة نشطة جداً. وكانت أجرا بضعف حجم أصبهان وكانت الشوارع منمقة وواسعة وبها سقف على شكل قبة لمسافة أكثر من ربع فرسخ من أجل التجار والمواطنين الذين عرضوا البضائع للبيع تحت ذلك الغطاء، ولكن البلد حول لاهور بدت له أنها أغنى بلد في الهند بالذرة والفواكه وامتدت الحدائق الجميلة بطول نهر رافي أمام أعين الناظرين. وقبل الإبحار إلى أوروبا، زار ماندیلسو جنوب الهند وكان وصفه للعاصمة الإسلامية بيجابور بليغاً، وقال عنها إنها أعظم المدن الآسيوية وبلغ محيط دائرتها خمسة فراسخ ويقال إن الملك كان لديه 200.000 من الرجال وأكثر من ألف قطعة من المنجنيق.

تافرنييه وبرنييه

يتحدث صائغ الجواهر الفرنسي تافرنييه عن مناجم الماس في الهند وعن عرش ديلهي المتباهي، ولكن أمير الرحالة الأوروبين في الهند في القرن السابع عشر كان رجلاً فرنسياً آخر يدعى برنييه، وقد أصبح عمله شهيراً جداً ويعرفه الإنجليز كما يعرفه الفرنسيون. ويصف بقلم مصوّر روعة وعظمة البلاط المغولي بالإضافة إلى ضعفه وقسوته وقهره وفساده، ومن

حـين لآخر يعطينا لمحـات عن أحوال السكان الزراعيـين والصناعيين مما يجعلنا نتمنى لـو أنه كتب أكثر عن هذا الموضوع وأقل عن البلاط فاحش الثراء والمسؤولين الفاسدين. وعندما يكتب برنييه عن قهر الحكام القاسين للشعـب في الهنـد في القرن السابـع عشر، يذكرنا وصفـه بالقهر الأفظع الذي حدث في بلد برنييه نفسها في القرن الثامن عشر والذي وصفه آرثار يانج، فقد مـرّت أوروبا بحروب أكثر تدميراً وقهر أكثر مرارة للفقراء على يد الكبراء من الهند وحتى في القرن الثامن عشر، وقد أنقذ أوروبا في يومنا الحـالي من هذا القهر توسيع الشكل التمثيلـي للحكم وهو النظام الوحيد الذي يحمي بشكل كافٍ مصالح الشعب من امتيازات الطبقات الحاكمة.

ونرى خطاب بيرنييـه لكوربيت العظيم فيما يتعلق بالنظام السياسي في هندوستـان وخطابه إلى دولا موت عن ديلهي وأجرا وخطاباته إلى آخرين عن طباع الهندوس وعن سير أورنجزيب إلى كاشمير، وننتقل إلى بيانه عن البنغـال الذي يوجد في أحد ردوده إلى م.ثيفينـوت والذي يعطينا صورة سارّة عن الحياة الزراعية والصناعة.

فمـن مصبات نهـر الغانج إلى راج محـل قطعت البلد علـى جانبي النهر قنوات لا حصر لها اصطفت بالمدن والقرى وحقول الأرز والسكر والذرة

والخضروات وشجيرات التوت من أجل تربية دود القز، وكوّن الأرز والزبد والأنواع المختلفة من الخضروات الطعام الرئيسي لعامة الشعب، وكان الأوز والبط رخيصاً، والماعز والخراف وفيرة، ووجد السمك بكميات كبيرة، وأُنتج السكر بكثرة وكذلك القطن والحرير بكميات هائلة، حتى إن برنييه أطلق على البنغال مخزن هاتين السلعتين في التجارة العالمية. «لقد دهشت أحياناً من الكمية الضخمة من الأقمشة القطنية من كل الأنواع، الناعمة والخشنة، البيضاء والملونة، التي يصدرها الهولنديون وحدهم إلى الأماكن المختلفة، بالذات اليابان وأوروبا، ويتاجر التجار الإنجليز والبرتغاليون والمحليون في هذه السلع أيضاً إلى حد كبير، وينطبق نفس الوضع على الحرائر والأقمشة الحريرية من كل الأنواع». وكانت البنغال أيضاً مركزاً تجارياً مهماً للملح الصخري وكان الشمع والزباد والفلفل الطويل هي السلع الرئيسية في التجارة، وينهي برنييه خطابه عن البنغال ببيان عن رحلة دامت تسعة أيام من بيبلي إلى هوجلي، ويقول: «لم تكتف عيناي من النظر إلى البلاد الخلابة التي مررنا بها».

وتساعدنا تلك التلخيصات الموجزة للبيانات التي تركها لنا الرحالة الأوروبيون على تكوين فكرة صحيحة إلى حد ما عن الأحوال المادية

للشعب في الهند تحت الحكم المغولي. ومن الضروري تكوين تلك الفكرة من أجل فهم التاريخ الحقيقي للبلاد، وأيضاً من أجل تفادي الآراء المتعصبة التي أحياناً ما قُدّمت عن أحوال الشعب في الهند تحت الحكم الإسلامي. ومن ناحية أخرى كان هناك قهر الفقراء على يد الأقوياء ولم يتم ردع القسوة والفساد وطغيان رجال السلطة، والذي يملأ جزءاً كبيراً من تاريخ العالم في كل البلدان في العصور الماضية، في الهند بموجب أي ميثاق شهير للحقوق أو أية مقاومة دستورية. ومن الناحية الأخرى، لدينا بيان ناصع عن عمل الفئات الزراعية الدؤوب ومهارة وأصالة الصُنّاع الذين تغلبوا على كل العقبات والذين ملأوا الهند بالمدن الكبيرة والغنية والمزدهرة والذين مدّوا الأسواق في نصف العالم المتحضر بأقمشتها الحريرية والقطنية، وقد حمى نظام المجتمع الريفي الشعب من كثير من مضايقات المسؤولين؛ ووقف الزمندارات والجايجيردارات الوراثون بين رعاياهم والقوة الحاكمة وفرضت عليهم المصلحة الذاتية تقليص ضرائبهم حتى لا يقضوا على الصناعات والزراعة. لقد قيّد الحكام الأقوياء والحكماء مثل أكبر وشاه جاهان السوبادارات وكبار المسؤولين ولم تكن الحروب بنفس القدر من التكرار والكارثية التي كانت بها في أوروبا خلال العصر ذاته.

وأخيراً فقد جعل حكام الأراضي من الهند وطناً لهم؛ ولم يفرضوا أية جزية ولم تكن لهم أية مصالح خارج الهند.

المستعمرات الأوروبية في الهند (البرتغاليون)

اكتشف فاسكودا جاما الطريق للهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في عام 1498 ولهذا ضعفت السيادة التجارية والملاحية لفينيسيا وارتفعت في البرتغال، وفرضت عبقرية البوكارك الجريئة سيادة البرتغاليين على كل البحار الهندية، واستولى على جوا في عام 1510 وبينما هو يبحر حول سيلان استولى على مالاكا وفتح تجارة مع سيام وجزر الملوك (التوابل) وأثناء عودته باتجاه الغرب استولى على هرمز في الخليج الفارسي، وهو أعظم الموانئ البحرية في آسيا، وتوفي في عام 1515. وبعد ذلك بسنوات قليلة أسس البرتغاليون تجارة مع البنغال وفرضوا سيادتهم في هوجلي؛ وفي نفس الوقت تقريباً حصلوا على ملكية ديو في الغرب من حاكم جوجرات، وكانت إمبراطورية البرتغال الشرقية في ذروة قوتها في القرن السادس عشر. ومن رأس الرجاء الصالح إلى حدود الصين، أي حوالي 12.000 ميل على السواحل، كانت أهم الأسواق التجارية في يد البرتغاليين، وكانت موزامبيق في أفريقيا ومسقط في شبه الجزيرة

العربية وأورمـز في فارس وديووجوا وكوتشي والأماكن الأخرى غرب الهند ومادراس وماتشيليباتنام والمستعمرات في البنغال على الساحل الشرقي ومالاكا وجـزر الملـوك في مجموعة الجزر الشرقيـة كلها تابعة لهم. ولكـن عندما تزايد النفوذ الهولندي في القرن السابع عشر تضاءل نفوذ وممتلكات البرتغاليين.

(الهولنديون)

بعـد حرب طويلة مـن أجل الاستقـلال، فكت هولندا القيـود الإسبانية في الجـزء الأخير من القرن السادس عشر وفي عـام 1602 تم تأسيس شركة الهند الشرقية الهولنديـة، وفي عام 1619 أسس الهولنديون باتافيا في جافا وأرغموا الإنجليز على مغادرة الأرخبيل (مجموعة الجزر) الشرقي بعد مذبحة أمبوينـا في عام 1623. وبعد سنـوات قليلة احتلوا فورموسا واستولوا على مـالاكا من أيدي البرتغاليـين؛ وفي عام 1651 أنشـؤوا مستعمرة في رأس الرجاء الصالح. وفي السنة التالية أسسوا مصنعاً على ساحل مادراس الهندي وفي عام 1658 استولوا على آخر معقل للبرتغاليين في سيلان. وبحلول عام 1670 كانـوا قد طردوا البرتغاليين من سواحل ملابار وكورومانديل وعند نهاية القرن السابع عشر كان الهولنديون أعظم قوة أوروبية في آسيا.

(الفرنسيون والإنجليز)

في القرن الثامن عشر ضعف النفوذ والقوة الهولندية وتصارع الفرنسيون والإنجليز على السيطرة على الشرق، وتم تأسيس شركة الهند الشرقية الفرنسية في عام 1604 وتأسست المصانع الفرنسية في سورات في عام 1664 وفي بوندیتشيري في عام 1673 وفي تشاندرا ناجار في عام 1688، وتم تأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية في عام 1600 واشتروا موقعاً في مادراس في عام 1639 وحصلوا على جزيرة بومباي من البرتغال في عام 1661 وانتقلوا من هوجلي في عام 1686 إلى كالكوتا حيث اشتروا ثلاث قرى في عام 1700. ويعتبر تاريخ الصراع الذي بدأ بين إنجلترا وفرنسا خلال نصف قرن من هذا التاريخ من أجل السيطرة على الهند، جزءاً من تاريخ الهند تحت السيطرة البريطانية.

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل الثاني عشر

عصر سيادة الماهراتا

(1718 – 1818 م)

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

آخر أباطرة المغول

إن تاريخ النصف قرن الذي تلا وفاة أورنجزيب مباشرة هو تاريخ الانحدار السريع وانقراض نفوذ عائلة بابار الملكية، المعروفة بأسرة المغول الحاكمة. فقد تولى عرش ديلهي ستة أباطرة ضعاف ما بين عام 1707 وعام 1759، حتى توفي آخرهم في عام 1759. وهام ابنه شاه عالم على وجهه في البنغال وفي أماكن أخرى وتلقى نفقة من الإنجليز ولكنه لم يكن أبداً إمبراطوراً بمعنى الكلمة، وانتهت السيادة المغولية بوفاة أورنجزيب (أو عالمكير الأول) في عام 1707 واختفى أثر الحكم المغولي بمقتل عالمكير الثاني في عام 1759.

الحكام المحليون للدكن

(يطلق لقب نظام على الحكام المحليين لحيدر آباد) لقد أدى انحدار القوة المركزية إلى ظهور قوى سياسية مختلفة في أنحاء مختلفة من الهند. فكان آصف جاه، وزير أحد الخلفاء الضعاف لأورنجزيب، مستاءً من حال شؤون الدولة في ديلهي وانصرف إلى الدكن في عام 1723. وهناك أقام عائلة الأنظمة (الحكام في الدكن) والتي استمرت في حكم الدكن حتى يومنا الحالي ويعتبر حاكم حيدر آباد أعظم عاهل مسلم في الهند الآن تحت قوة إنجلترا الاستعمارية.

نواب أود

في نفس الوقت تقريباً تم تأسيس عائلة حاكمة أخرى في شمال الهند من أنقاض الإمبراطورية المغولية، حيث صعد سادات خان، الذي كان في الأصل تاجراً في خراسان، إلى رتبة عسكرية ووطّد نفوذه تدريجياً في أود، واستمر خلفاؤه في حكم أود كنواب لمدة زادت على المائة عام حتى الاحتلال البريطاني لأود في عام 1856.

مملكة مايسور

في أقصى جنوب الهند، طالما احتفظ القادة الهندوس باستقلالهم وحكم مايسور كحاكم (أوراجا) هندوسي في حوالي نصف القرن الثامن عشر، واغتصب قائد مسلم تابع للملك الهندوسي يدعى محمد نايق، كل النفوذ وأصبح منافساً قوياً للإنجليز في جنوب الهند من عام 1767. ولكن نفوذ عائلته سقط على يد ابنه، السلطان تيبو، في عام 1799 وأعيدت مايسور على يد الإنجليز المنتصرين إلى العائلة الهندوسية القديمة، التي مازالت تحكمها ليومنا الحالي، وما زالت عائلة هندوسية أخرى تحكم في ترافانكور.

الراجبوت

سريعاً ما محا الراجبوت، الذين كانوا يفخرون باستقلالهم الذي لم يمس، أي أثـر للسيادة المغولية بعـد وفاة أورنجزيب، وبعدهـا وفي القرن الثامن عشـر وفي أوائـل القـرن التاسع عشر، تعرضـوا لمضايقات مـن الماهراتا، ولكـن عندما أصبح الإنجليز سادة شمال الهند، ساعدوا هذه الأمة القديمة والشجاعـة على الحفاظ علـى استقلالهم الضمنـي في ولاياتهم الخاصة، وكانـت عائلات أودايبور وجودبور وجايبور في قمة عائلات الراجبوت الحاكمة حتى هذا اليوم.

ولايات الهيمالايا

كانـت نيبال وبوتان قـد احتفظتا باستقلالهما خـلال فترات حكم الأفغـان والمغول في ديلهي وما زالتا تحتفظان بـه حتى اليوم، وقد غزا كشمـير أكبر العظيـم ولكن حكمها انتقـل إلى السيـخ في أوائل هذا القـرن، وفي وقت احتلال البريطانيين للبنجاب في عام 1849 تحولت كشمـير إلى ولاية مستقلة وما زال يحكمها حاكم هندوسي حتى هذا اليوم.

الماهراتا

وسط حالة التفكك العامة تلك في الإمبراطورية المغولية وصعود قوى سياسية جديدة في كل أجزاء الهند، والتي أخذ الدور الريادي فيها الماهراتا، كانت القصة الأولى في الهند في القرن الثامن عشر هي قصة سيادة الماهراتا. «لقد فاز البريطانيون بالهند، ليس من يد المغول بل من يد الهندوس. فقبل أن نظهر كغزاة، كانت الإمبراطورية المغولية قد تفككت، ولم تكن حروبنا الحاسمة ضد ملك ديلهي ولا ضد الحكام الثائرين، ولكن كانت ضد اتحادين من الهندوس وهما الماهراتا والسيوخ».[1]

البيشوا (رؤساء الوزراء)

لم يرث خلفاء سيفاجي عبقريته وسريعاً ما ضعف نفوذهم وتتمحور قصة صعود وتوسع نفوذ الماهراتا من بداية القرن الثامن عشر حول سلسلة الوزراء البراهمان الذين يدعون البيشوا، وفي عام 1718 توجّه بالاجي أول وزراء البيشوا بجيش إلى ديلهي لدعم عصبة الأخوات سيد الذين كانوا أصحاب النفوذ الأكبر في

(1) كتاب سير ويليام هانتر الإمبراطورية الهندية (1893)، ص. 375

شمال الهند كله ومن ذلك التاريخ إلى عام 1818، عندما خلع الإنجليز باجي راو آخر وزراء بيشوا، كان تاريخ البيشوا هو القصة الأولى في الهند.

بالاجي

حتى عام 1720، كان لسير بالاجي إلى ديلهي نتائج مثمرة، وحصل على ثلاث هبات منفصلة من ديلهي، كانت الهبة الأولى هي نصيب الربع من العائد الكلي للدكن وجنوب الهند، بما في ذلك حيدر آباد وبيجابور وكارناتك وتانجور وتريتشنوبولي ومايسور، والهبة الثانية هي نسبة عشرة بالمائة بالإضافة إلى نصيب الربع من العائد في نفس المقاطعات، والهبة الثالثة هي السيادة الكاملة على بونا وخمسة عشر حياً آخراً والتي كانت تحت الحكم المباشر للماهراتا، وقد أكدت تلك الهبات الثلاثة الحقوق السيادية للماهراتا على بلادهم وحقهم في فرض المساهمات من كل الولايات جنوب ناربادا.

باجي راو

من عام 1720 إلى 1740. توفي بالاجي في عام 1720 وخلفه ابنه باجي راو والذي احتل منصب وزير بيشوا لمدة عشرين عاماً، وكان

أكثر طموحاً من والده؛ فوجه بصره إلى شمال الهند وأشار إلى ضعف الإمبراطور المغولي في ديلهي قائلاً، «فلنضرب الجذع الجافة، فتقع الأغصان من تلقاء نفسها»، ووطّد حقه في فرض الهبة الأولى والثانية من جوجرات وغزا مالوا وبندلخاند واتجه نحو ديلهي في عام 1737. وأثناء عودته من الشمال استولى على باسين من يد البرتغاليين في عام 1739 وتوفي في العام التالي.

خمس قوات للماهراتا

من الجدير بالذكر أن أجداد العائلات الماهراتا الثلاثة العظيمة والذين مازالوا يحكمون في الهند كانوا قادة متواضعين تحت باجي راو، فقد كان مالهار راو هولكار قائداً لمجموعة من الفرسان، وكان جد عائلة إندور الحاكمة حالياً، وخدم راناجي سيندیا باجي راو بخدمة أقل تواضعاً، وكان جد عائلة جواليور الحاكمة حالياً، وقاد بيلاجي جيكوار أيضاً جيوشاً تحت قيادة باجي راو، ويعود نسب عائلة بارودا الحاكمة إليه، وما تزال ولايات الماهراتا الثلاثة، وهي بارودا وجواليور وإندور، تلك موجودة حتى الآن، واختفت ولاية ماهراتا أخرى، كانت قد ظهرت في القرن الثامن عشر،

وهي ولاية البونسالس في ناجبور؛ فقد احتل البريطانيون أراضيها في عام 1853. ومـن المهم أن نأخذ في الاعتبـار أسماء ولايات الماهراتا الأربعة تلـك في القرن الثامن عشر، بشكل منفصـل عن ولاية البيشوا التي كانت حول بونا، وقد كانت إندور وجواليـور وباورودا وناجبور وبونا عواصم الخمس قوى للماهراتا، وما زال الثلاثة الأولى عائلات حاكمة حتى يومنا هذا.

غزو الهند على يد نادر شاه

في عـام 1739. كانت السنـوات الأخيرة من حياة باجي راو عندما دمر ديلهي غزو نادر شاه، وقد كان أصلاً قرصاناً حراً وعاش ليصبح منقذ بلاده (فارس) من نفوذ العبداليـين والخلجيين (الروس والأتـراك)، وتُوّج ملكاً لفارس في عام 1736، وبعـد ذلك بعامين استولى علـى قندهار وكابول، ثم في عام 1739 تقدّم داخل الهند، وهزم آصف جاه وسادات خان، أقوى مؤيديـن للعائلة الحاكمة المتأرجحة في ديلهـي، واستولى على ديلهي وذبّح الشعب ونهبه، وترك السـارق المدمر الهند أخيراً محملاً بغنيمة بعدة ملايين من الجنيهات الإسترلينية وعدة ملايين في صورة ذهب وفضة ومجوهرات.

بالاجي باجي راو

من عام 1740 إلى عام 1761. خلف باجي راو ابنه بالاجي باجي راو كوزير بيشوا في عام 1740، ووصل الماهراتا إلى ذروة نفوذهم خلال حكم بالاجي باجي راو. ولكن راغوجي بونسلا من ناجبور اخترق البنغال، وبعد حملات كثيرة أجبر النائب في عام 1751 على تسليم أوريسا إلى الماهراتا وتقديم هبة رسمية بقيمة ربع العائد عن البنغال وبيهار، وفي شمال الهند أيضاً قام الماهراتا بحملات متكررة حتى حصل البيشوا على وعد بتقديم نسبة الربع من كل العمائد الملكية. وفي أراضيهم الخاصة حول بونا وناجبور وغيرهما أثبت الماهراتا كفاءتهم في الحكم ونعم الشعب بالرخاء والسلام، ولكن في الأجزاء الأخرى من الهند التي انتهكوها بجيوشهم فقد سببت حملاتهم المعاناة والمصاعب وأثار اسمهم الفزع في نفوس السكان المسالمين الذين اشتغلوا بالتجارة والصناعة والزراعة.

وتسجل فترة حكم البيشوا الثالث نقطة التحول في تاريخ الهند الحديثة، ففي الشمال، قُتل آخر إمبراطور فعلي لديلهي في عام 1759 واختفت كل آثار الحكم المغولي، وفي الجنوب انتهى الصراع الطويل

بين الإنجليز والفرنسيين في عام 1761 بتوطيد النفوذ البريطاني في كارناتيك، وفي الشرق، أطاحت عبقرية كلايف الجريئة بنفوذ آخر نائب فعلي في عام 1757 ووطد النفوذ البريطاني على أساس متين، وكان من الممكن للملاحظ الفطن تقريباً توقع المستقبل من هذا التاريخ ورؤية الصراع الآتي بين البريطانيين والماهراتا على السيادة العليا في الهند.

أحمد شاه (معركة بانيبت)

1761، تلقى نفوذ الماهراتا ضربة قوية في الشمال في عام 1761، فقد حاول غازي الدين، أحد أبناء آصف جاه حاكم الدكن، الدفاع عن شمال الهند ضد أحمد شاه حاكم كابول، والذي كان قد غزا البنجاب، وطلب غازي الدين مساعدة الماهراتا وجاء الماهراتا بجيش من 70.000 من الخيول بالإضافة إلى جمع ضخم من الأتباع. وتقدم أحمد شاه بجيش قوي من 49.000 من الأفغان و51.000 من الهنود، وتقاتلوا في معركة ضارية أُطلق عليها حرب بانيبات الثالثة على أرض المعركة التاريخية، وهُزم الماهراتا بمجزرة ضخمة، ثم ذُبح قائدهم وأُعيق

ماهداجـي سيندیا (ابـن راناجي) للأبد وفر مالهـار راو هولكار هارباً، وتلاشـى نفـوذ البيشوا في هذا التاريـخ ولكن نفـوذ الماهراتا لم ينكسر؛ وعلـى العكس فقد ضاعف سيندیا هولكار ثرواتهم وأراضيهم في حالة الاضطراب التي تلت.

مادهو راو ونارايان راو

مـن عـام 1761 إلى عـام 1772، لم يفق بالاجي باجـي راو أبداً من الصدمـة وتـوفي في بونا بعد المعركة بوقت قليـل؛ وأصبح ابنه مادهو راو البيشوا، وراقب البيشوا الجديد النفوذ المتزايد لحيدر علي في مايسور وفي عام 1764 دخـل كارناتيك مع 60.000 من القوات، وهناك هزم حيدر علـي وتمكن من إحلال سلام قصير؛ ولكن حيـدر علي أغار على أراضي الماهراتـا في عام 1770 واندلعت حرب جديدة. ومع كل مهارته وقدرته وإمداداته وجد علي حيدر نفسه غير قادر على التنافس مع الماهراتا؛ وبعد هزيمة ساحقة أخـرى اتفق على سلام مهين وأعاد للماهراتا كل ممتلكاتهم ووافق على دفـع الجزية السنوية. وكان الإنجليز قـد كونوا تحالفاً هجومياً ودفاعيـاً مع علي حيدر ولكنهم لم يساعـدوه في هذه الحرب ولم يسامحهم

حيدر أبداً على هذا التخاذل.

وفي شمال الهند قضت معركة بانيبت في عام 1761على نفوذ البيشوا، ولكن لم تقض على نفوذ أمة الماهراتا، وسريعاً ما استعاد ماهداجي سيندیا، الـذي كان قـد سُحـق وأعيق نفـوذه في تلـك المعركة البشعـة، وسحب الإمبراطور الاسمي من الله أباد ووضعه على عرش ديلهي وظل فعلياً زعيم البلاد المجاورة.

وتوفي مالهار راو هولـكار، الذي كان قد أنقذ نفسه بالفرار في معركة بانيبت، في عام 1767، وتولت أرملة ابنه، أهاليا باي، حكم البلاد بكفاءة ونجاح وتسامح تجـاه رعاياها مما جعل اسمها كلمة ينطق بها كل بيت بين الهندوس حتى يومنا هـذا. فقد حولت إنـدور إلى عاصمة كبيرة وغنية، وأحلّـت السلام والرخاء على بلادها وهي تقف كمثال بارز على العبقرية والحكمة والقدرة الإدارية للنساء في الهند لكل زمان.

وفي الدكـن أيضاً، طـوّر البيشوا مادهو راو، بإيحاء مـن راما ساستري المبجـل، إدارة الأحوال المدنية للبلاد، وكان راما ساستري صديقاً للأخيار ورعباً في قلب المعتدين؛ وكانت عاداته بسيطة ونزاهته لا تُدنس واعتبرت قرارات البانكايت (مجالسه) الخاصة به أمثلة يحتذى بها في الهند. وتكون

مقارنـة الإدارة المدنيـة الهائلـة للماهراتـا في الأراضي التابعـة لهم[1] في صالحهم إن قورنت بالبلبلة في الأنحاء الأخرى في الهند.

راغوناث راو ومادهو راو الثاني

من عام 1772 إلى عام 1795. خلف مادهو راو الأول نارايان راو الذي اُغتيل بعد فترة قصيرة في الحكم. ثم تولى، راغوناث راو أخو البيشوا الثالث، المنصب، ولكـن أرملة نارايـان راو ولدت ابناً له بعد وفاته وسمـي مادهو راو الثاني، وأيّد حزبـاً قوياً حقـه في منصب والده، وأدّت النزاعات بـين حزب مادهو راو الثاني وحزب راغوناث راو إلى نتائج مثمرة، فقد لجأ راغوناث راو من يأسه إلى الإنجليز للمساعـدة ولم يكره الإنجليز، الذيـن كانوا قد أصبحت لهـم السيادة في البنغال ومادراس، فكرة مدّ نفوذهم وممتلكاتهم من ناحية بومباي عن طريق التدخل في

(1) لقـد كان تجميـع الضرائب في يد المسؤولين الذين أطلق عليهم ماملا تدارات، والذين تحتوا على المكوث في أحيائهم وباشروا إقامـة العدالـة في الأمور الجنائيـة والمدنية. وتُرك القـادة المورثون، الذين أطلق عليهـم ديشموخ أو ديشبانـداي، في الاستمتاع بحقوقهم وعوائدهم. وما عدا في المدينة العاصمة، اعتنى الناس بترتيباتهم البوليسية في كل القرى وكانت حياة الناس وممتلكاتهم في مأمن بشكل عام. وكانت القوانين الجنائية متسامحة ولكن التعذيب من أجل الحصول على الاعترافات كان متكرراً، وكان البتر أحـد العقوبات لبعض الجرائـم. وفي القضايا المدنية كان البانكايات هم المحاكم العادية. وقد تحدد العائد عن إمبراطورية الماهراتا تقريباً عند وفاة مادهو راو بحوالي مائة مليون روبيه؛ ولكن العائد الحقيقي، بما في ذلك الأراضي الممنوحة (الجايجيرات) التابعة لهولكار وسيندبا والبونسالا في بيرار والجيكوار في جوجرات وأيضاً الجزيات والمساهمات، وصلت إلى اثنين وسبعين مليون روبيـه. ومن هـذا المبلغ كان العائد الذي هـو تحت سيطرة البيشوا المباشرة حوالي ثمانية وعشرين مليـون. وكان الجيش العادي للبيشوا، باستثناء جيوش سيندبا وهولكار وجيكوار وبونسلا، حوالي 50,000 من الخيول الجيدة، وكان الجيش الكلي للماهراتا بما في ذلك جيوش الولايات المختلفة يتعدى 100,000. (انظر كتاب جرانت تاريخ المأهراتا، الفصل 23).

نزاعات الماهراتا، ووقّع راغوناث راو معاهدة سورات في عام 1775 ووافق على تسليم سالسيت وباسين إلى الإنجليز على اعتبار إرجاعه إلى بونا كبيشوا.

وكانت النتيجة ما يعرف باسم حرب الماهراتا الأولى في تاريخ الهند البريطانية. وليس مجال هذا الكتاب الخوض في أحداث هذه الحرب؛ ولكن يكفي القول إن عبقرية نانا فورنافيز، وزير الماهراتا، حافظت على مصالح مادهو راو الثاني وفشلت معاهدة سورات في هدفها الرئيسي، وقد تنحى راغوناث راو وتلقى نفقة؛ ولكن الإنجليز احتفظوا بسالسيت وإليفانتا وجزيرتين أخرتين وفقاً لاتفاقية سالباي المبرمة في عام 1782.

وفي هذه الأثناء كان الحاكم العام الإنجليزي، وارين هيستينجز، تورط في حرب مع حيدر على العظيم حاكم مايسور وابنه السلطان تيبو، والتي أنهيت باتفاقية في عام 1784. ولكن السلطان تيبو لم يكن قد أهين بالشكل الكافي. فقد شنّ اللورد كورنواليس حرباً ثانية ضده والتي انتهت في عام 1792 بخسارة نصف أراضيه وانتهت حرب ثالثة قادها اللورد ويلسلي بوفاة تيبو في عام 1799 وإعادة مايسور إلى الحكم الهندوسي. ولكن هذه الحروب تنتمي إلى تاريخ صعود النفوذ البريطاني في الهند ولا تقع ضمن مجال هذا العمل.

وفي الشمال كان نفوذ ماهداجي سيندیا سائداً، وكانت له كمية

ضخمة من الجنود المشاة ينظمها قائد فرنسي، دوبواني، وقد ولاه الإمبراطور الاسمي قيادة جيشه واستأمنه على إدارة مقاطعات ديلهي وآجرا في عام 1784، واستولى جولام قادر، المغامر سيئ السمعة والوحشي، على ديلهي وخلال احتلاله المؤقت لهذه المدينة فقأ عيني الإمبراطور الاسمي المُسن شاه عالم وأخزى عائلته وأذلهم. ولكن جولام قادر لوحق وقُتل واستعاد ماهداجي سيادته وأجلس شاه عالم المسكين على عرش أجداده مرة أخرى في عام 1789. وتوفي ماهداجي سيندیا العظيم في عام 1794، حاكم شمال الهند والذي كانت مقاطعات ديلهي وآجرا تحت إدارته والذي كانت له قوة لا تقهر في شمال الهند، بفضل 25.000 من القوات المنظمة بقيادة دوبواني، وقد خلف بعده ابنه بالتبني دولت راو سيندیا.

وفي إندور أنهت اهاليا باي الموهوبة حكمها المتميز وتوفيت في عام 1795. وقلّد رئيس الأركان توكاجي هولكار سياسية سيندیا وكان له هيكل من القوات ينظمه قائد فرنسي يدعى دودرينيك.

وفي ناجبور خلف راغوجي بونسالا والده في عام 1788 وحكم منطقة شاسعة امتدت حتى أوريسا على الساحل الشرقي. وفي بارودا،

خلـف جوفيند راو كجيكوار في عام 1793 بعد وفاة أخيه الأصغر الذي كان قد اغتصب المنصب.

باجي راو- آخر البيشوا

من عـام 1795 إلى عـام 1818. أبقى البيشـوا الصغير مادهو راو تحـت السيطرة وزيره نانا فورنافيز وانتحـر، وبعدها خلفه باجي راو الثاني ابـن راغونـاث راو، وكانت هناك نزاعـات متكررة وحروب بـين القـوى المختلفة وطلب باجـي راو، مثلما فعل والـده، مساعدة الإنجليـز، وفتح ذلك أمـام الحاكم العام، اللـورد ويلسلي، الذي كان يتمنـى مساعدته، وتم توقيـع معاهدة باسين في اليـوم الأخير من عام 1802 والتـي بموجبهـا وافق باجـي راو على إبقاء قـوات بريطانية (داعمـة) علـى أراضيه وسلّـم الأراضـي لاستخدام هـذه القوات، وفوجئـت قوى الماهراتا الأخرى بتدخل النفوذ والقوة الإنجليزية هذا في أراضـي الماهراتا وكانت النتيجة هو ما يعرف باسم حرب الماهراتا الثانية في تاريـخ الهند البريطانية. ولا داعي للدخول في أحداث هذه الحـرب التي ستظل بـارزة دائماً. وكسر سير آرثـار ويلسلي، وبعدها

دوق ويلينجتـون، شوكة نفوذ الماهراتا في الدكـن وكان جنرال ليك علـى قدر مماثل من النجاح في شمال الهنـد ودخل ديلهي منتصراً في عام 1803. ومن هذا التاريخ أصبحت بريطانيا هي القوة العظمى في شمـال الهند واستبدل الإمبراطور الاسمي لديلهـي الماهراتا بالإنجليز كسادته وحُماته، وانتزع الإنجليـز أوريسا من ولاية ناجبور وأُخذت بيرار بشكل مماثل مـن الولاية وتم تسليمها لنظام (حاكم) حيدر أباد، واحتفـظ سينديا وهولـكار وبونسلا وجيكـوار بممتلكاتهم في مالوا وناجبـور وجوجرات وظل البيشوا يحكم في بونا مع قوات بريطانية (داعمة) بالقرب من عاصمته.

أطاحـت حـرب أخـرى عرفت باسـم حـرب الماهراتا الثالثـة في عام 1817–1818 بحكم البيشوا، وضجر باجي راو من الظروف التي كان هـو نفسه قد وافق عليها بموجب معاهـدة باسين، وأخيراً ثار ضد الإنجليز وتعاونـت قوات ناجبور مـع إندور. وسريعاً ما انتهـت الحرب؛ وتم إلغاء لقب بيشـوا على يد الحاكم العـام، اللورد هيستينجـز وتقاعد باجي راو وتلقـى نفقة من البريطانيين واحتل البريطانيـون أراضيه والتي تكون الآن رئاسة بومباي.

وبعد ذلـك بخمسة وثلاثين عاماً احتل لورد دالهوزي أراضي ناجبور عنـد وفـاة البونسـلا الأخـير دون وارث طبيعـي وأخذ بـيرار أيضاً من الحاكـم من أجل نفقـات القوات (الداعمة) التـي كان الحاكم وافق على إبقائهـا. وبقي سيندیا وهولكار وجيكـوار محتفظين بممتلكاتهم في مالوا وجوجـرات، وهـم الآن قـوات ماهراتـا الوحيدة الخارجـة عن الاتحاد العظيم الذي سيطر على الهند في القرن الثامن عشر من نهر يومنا إلى نهر كريشنا.

سيوخ البنجاب

مـن عـام 1763 إلى عـام 1803. عندما أُطيح بسيـادة الماهراتا في هندوستـان في عام 1803 وفي الدكن في عـام 1818 أصبح السيوخ هـم المنافس الأكبر الوحيـد للبريطانيين في الهنـد. وكان غورو (قائد دينـي في المسيخيـة) جوفند، الذي كان قد حـوّل الشيعة السيخية إلى اتحـاد حربي قوي، توفي في السنة التـي تلت وفاة أورنجزيب. وخلال النصـف قرن الذي تلا ذلك ثـار السيوخ مراراً وتكـراراً ضد المغول والماهراتـا والأفغان ودمروا بلاد أعدائهم وكانـوا مدربين على الحياة

العسكرية القاسية وسط المتاعب والاضطهاد والكوارث، وهزم أحمد شاه، الذي هزم الماهراتا في بانيبت في عام 1761، السيوخ في معركة شديدة في العام التالي؛ ولكن السيوخ ثاروا ولم يهدؤوا بسبب هذه الكارثة الضخمة، وفي عام 1763 هزموا نائب أحمد شاه في سهول سارهند وبحلول السنة التالية جعلوا من أنفسهم سادة البلاد كلها من جهيلم إلى يومنا، وشكّل كل قائد وكل زعيم أراضي له ومجموعة من القرى ومازالت التقاليد تروي كيف ركب المنتصرون في عام 1763 خيولهم ليلاً ونهاراً وكل محارب كان (يلقي بحزامه وجرابه وملابسه ومعداته العسكري، حتى يصبح مجرداً من الثياب تقريباً، في البلاد المتتالية ليسجلها تابعة له).[1]

ولمدة أربعين عاماً بعد المعركة، ظل هذا الاتحاد الديني من المحاربين الإقطاعيين القوة العليا في البنجاب كما كان ماهداجي سيندیا وخليفته دولت راوسينديا هم القوة العليا في هندوستان، وكان دولت راوقد عيّن قائده الفرنسي، بيرون، كمبعوثه لإدارة شمال الهند في عام

(1) كتاب كانينجهام تاريخ السيوخ، الفصل الرابع.

1797 وفي عام 1799 كان رانجيت سينه قد ترك بصمته بين السيوخ وكان قد حصل على التسليم الرسمي للاهور من ملك كابول. وتوصل بيرون ورانجيت سينه إلى اتفاق حول تقسيم البلاد جنوب لاهور ولكن بعد ذلك بوقت قصير دمّر الإنجليز قوة سيندیا في شمال الهند في عام 1803.

رانجيت سينه

من عام 1803 إلى عام 1839. كان النفوذ الذي مارسه الاتحاد السيخي من القادة والمحاربين لمدة أربعين عاماً، متمركزاً الآن في أيدي حاكم واحد عظيم وهو رانجيت سينه. وفي عام 1806 أبرم رانجيت سينه اتفاقية صداقة مع الإنجليز، الذين كانوا وقتها سادة شمال الهند، وتم التفاوض على اتفاقية أخرى بعد تلك بوقت قصير مع الممثل البريطاني السيد ميتكافو الذي دعمته القوات البريطانية، وتم توقيعها في عام 1809. وتعلن الاتفاقية أن، (الصداقة الدائمة ستظل موجودة بين الحكومة البريطانية وولاية لاهور). وأفادت بأن القوات البريطانية لن يكون لها أي تدخل في أراضي رانجيت سينه شمال سوتلج، وأن رانجيت سينه سيحتفظ بممتلكاته جنوب ذلك

النهر ولكنه لن يقوم بأية تعديات أخرى.

وما بين عام 1818 و1820 انتزع رانجيت سينه من أيدي المسلمين مقاطعات كشمير ومولتان وبيشوار وبذلك أصبح سيّد منطقة البنجاب كلها حتى جبال الشمال والغرب، وتم تعيين القادة الفرنسيين، فينتورا وألار، لتنظيم جيوشه وخلفهم كور وأفيتابل، وغزا نائبه، جولاب سينه، لادك في عام 1835 وتوفي (أسد البنجاب) العظيم في عام 1839 عن عمر يناهز التاسعة والخمسين.

اختفاء النفوذ السيخي

من عام 1839 إلى عام 1849. عدّلت عبقرية رانجيت سينه الاتحاد الساسي للسيخ وحولتها إلى حكومة ذاتية قوية وتغيّرت حشود راكبي الخيول المحبين للحرب الذين مثلوا قوة السيوخ سابقاً على يده إلى جيش منظم من خمسين ألفاً من الجنود وخمسين ألفاً من الفرسان والقوات الاحتياطية. وعندما انسحب يد رانجيت سينه القابضة أصبح الجيش غير متحكم في قوته وبعد ذلك تلت النزاعات السياسية. وكانت النتيجة حربين مع القوات البريطانية في عام 1845 وعام 1849 والتي فيها تم

كسـر قوة السيوخ واحتلال البنجاب وضمها للأراضي البريطانية على يد اللورد دالهوزي.

العربية

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

نُشر الكتاب (حضارة الهند) لأول مرة في حوالي عام 1900 في لندن، ويعرض الكتاب تاريخ الحضارة الهندية من العصر الفيدي، أي منذ حوالي عام 2000 قبل الميلاد، إلى عصر نهاية سيادة الماهراتا في حوالي عام 1818، ويعرض النواحي الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية للهنود، ويحدثنا عن نظم الحكم والديانات المختلفة في الهند ببعض التفصيل، ويعرض أيضاً بعض الصور التوضيحية لأماكن ذات أهمية حضارية في الهند.

تم تأليف الكتاب في ظل الاحتلال البريطاني للهند، ولذلك لم يذكر الكاتب الكثير عن هذه الظروف، وتعارض آراؤه حول بعض الحكام آراء المؤرخين الغربيين، وقد تختلف هذه الآراء من مؤرخ لآخر، وهو يعرض بتفاصيل ويعطينا معلومات ثرة والكثير من الأرقام فيما يخص الظروف الاقتصادية والاجتماعية والدينية في الهند.